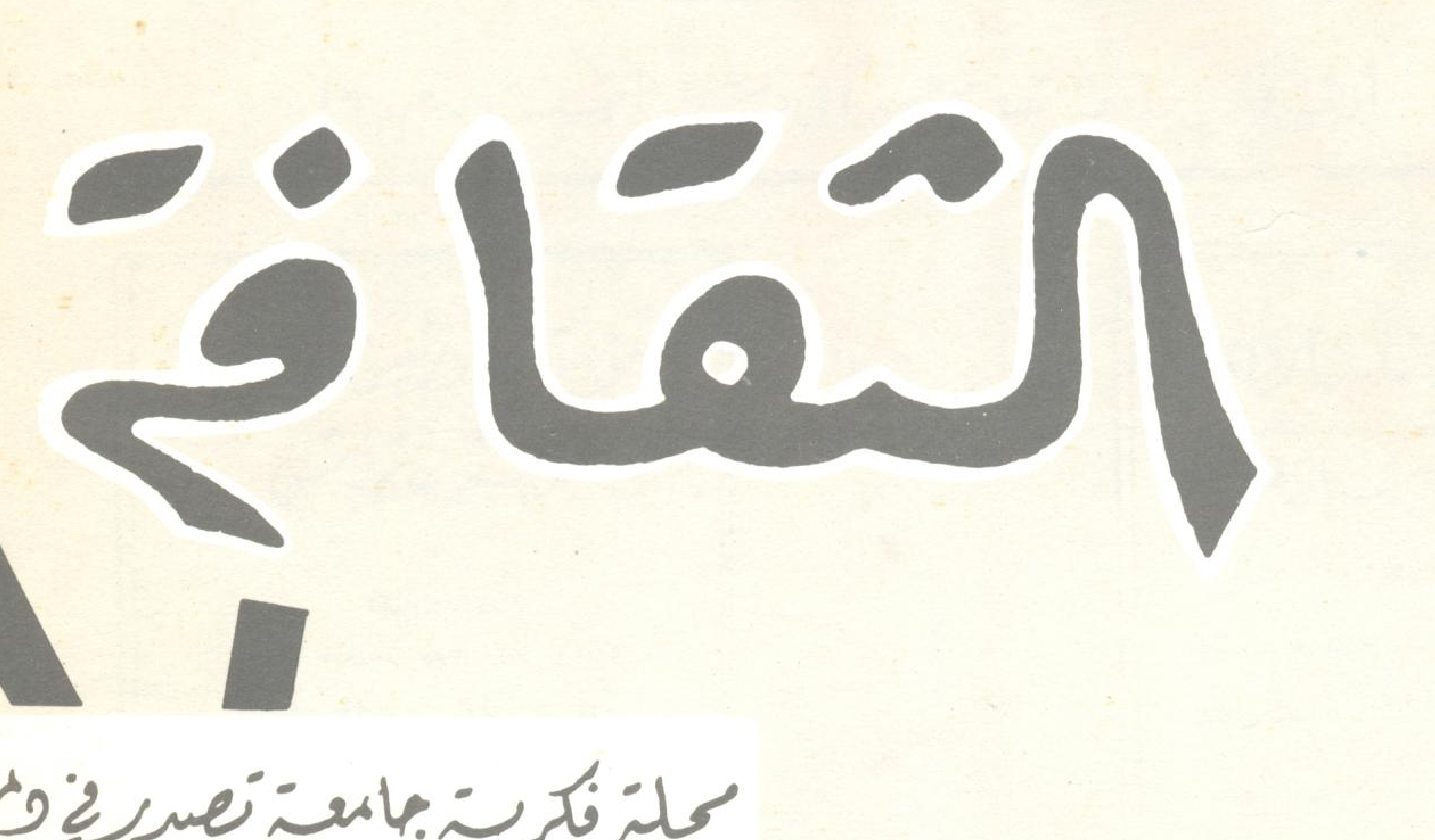


عدد خاص

شاعر الشآم شفيق جبري



ن الثاني شباط ١٩٨٩

الثقافة

أدبية فكرية جامعة تصدر شهرياً في دمشق تأسست عام ١٩٥٨

مؤسسها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش

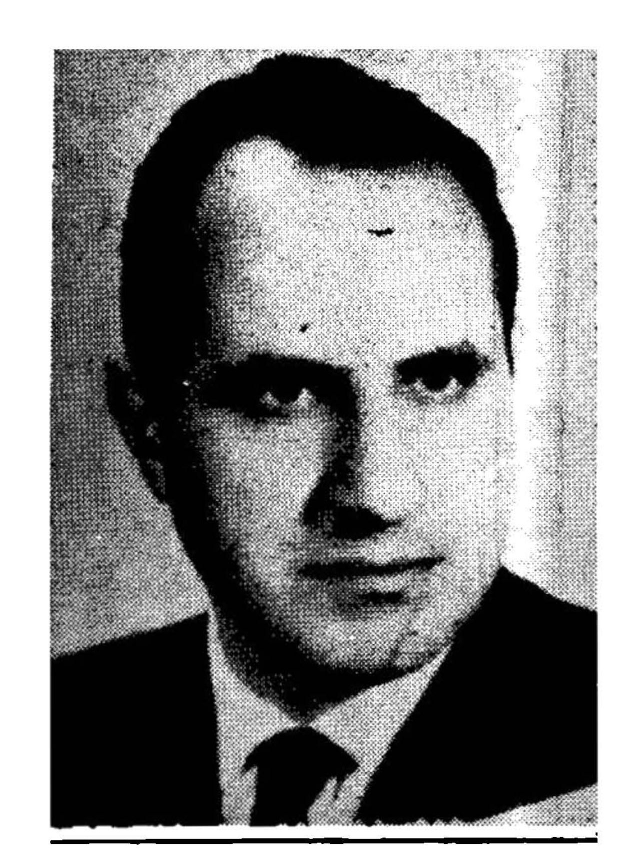
FONDATEUR
ET REDACTEUR EN CHEF
Madhat Akkache

P.H 229984 — هـ ٢٢٩٩٨٤
B.O.P. 2570 — ص . ب /٢٥٧٠/
DAMAS — دمشق



كانون الثاني

محتويات العدد



د . شكري فيصل

التجربة الشعرية عند شفيق جبري

د . شكري فيصل

محاضرة القيت في النادي العربي بدمشق بعد وفاته .

كان شاعرا ملء السمع والبصر .. وكان شاعرا ملء ذاته وكيانه وملء مجتمعه .. ولم يكن الشعر عنده صناعة من الصناعة المتكلفة ، ولا زخرفا من الزخرف السطحي .. ولكنه كان صناعة سمحة هي الطبع وزخرفا عفويا هو زخرف التلقائية ، كان شعره ذوب معاناته معاناته الفردية ومعاناته الاجتماعية .. ما ظهر من هذه المعاناة وما بطن ، ما عرف الناس او ظنوا أنهم عرفوا ، وما جهلوا .

وحين اراده الله ان يكون شاعرا وهبه كل عدة الشاعر الاولى : رهافة الحس ، ودقة النظر ، والقدرة على استيحاء الالفاظ وتطويعها لأوزانه وقوافيه .. على نحو ماوهبه من العاطفة المتأججة والشعور المستوفز ، والنفس التي تتطلع دائما الى أن تحقق ذاتها من خلال العمل الفني الذي تنهض به .

ولم يكن يؤمن بأن الشعر صناعة فحسب ، ولا أنه إلهام فحسب .. ولكنه كان يصرح دائما أنه مزيج من الموهبة ومن العمل الجاد الدؤوب في سبيل صقل هذه الموهبة ، والخروج من اسار الحياة الداخلية الى طلاقة اللغة ، تنسكب فيها وتنداح في ألفاظها وصورها .

وما كان كتابه الخالد (أنا والشعر) الا محاولة للتأكيد على هذا المعنى ، وايضاحا للمسار الذي مضت فيه شاعريته منذ أن وقع له للمرة الاولى وهوغريب في الاسكندرية ديوان المتنبي .. فمض به يقرأ ويحفظ منه ، ويقيم

هذا اللقاء الاول بينه وبينه ، وهو اللقاء الذي سيستحيل بعد الى تفاعل عميق .

وحين نقرأ شعر جبري أو حين نسمعه .. حين نؤخذ به يلقيه او ندور معه في فلك صوره وقوافيه ، وتأخذنا النشوة لهذه القدرة القادرة على اقامة هذا الشعر على هذا النحو المعجب أو ذاك .. وحين تأسرنا قوافيه نمر معها قبل ان نصل اليها ، ونقع عليها قبل ان نسمعها ، ويسوقنا صدر البيت الى عجزه ، حتى ليخيل الينا اننا نحن الذين نصنع هذا الشعر ونحن الذين نقوله .. حين يكون ذلك فان الذي يسبق الى تصورنا ان هذه السهولة السهلة وهذا المساق الممهد الندي انما اتفق للشاعر عفو الخاطر ، وأن شفيق جبري لم يعان في سبيل صياغة الشعر الا أقل الجهد .. ألسنا نتذوقه فيحلو مذاقه ونفهمه فنرتضي معانيه ، وتتجلى لنا صوره فاذا هي هذه الصور التي لا تتسرب من خلالها رائحة العرق ولا تتخايل من حولها جهود الصنعة .. ؟

وذلك هو الوهم الكبير الذي ننقاد اليه أحيانا .. فهذه السهولة التي يطالعنا بها جبري وهذا اليسر الذي تمسه يخفي ، في يراعه ، جهدا كبيرا استطاع الشاعر ان يكتمه .. وان مثله مثل سطح البحر في يوم صائف لا يكاد ينبىء عن شيء من أعماقه ، ولكن أعماقه تمور بالحركة وتضطرب بالموج الذي لا يلبث أن يصمت حين يقترب من السطح او يلامسه .

ولست أنا الذي يقول ذلك ، ولكنه جبري نفسه هو الذي يقوله في مرات كثيرة ، لا يتهيب أو يداري ، في اعترافاته الادبية التي ساقها في كتابيه الرائعين

أنا والشعر وانا والنثر .

والحق ان هذين الكتابين من أروع ما خلف استاذنا الكبير تقرؤهما فتنسى قدرته الشعرية او تغيب عنك ثم تعود الى شعره فتنسيك روعة شعره روعة نثره واسلوبه فيه .ونفاذه من خلاله الى كثير من دقائق العمل الفني .. وتجتذبك بعد ذلك أبحاثه ، فاذا أنت أسير هذه الثلاثة الانواع التي كتب فيها شعره ونثره ودراساته .

وما كان لهذا الحديث أن يتجاوز شعره .. وانما هي الاشارة الخاطفة الى الجوانب الاخرى التي ننساها أحيانا او نغفل عنها حين تطالعنا حياة هذا الاديب الكبير والشاعر الكبير والناقد الكبير والباحث الكبير، فقد استقر في أذهاننا شعر جبري ولكن نثره لم يتمكن في حياتنا على نحو ما مكن شعره .. لا أدري أذلك لأننا أمة شاعرة يظل الشعر قبل أن يؤدي الى ما آل اليه من تجارب ـ وهذا أضعف الوصف ـ أقرب اليها وأحب من النثر .. أذلك لأن جبري عرف في البدايات شعره ؟ أذلك أثر لهذه الموجة الشعرية التي أضاءت دروبنا في العقود الاولى بعد الحرب والتي مثلها هؤلاء الكبار أساتيذنا ، رضي الله عنهم ، البزم والزركلي ومردم وجبري والبدوي ؟ أيعود الامر الى الصدى الضخم لأحداث الوطن وبكاء رافقه من خلال أحداثه أو

رثاء رجاله .. هذا الصدى الذي وقر في اسماعنا .. ؟ أهو السبب الواحد من هذه الاسباب ام هي هذه الاسباب مجتمعة ، تضافرت على أن ترى من جبري أول ما ترى منه شعره الذي كانت تصفق له وكانت تنتشي به في المحافل .

آنني لا آزال على ذكر من هذه القصيدة التى أنشدها جبري ذات يوم في حفل وطني .. لا آزال أذكر القاءها .. والالقاء عند جبري جزء من عمله الشعري ، جزء من شعره وجزء من قصيدته يحتفل له من غير تكلف ، وتنهض سهولة الشعر عاملا فيه .. في ذلك الحفل الحاشد كان الناس - وأوشك أن أقول كان الناس كلهم - كأنما تدور بهم الارض من تحتهم والسماء من حولهم .. كانوا مشدودين اليه ،وكان يعبث بهم هذا العبث الفني ، يراقصهم بوزنه ويراقصهم بايقاعه ، ويراقصهم بقافيته ، كانوا طوع اشارته حتى لكأنه منهم في موقع قائد الفرقة الموسيقية ولكأنهم منه في موقع أفراد الفرقة التي لا تند عنه في حركة أو صوت أو صدى .

لم يكن عجيبا اذن ان يتحدث جبري عن القاء الشعر في أول ما كان من حديثه عن شعره في المحاضرة الاولى من سلسلة المحاضرات التي ألقاها في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة . وأن يؤكد على عفوية هذا الالقاء ، وأن ينأى به عن ان يكون سلسلة من الاشارات والحركات وأن يبتعد به عن كل مظاهر التمثيل .. ان مثل القاء الشعر مثل صناعته (فكما ان من جوهر الشعر أن يكون ابن الطبع فكذلك ترى ان من جوهر الالقاء أن يخلو من كل تكلف) (١) .

الشعر ابن الطبع .. هذه هي القضية الاولى في شعر جبري وعند جبري .. الطبع محور الشعر وخصيصته الاولى .. ولكن حذار أن تفهم الطبع فهما قاصرا او فهما غيبيا .. الطبع في حاجة الى اعداد دائم ومعاودة مستمرة وعناية دائبة .. قد تولد جرثومته او نواته الاولى مع الانسان .. ولكنه في حاجة الى مثل رعاية الوليد حتى ينمو .. انه في حاجة الى صقل والى تثقيف .. في حاجة الى آفاق من امامه ، والى تجارب يمر بها ، والى أنواع من المعاناة حتى يقوى ويستيقظ ويستوي على سوقه ، وحتى يخرج شطأة ويعطي ثمره .

وليس الامرفي تأصيل هذا الطبع وفي اغنائه اثر جهدمقصور محدود يبذله الشاعر في سنوات ثم يتوقف عنه حين يبلغ منزلته الرفيعة .. ان الحفاظ على المنزلة الرفيعة في الشعر هي أصعب مهام الشاعر لأنها تقتضيه دائما متابعة قدراته ، وتنميتها والخروج بعمله الشعري من أفق الى أفق أعلى ..
ان دنيا الابداع الشعري لا حدود لها .. خط الافق فيها لا يزال يتباعد من أمامنا ويفر من بين أيدينا كلما خيل الينا أننا بلغناه .

والحق أن شفيق جبري مثل للجهد الشعري بقدر ما هو مثل للالهام او للطبع .. انه نموذج نادر لهذه المواءمة بينهما .. وحتى ترسم الخطوط في سيرته الادبية من خلال اعترافاته يأخذنا الاعجاب بهذه السيرة بقدر ما يأخذنا الاعجاب بانتاجه ، وتهبنا هذه السيرة خطوطا سحرية

مثيرة .. ويتراءى لنا هذا الجني العبقري الذي كان يسكن صدره ، وكأنه جني صناع مرنت يداه على خفة الصياغة وألف ذوقه حسن الاختيار واكتست أجنحته من هذا التطواف بأودية عبقر كل لون .

هل أنا في حاجة الى أن أؤكد هذه الحقيقة الكبيرة في حياة جبري وفي سيرته وفي انتاجه ؟ لقد قطع علينا - رحمه الله - الطريق الى ذلك .. تولاه بنفسه وعرضه أدق عرض ، ولعله أصدق عرض ، حين حدثنا عن المرحلة الاولى من حياته الشعرية ، كانت - ونستطيع ان نقولها ، مادام قد تجاوزها - في غير تحرج - مزيجا من التقليد والاعتذار والحفظ والاستلهام والاقتباس والمعارضة ..
لا أستعمل هذه الكلمات على سبيل الترادف ، وانما على أنها تعبير عن واقعات محققة لها شواهدها الحية من حياته وشعره .. بل هو الذي استعملها : لقد تحدث عن حفظه لشيء من شعر المتنبي .. وعن نظره في شعر البحتري .. وعن تقليده للشريف الرضي ، وعن عكوفه على بعض الشعراء العباسيين ، وتحدث عن معارضته لهذا الشاعر او ذلك من المحدثين ومن المتقدمين .. وضرب له الامثلة في صراحة آسرة .. وصف لنا كيف كان يقتبس الافكار حينا وكيف كان يقتبس الالفاظ حينا آخر .. وكيف كان ذلك يداخله اولا ثم يستحيل ان ينبجس عنده شعرا ، وكيف كان يحيل النثر الذي بداخله ويعجب به الى شعر .. ولم يتردد أن يقول لنا انه بادىء ذي بدء كان يسعى وراء الكلمات التي يحتاج اليها في القافية ..

وفي مثل الفارس الذي يعلو ظهر حصانه وينتصب فوقه مرفوع القامة واثقا من منزلته التي آل اليها حدثنا عن تعثراته او بداياته الاولى .. عن القصائد التي كان يسمعها فتفجر عنده بعض قصائده .. كان هذا الذي يسمعه أو يقرؤه مثل عصا موسى تقرع عالمه الداخلي لتفجر عنده الماء .. ولكن الماء لم يأت من العدم وانما كان مختزنا في باطن الارض .. كذلك كان شعره مختزنا في داخله يترقب الفرصة للظهور ..

واذا كان جبري قد استعمل مثل هذه التعابير والصيغ في تصوير خطواته الاولى على طريق الشعر : الاقتباس ، التقليد ، الاستيحاء الاستلهام ، فقد استعمل بعدها - لمرحلة اخرى - تعبير المعارضة ، انه يقول - في أطول اقتبسه من كتابه " أنا والشعر "

(أعجبت في اول عهدي بالشعر بثلاثة شعراء : خير الدين الزركلي والشيخ رضا الشبيبي والشيخ فؤاد الخطيب فاذا عمل خير الدين قصيدة كنت أبادر الى معارضته ، وأذكر أن اول قصيدة عارضته بها قصيدته في رثاء شهداء العرب :

نعى نادب العرب شبانها
فجدد بالنعي احزانها

فقلت في قصيدتي في ثورة الحجاز:

مروج دمشق وغيطانها
سقتك السحائب هتانها

ولما قال ابياته :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله
ان لم يحل وثاقه وعقاله

قلت بعد اسبوعين :

سدت مسالكه فضاق مجاله
واها له فمتى يحل عقاله

وأما الشيخ رضا الشبيبي فانه عمل قصيدته :

فتنة الخلق ـ وقينا الفتنا
باطل الحمد ومكذوب الثنا

فعارضته بقصيدتي :

علموه كيف يعفو فعفا
وثنوه عن علاه فانثنى (١)

ولما قال قصيدته :

ببغداد أشتاق الشآم وها أنا
الى الكرخ من بغداد جم التشوق

قلت قصيدتي :

أحن الى بغداد من أرض جلق
واسأل اهل الشام عن كل معرق

ولست أذكر اني عارضت الشيخ فؤاد الخطيب بشيء من الشعر ، غير أني كنت معجبا بقصيدته في الثورة :

لمن المضارب في ظلال الوادي
ريانة الجنبات بالرواد

ولا يبعد اني لما عملت أبياتي :

يا ظبية عرضت لنا بالوادي
حيراء تحذر وثبة الارصاد

خطرت ببالي قصيدته هذه التي ذكرتها :

هذا وقد نشر مصطفى صادق الرافعي في احدى صحف مصر من ست وثلاثين سنة قصيدة من خفائف الشعر ولست أذكر مطلعها على وجه الضبط وقد يجوز أن يكون المطلع :

ندى الورد على فلك
كسفت الورد والفلا

فأعجبتني هذه الخفائف فعملت قصائد على شكلها منها قصيدة عنوانها مناغاة طفلة :

وميض البرق من ثغرك
فديت البرق والثغرا

ومنها قصيدة عنوانها : مناجاة الطير :

غن يا طير لي ولك
سلم القلب ام هلك

ومنها قصيدة عنوانها : أغنية المغلول :

أنا طير مغلول
متى أنجو من الغل

ثم أقلعت عن هذه الخفائف وعن كل معارضة ، وجريت على طبعي وحده : (ه . ص ٩١)
وكذلك نلاحظ منظومتين من التعابير عن مرحلتين متتاليتين في المرحلة الاولى التي أسماها مرحلة الاقتباس نجد مثل هذه الصيغ : الاقتباس ، الاستيحاء ، التقليد ، وفي مرحلة تالية نجد مثل : المعارضة ، والاخطار على البال .

ولكن جبري لا يطلق هذه التعابير اطلاقا يفهمها القارىء، كما يشاء ، وانما يحرص على تفسيرها تفسيرا يشبه ان يكون خاصا .. لم ير فيها أخذا ونقلا مباشرا او غير مباشر ، ولم يحملها على معناها الحرفي وانما حملها على نوع من الصلات النفسية بين ما يقرؤه وما ينشئه

يقول مرة عن الاقتباس (ص ١٣) وهو يفسر كيف أنشأ قصيدته " خيال الغد " ومطلعها :

يا خيالا يطوف حول خيالي
في حجاب يكي سواد الليالي

بعد أن قرأ للمنفلوطي في نظراته قطعة بعنوان : الغد ، " انه يفتح باب الشعر أو يلهم الشاعر او يمنحه بعض الرؤى ، يقول :
" لا يستطيع الشاعر ان يتقيد بكل ما يقتبس عنه ، فهو اما ان يزيد على مقتبساته ، وأما أن ينقص منها ، انما المهم في هذا الشأن أن هذه المقتبسات تفتح له باب الشعر وقد كان مقفلا فتتراءى له المعاني نفسها التي وقف عليها ، ومرة تتراءى له معان غيرها ، فيخوض موضوعه وقد رأى السبيل ممهدة ."

ويقول عن الاستلهام وهو يفسر كيف أنشأ قصيدته " الزمن " اثر قراءته لقطعة كتبها أحد خطباء الكنيسة في فرنسا في القرن السابع عشر اسمه ماسيون :
" لقد قرأت قطعته ، فاذا أفادتني شيئا فانها الهمتني الشعر الهاما . لقد فتحت لي باب موضوع لم يكن مفتوحا من قبل فدخلت هذا الباب ، ولكني دخلته من الطريق التي ألفتها ، ولم أبتكر له مدخلا آخر ، دخلت باب هذا الموضوع فوصفت الزمن على النحو الذي ألفه شعراؤنا في القديم واستعرت من بعض أولئك الشعراء بعض تراكيبهم فحولتها الى ما أريد ، من ذلك قول المتنبي في وصف الاسد :

في وحدة الرهبان الا أن
لا يعرف التحريم والتحليلا

فجاء في قصيدتي في وصف الزمن :

في قوة الاقدار لا تكوي به
بيض الظبي وفيالق الاقيال

والخلاصة لم يأت في قصيدتي " الزمن " شيء ما مما جاء في كلام ماسيون ولكنه الهمني العنوان لا غير . فخضت الموضوع وأنا لا أدري كيف كنت أخوضه ، فكنت أقرأ بعض كلام القطعة وأنقطع عن القراءة فتجيش في خاطري أبيات لا صلة لها بهذا الكلام .." ص ١٢.

ويذكر جبري بعد هذين المثالين وهو يسوق اعترافاته عن المرحلة الاولى من حياته :
وعلى كل حال ما كنت استطيع قبل ٤٢ سنة (كان كتابه هذا في سنة ١٩٥٩) أن أخوض موضوعا شعريا الا اذا فتح لي باب هذا الموضوع فاما أن أدخله من جهته الصحيحة واما أن أحول وجهي عنه وأدخله من باب آخر " .
وكذلك فسر جبري الاقتباس والاستلهام والقراءات التي كانت أول عهده بنظم الشعر ، ورد ذلك الى ما يثير عنده في النفس :
" اذا بحثت عن اوائل القصائد التي عملتها فانني لا أتذكر كبير عناء في هذ العمل ، فقد أشرت في بعض الفصول الى أني عملت ثلاث قصائد في شهر واحد ،

وهذا عمل يتعصى علي في هذه الايام " يريد سنة ١٩٥٩ "، كنت لا أعاني ما أعانيه اليوم من الجهد في قول الشعر ، فحسبي أن أقرأ قصيدة لشاعر من كبار شعراء العصر الذي عشت فيه أول عهدي بنظم الشعر حتى يتهيج الخاطر وحتى يجيش الشعر في الصدر ، فاذا بالقصيدة تامة في أيام قليلة ".

فاذا جاء يتحدث بعد ذلك عن المعارضات (وأرجو أن أذكر بأن هناك مرحلة عريضة واسعة تفصل بين المعارضة والتقليد) التي وقعت له فانه يورد كلاما أطول .. انه يفسر المعارضة بأنها نوع من الاعجاب ويحملها عليه ، فهو لا يقلد ولا يحتذي ما يقرؤه ، وانما يعجب به ، فاذا أعجب به تمكن منه ، فاذا تمكن منه جاشت به نفسه شعرا جديدا ، ولهذا اقترن عنده في النص الذي قرأته لكم ما بين الاعجاب والمعارضة .

وكأنما أحس حاجته الى فضل ايضاح لهذه المعارضات .. فضرب لنا مثلا آخر من معارضته للاقدمين ، بعد أمثلته لمعارضة المعاصرين فقال " ص ٩١ – ٩٢).

وكما كنت أعارض بعض الشعراء الذين عشت معهم في عصر واحد ، فكذلك كنت اقرأ بعض شعر المتقدمين فيعجبني بيت من قصيدة أو بيتان فتنهض النفس لعمل قصيدة بسبب هذا البيت أو هذين البيتين فاني كنت أطالع كتاب الأغاني ، فوقعت على أبيات لا أذكر صاحبها جاء فيها :

جوت من رحل ومن رحلة
يا ناق ان قربتني من قثم
نك ان قربتنيه غدا
عاش لنا السير ومات القدم

فألهمني هذان البيتان قصيدتي في الحرية :

هاج نسيم الريح في أمرها
بالله يا ريح ابعثي ذكرها

وقد جاء فيها هذا البيت :

نجوت من ظلم ومن ظالم
يا ـهر أن يسرت لها عسرها

وعقب على هذه القصة بما يلي : ثم وضح المعارضة مرة أخرى بالمقاطع التالية :

ص ٩٢ (ولئن عارضت هذين البيتين وأنا لا أعيش في عصره " عصر صباه " ولا أفكر تفكيره ولا أشعر شعوره فقد تقاربت الأذواق في هذين البيتين وهذا ما حملني على معارضته . فما معنى المعارضة في ذهني ؟ ولماذا كنت أعارض بعض الشعراء ؟

اني لاأجد في هذا الأمر غير سر واحد ، فقد كنت معجبا بشاعرية الذين عارضتهم ، معجبا بأذواقهم وموسيقاهم ، كنت أرى تقاربا في فننا وأذواقنا ، فاذا قرأت شعر احدهم تهيجت النفس فاستعدت لمعارضته ، منقادة الى ذلك بمجرد هذا التقارب لا غير ، فلو كان فننا متباعدا وأذواقنا متباينة لما مالت النفس الى شيء من المعارضة ، واذا كانت الارواح جنودا مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف فان أذواق الشعراء على هذا الشكل أيضا ، انها تتآلف بالتعارف وتتخالف بالتناكر ، وما التعارف في هذا المقام الا تقارب الفن والذوق والموسيقى وما التناكر

الا تباعد هذه الامور كلها .

هذا ما كان يدفعني في معارضة الشعراء الذين أعجبت بهم أول أمري) .

لا أدري ماترون في هذا التفسير .. أهو تفسير مقنع امهو تفسير لين ؟ .. ولكن الواقع ان شأن جبري في ذلك شأن الكثيرين من المبدعين في بداياتهم الاولى .. او في مراحل النضج يتأثرون تأثرا ما شديدا او ضعيفا بما يقرؤون .. ومن المستحيل الا تترك القراءات أثرها .. غير أن هذا الأثر قد يطفو على السطح وقد يعمل عمله من وراء حجاب .. قد نشعر به وقد لا نحسه .. ولكن شاعرا مرهفا دقيق الملاحظة شديد الرصد لحركته الادبية وشديد المراقبة لعمله الفني ذا احساس متميز ، شاعرا مثل جبري - جديرا بأن يكون على بينة وادراك لكل ما يكون من عمله الذي ينتجه وشعره الذي يعرضه للناس .

ويتميز جبري في هذا المجال بأنه يتمكن مما يقرؤه او مما يعالجه متأنيا او يتذوقه متمهلا، ويفتح له السبيل ليستقر في أعماقه .. انه ، وهذا تعبيره هو يقوله عن نفسه : " أشعر بأن ملكة الهضم والتمثل قوية في ، فقد انتفعت في زمن قصير بما لا ينتفع به الا في زمن طويل " .

ومن الطبيعي الا يكون ما يأتي به جبري أثرا لهذا التمثل والهضم - مماثلا للاصل .. كانت ثقافته وتجاربه كفيلة أن تغمس قراءاته واستيحاءاته ، في ذاته ، وأن تلونها بألوان من فرادته .. وذلك هو الذي يوضح قوله السابق من أن الشاعر لا يستطيع أن يتقيد بكل ما يقتبس عنه ، فهو أما أن يزيد عليه أن ينقص منه .."

أيا كان الرأي في حديثه عن المعارضة والاقتباس وما اليهما فمن المؤكد أن جبري تجافى ذلك كله واقلع عنه .. ألم يقل في أعقاب حديثه عن معارضته لخفائف الرافعي : " ثم أقلعت عن هذه الخفائف وعن كل معارضة وجريت على طبعي وحده ؟ " ص ٩١ .. ثم ألم يقل : في أعقاب حديثه عن معارضته لبعض الشعراء الذين أعجب بهم : " ولم يدم هذا الشأن طويلا فقد انقطع عني شعرهم منذ سنين غير قريبة وملت الى الانفراد والاستقلال ، فمن تلك الايام البعيدة كنت لا أعمل شعرا الا منقادا الى الهامي وحده ، لايخطر على بالي شعر شاعر ، لا من المتقدمين ولا من المتأخرين .

وحق ذلك .. فما كان لمرحلة أن تدوم وما كان لمثل هذه المرحلة عند هذا الانسان الذكي المرهف التي أودعته جنيات الشعر أسرارا من أسرار العبقرية فصفت نفسه وصقلت حسه وأذكت ملاحظاته وتلت عليه - روائع من الادب العربي ثم أتاحت له أن يقرأ روائع من الادب الفرنسي .. ما كان لمثل هذه المرحلة عند مثله أن تطول .. وانما هي طريق قصيرة الى ما وراءها .. الى المرحلة التي يستكمل فيها وجوده الادبي أويقترب من هذا الاستكمال، والتي ينضج فيها عمله الشعري أشد مايكون نضج في مثل ظروفه .. فيستوي على قدميه وترتفع عيناه في محاجرها ترود آفاقا جديدة غير هذه الافاق التقليدية الاولى .

قد يكون عسرا تحديد المرحلة الزمنية التي غادرفيها جبري هذه المرحلة الاولى .. لأن التأثر لا يمكن أن ينقطع ، وما قاله من أنه صار لا ينظر الى متقدم أو متأخر يحتاج الى نوع امتحان ، وقد يكون مجالا لبعض النقاش .. وبخاصة اذا ذكرنا قصيدته التي قالها في استقبال حافظ في حفل تكريمه الذي أقامه له مجمع دمشق .. أفلا تذكرنا هذه القصيدة حين نقرأ منها هذه الأبيات :

سر في دمشق ونادم ان نزلت بها
عصابة نادمتها روح حسان
هذا الرحيق وفي أظلاله بردى
يجري بروض على الفيحاء ريان
لكن جفنة قد أودت مواكبهم
فما تعج بأرباع وأوطان
خلت دمشق من التيجان وانبسطت
أمية في الحمى من غيرتيجان
وقفت أنشد في الأفناء أرسمهم
لا الملك ولا السلطان سلطاني
لم يبق من عبد شمس غير خاطرة
أروي مغارسها من ماء أجفاني
أشقى وأنعم في أعطاف هبتها
فيها الردى وبها روحي وريحاني
تكاد تنبض من جنبي خيالتهم
ماكان أبعدهم عني وأدناني
يبلى الجديدان ماتبلى مناقبهم
في النيربين اذا كر الجديدان

الا تذكرنا ،بعض تذكر ،بقصيدة شوقي :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا
مضى على الرسم احداث وأزمان

أترى أستاذنا المرحوم أخطرها بباله .. أم كانت هي التي ملأت باله كما ملأت بال العرب جميعا في سورية حين استهووا اليها

مهما يكن من شيء فقد غادر جبري مرحلته الشعرية الاولى الى مرحلة جديدة .. وفي هذه المرحلة الجديدة لم يعد هناك مجال لكل هذه التعابير والمصطلحات : الاخذ والاقتباس والاستيحاء والاستلهام والتقليد والاعتذار .. لم يعد هناك حاجة الى الاخطار على البال أو الى قراءة النماذج المثيرة أو الى طلب مايفتح به الباب أو الى التفتيش عما يبعث الاعجاب .. كل تلك تعابير تزول وتختفي، ولا

يبقى منها الا ما تبقى التجربة أو التجارب الاولى في نفس صاحبها من القوة والايد مما تخلفه المعاناة ، سيتخذ شفيق جبري سمته الجديد فقد اكتملت أو أوشكت أن تكتمل له شخصيته الأدبية .. وسيقلع عن الخفائف وعن كل معارضة ، وسيجري على طبعه وحده .. انه سينقطع عن هؤلاء الشعراء الذين عارضهم وسينقطع شعرهم عنه ، فقد بلغ الى الانفراد والاستقلال ، ولن يعمل شعرا الامنقادا الى الهامه وحده لا يخطر على باله شعر شاعر لا من المتقدمين ولا من المتأخرين

لقد أقلع - على حد تعبيره - عن كثير مما كان يفعل حين كان يقول الشعر .. دخل دنيا الابداع المحض بقدر ما يمكن ان يكون الابداع في عمل فني كالشعر العربي المثقل بالتقاليد - محصنا . وتجاوز أن يكون الشعر انفعالا وجيشانا الى أن يكون عملا مصنوعا الى أن يكون معمارا أوتشكيلا .. وبدأ يعاني في قوله ما لم يكن يعاني من قبل من جهد ..

ولعل ما يوجز المرحلتين أن نقول : ان حظه من العفوية

اللؤلؤية التي كانت
من ورائها حمرة خدية
من حوله يقومون ولايقعدون

ومن الحق أن تقول أن طبعه هنا ظل هذا الطبع السهل ، ظل يمده بكل ما عنده من سماحة ومن قدرة .. كان ألف الشعر .. وألفه الشعر .. وارتسمت صورته في نفسه وصورته عند الناس ، على أنه احد شعراء الرعيل الاول فكان لا بد له في منطق الحياة وفي منطق الحياة الفنية بخاصة أن يقوى عنده احساسه بمسؤوليته نحو فنه .. ان مكانته الشعرية أصبحت تفرض عليه أن يتعامل مع الشعر تعاملا خاصا يتجاوزفيه ـ او يجب ان يتجاوز ـ في كل قصيدة جديدة الحدود التي وصل اليها في القصيدة السابقة .

واعترافات جبري تدل على أنه كان يدرك ذلك وكان يعانيه أيضا . . انه في الفترة الاولى ـ كما يصرح هو ـ كان لايقدر كثيرا من عناصر العمل الشعري كالصور والالفاظ حق قدرها وكان لا يفطن الى أسرارها ، فلم يفكر في تنقيح أو تنسيق ، وكانت القصائد غير طويلة ، " فكنت أشرع فيها وأفرغ منها في وقت قصير فلم أشعر بجهد أو عناء (ص ٩٣) أما اليوم فاني أمضي في نظم القصيدة وتنقيحها مدة أقلها شهر أو أربعون يوما حتى أتوثق من القصيدة .. أجل كنت لا أبالي بتنسيق وتهذيب ولكني كنت لا أهمل ولا يوجه من الوجوه قضية الالفاظ .."

وكان قد حدثنا بمثل هذا الاعتراف قبل حين وقال (ص ١٧ " يتحدث عن عمله الشعري في فورة الشباب : " ان الفترة بين قصيدة وقصيدة لم تكن طويلة فبعض الاوقات كانت شهرا ، وبعض الاوقات كنت أعمل ثلاث قصائد في شهر واحد

وهذا أمر لا أقدر عليه في هذه الايام (يوليو سنة ١٩٥٩) لأنه اختلف نظري الى الشعر ومهمتي له فقد امتدت آفاقه واهتممت كثيرا بتنقيحه كما سأشير الى ذلك . أما في عنفوان الشباب فقد كانت النفس هائجة مائجة لا تبالي بأشباه هذه الامور " .

ولكن هل صحيح أن الامر يعود الى فورة الشباب .. أم هو يعود الى الحركة الاولى على سلم الشعر الطويل ؟ .. أم هما الامران معا ؟

*

وكذلك يبدو أن جبري يرد الاشياء الجديدة التي طرأت عليه في عمله الشعري الى أمرين : أحدهما أنه امتدت آفاق هذا الشعر والاخر انه اهتم كثيرا بتنقيحه كما يعبر في مرة أو بتنسيقه كما يعبر في مرة أخرى ، أما عن امتداد آفاق الشعر فهو يقول : (ص ٦٨) أخذت أتصدى لموضوعات واسعة الآفاق ، وأي أفق أوسع من آفاق المتنبي والمعري وشوقي " يشير الى قصائده في المهرجانات التي أقيمت لهؤلاء الشعراء ،" أم اي أفق أوسع من أفق مولد النبي"

ويبدو أن هذا الامتداد في أفق الموضوع هو الذي دفعه الى التنسيق الجديد وحمله عليه ، ولذلك يتابع فيقول : فاذا لم أرتب الأجزاء ترتيبا وأنسقها تنسيقا ذهب عني أشياء كثيرة وتعاظمت الأفكار فركب بعضها بعضا

في المرحلة الاولى كان أكثر من حظه من الجهد . كان جهده الجهد الذي يتطلبه انجاز العمل .. أما في هذه المرحلة فان حظه من الجهد والمعاناة أضعاف أضعاف حظه من العفوية .. كان جهده الجهد الذي يفترضه التجويد ويقتضيه الاكتمال

فماذا عن هذه المرحلة الثانية ؟ ...

*

في هذه المرحلة الجديدة لا يقول جبري الشعر ، وانما يصنعه ، تغمره صناعته له ويكده مثل العرق الذي كان يتلألأ على جبهته أيام كان يلقيه .. هل تذكرون

وقد وضح صلته بهذا المتنسيق وبداياته فقال : (ص ٦٧) " وحسبي أن أقول اني كنت أعمل الشعر دون شيء من التنسيق وما اهتديت الى هذا التنسيق الا في قصيدتي في المتنبي . وبعد هذه القصيدة كنت لا أعمل قصيدة الا وضعت كل أجزائها في ذهني ورتبت هذه الأجزاء حتى لا يدخل بعضها في بعض .

ولكن ما الذي يعنيه حين يشير الى أبرز ما كان في مرحلته الثانية ، الى التنقيح أو التنسيق ؟

ليس التنسيق ابدال لفظة بلفظة أو تركيب بتركيب فحسب .. وانما هو فيما يبدو من حديثه في مواقف متفرقات ، بناء القصيدة .. معمارها اذا شئتم أن نستخدم المصطلحات النقدية الجديدة التي تسربت الينا عن الادب الغربي .. انه يريد أن يقول أنه أضحى يبني قصيدته .. يفكر في عناصرها وموادها ، في أجزائها وفروعها ، في النقاط الرئيسية منها وصلة ما بين هذه النقاط ، ثم يقيم من ذلك هذه المقاطع المتكاملة التي يحرص على الوحدة بينها وعلى اقامة كل جزء منها ، انه يريد ان ينفي العفوية عن شعره .. واذا كانت القصائد كما هو الشائع في أدبنا العربي - مجموعة من الخواطر أو الانفعالات ، مقترنة بمجموعة من الصور التي تجسدها أو تعبر عنها ، فان القصيدة الان في هذه المرحلة ، عند جبري ، تتجاوز ذلك الى أن تنشد نوعا من التناسب والتناسق والتعاضد .. لقد أصبح جبري ينشيء قصيدته انشاء ويقيم فيها هذا التشكيل اذا شئتم أيضا أن نستخدم مصطلحات النقد الحديثه صحيح أنه لم يتحدث عن المعمار او التشكيل بالنص ، ولم يقع على هذه الالفاظ .. ولكنه دفع على جوهر ذلك بحكم صفاء نظرته وسلامة طبعه ، ووقع عليه نتيجة للممارسات التي مارسها والمعاناة التي التزم بها .

انه يقول (ص ٦٧ - ٦٨) : " كنت أعمل الشعر دون شيء من التنسيق ،وما اهتديت الى هذا التنسيق الا في قصيدتي في المتنبي ، وتعود هذه القصيدة الى عام ١٩٣٥ - مهرجان الجامعة الاميركية ، " وبعد هذه القصيدة كنت لا أعمل قصيدة الا وضعت كل أجزائها في ذهني ورتبت هذه الأجزاء حتى لا يدخل بعضها في بعض

لقد تحدث جبري هنا عن وحدة الموضوع .. ومن المؤكد أنه داخله ثم داخل عمله بشيء كثير من هذا الحديث الكثير من وحدة القصيدة منذ كانت مقالات الديوان وصرخات النقاد في وجه شوقي واستطالاته عليه .. وقد فهم

جبري من ذلك ما فهمه .. وان كان النقد الحديث يذهب الى أبعد من ذلك حين يدعو - في تركيب القصيدة اوفي تكشيلها - أن يكون لها هذه الذروة ، ولكن الذروة لا تأتي دائما في آخر القصيدة فقد تأتي في اولها وقد تأتي في نهاية لها وقد تتوسطها وقد تكون عودة على البداية .. ان ذلك كله نوع من التشكيل مرده الى قدرة الشاعر والى اسلوبه الخاص الذي يبتدعه أو يؤثره .. والذي قد يتبعه في قصيدة دون قصيدة أخرى.

ان الذروة في التشكيل هذه تشبه أن تكون ما نسميه ببيت القصيد في القصيدة العربية .. ولكننا لسنا أمام مصطلحاتنا النقدية التي تواضعنا عليها دائما أمام ألوان جديدة .. سمّها بدعة .. او هجمة او تجديدا ، تصل الينا من النقد الغربي وتصل الينا جاهزة مع أمثلتها من الشعر الاوربي ولا بد من أن تجد لها مكانا في أدبنا الذي كان وفي أدبنا الذي يكون .

لقد اهتدى جبري اذن بسليم طبعه الى بعض ما يدعو اليه النقد الحديث من أن تكون القصية أشبه بالبناء يشد بعضه بعضا ويعتمد ركن منه على ركن ويقود ركن الى ركن ، يتضامن معه أو لنقل انه يندمج فيه .. على أن يتوفر فيما بين هذه الاجزاء أمران اثنان أساسيان : التناسب والتكامل .

والوصول الى ذلك وتحقيقه لا يمكن أن يتم عن طريق دفعة لبنة . لا يتم بنوع من العفوية بل لا بد من قدركبير من الوعي والحساب والموازنة .. انه عمل مدروس .. ليست العواطف وحدها هي التي تصوغه ، والجنية التي تسكن ضمير الشاعر لا تحمل ذلك اليه في صحاف منذهب .. ومع ذلك فانه لا يلغي العفوية اي لا يلغي الطبع وانما هي عفوية بصيرة ان صح هذا التعبير .. وانما هو كذلك الطبع الذي اكتسب بالمران القدرة على الموازنات بين الأجزاء ، واحكام ما بينها من صلات ووضعها في الموضع الذي تتكامل فيه في عمل فني محكم .

في هذه المرحلة الجديدة يحدثنا جبري على سبيل المثال عن ثلاث قصائد ويوضح صنيعه فيها : قصيدته في المتنبي ، ثم قصيدته في المعري ، ثم قصيدة صيحة النبي في ذكرى مولد الرسول الاعظم ، وفي كل يحدثنا عن الشيئين اللذين كان رأى أنهما - كما قدمت - مصدر هذا التطور : سعة الأفق يريد سعة أفق الموضوع والجهد الفني الذي بذله في صناعته .

وما أدري اذا كان جبري في هذه المرحلة وفي مثل هذه الأحاديث عنها يريد أن يقول : انه تجاوز الغنائية العفوية التيكانت له ، وانه منح شعره طعما جديدا في هذا الذي أسماه التنسبق أو التنقيح ، والذي أداره ، أكثر ما أداره ، على وحدة الموضوع ، فهل تأثر - رحمه الله - بالنزعات النقدية المعاصرة ؟ أم كان ذلك عنده من قبل .

الحق أن جبري كان على شيء من الاستعداد لذلك منذ بداياته الاولى .. وما يبدو في شعره أنه كان أثرا من آثار العفوية ، يستر في الواقع جهدا كبيرا .. ولكنه - هذا الجهد -

لا يتبدى على سطح القصيدة تعثرا وتعثكلا وتداخلا وفساد نظم .. انه صنع نفسه صناعة منذ البداية .. صناعة قائمة على الكد والعرق .. ودعونا نقرأ حياته من خلال كتبه في حديثه عن ذاته في كتابيه أنا والشعر وأنا والنثر لنتبين ذلك ..

لم يكن في مرحلة دراسته الثانوية حظ التمرس بالادب العربي على النحو الذي تحزر معه أنه سيكون شاعرا .. ولكنه حين خرج الى طلاقة الحياة بدأ يقرأويعنى بالقراءة ويختار ويكرر ويعاود ، انه يقول :. كان يقرأ الصحيفة الواحدة مرات ثم يعود اليها يحفظها ، ثم يعود اليها فينشئها انشاء .. ثم يحتفظ بكل ما يختار في دفتر او كراسة " أنا والنثر" ص ١٢ وما بعدها ، ينظر فيه كلما أتيح له النظر فيه .. ان الصفحات والمقاطع التي كتبها في ذلك تدل على جهد دؤوب .. فاذا جاء يتحدث عن هذا الجهد بعد ذلك في أعماله الادبية المتطورة فان بذور هذا الجهد واستخدامه والايمان به - ترتد الى زمن بعيد الى زمن الحداثة .. واذا تحكم هذا الجهد في أعماله الفنية بعد فان ذلك نوع من تطور المعاناة الذي حقق تطورا مماثلا في الاداء.

وأيا كان الشأن في المدى الذي أخضع فيه جبري شعره لهذا التنسيق .. فانمن الحق علينا أن نفهم هذا التنسيق في حدود الطبع لا في حدود التكلف.. فلم يفقد جبري طبعه ، ولا يمكن لشاعر أن يفقد طبعه .. وأن نفهم هذا التصميم او هذا البناء في حدود " الفنية " التي تعني المتعة ، ولا تعني الفائدة وحدها ، .. ان عناصر العمل الشعري الاخرى من مثل اختيار اللفظة وتشقيق ايحاءاتها ، وانشاء الصورة وصقل جوانبها ، وتوفير العنصر الموسيقي للأثر الفني - هذه كلها هي التي تمنح الشعر بعد ذلك نداواته وطراوته وهي التي تجعل منه متعة وهي التي تستر ما كان من أثر العقل في صناعته او في رسم حدوده ..

ان التشكيل أو البناء عمل عقلي .. ولكن القدرة الفنية على الصياغة ، قدرة الطبع ، هي التي تحيل هذا العمل العقلي بالتلاوين والصور والقاء الاضواء وتوزيعها واثارة العواطف - الى عمل فني يوشك ان ينسى - بل يجب أن ينسى - معه الفعل العقلي .. الصورة الفنية تغطي التصور العقلي ، والألوان تعطي الأشكال أبعادا غير أبعادها ، والخيال يحيل عناصر البناء التي قد تكون صلبة ، الى عناصر نشوى راقصة .. وكل هذه انما تأتي من الطبع ، وكلها هي التي تسبغ على النص الشعري خصائص الشعر أعني الغنائية فيه.

وبعد ، فنحن نتحدث عن جبري في المرحلة الثانية من شعره ، حين عمد الى هندسة قصيدته ، وخرج بها عن أن تكون حلية من التصورات والصور ، من الألفاظ والأفكار والانطباعات التي لاناظم لها الا عالمه الداخلي الى أن تكون عملا متناميا متكاملا متناسقا .

ولكن هل وفق جبري الى كل الذي أراده في ذلك ؟

منطق النقاد المنظرين منطق قاس صارم ، لا يسمح بأن

يتفلت جزء من القصيدة عن ان يكون له مكان في بنائها الكلي ..ولكن اذا كانت النظريات العلمية ذاتها تخضع الى كثير من التطور حتى ليلغي متقدمها متأخرها ويناقض المحدث منها القديم..فان النظريات في الدراسات الانسانية أدعى الى أن ينالها من هذا الخلاف بينها واحتمالات التطور النقيض فيها مثل الذي ينال النظريات العلمية او فوق الذي ينالها .

ومن يدرينا اننا ونحن نعيب في منطق المحدثين مثلا على الجاحظ تآليفه على هذا النحو من التنقل فيها بين موضوع وموضوع ، أن ينهض من يدعو الى سيادة هذا النهج في التأليف اذا استمر تقهقر القراءة المنظمة وغلبة الوسائل الجديدة في التوصيل من مثل الراديو والتلفزيون ؟ ليس شيء من ذلك بالبعيد ما دامت قد وجدت وسائل اخرى لتجميع المعلومات حول محور واحد ، وهو الأمر الذي يشكل أكبر النقد لمثل هذا الشكل من التأليف .

ماعلينا من ذلك الآن ..فان الذي أريد أن أشير اليه أن جبري لم يتقيد تقيدا كاملا بالقصيدة العضوية التي تترابط أجزاؤها ترابط البناء المكين ، وتتسامى في حركتها نحو ذروتها أو تنساب من هذه الذروة.. انه بدا وكأنه يريد أن يضيف أحيانا الى القصيدة أشياء قد لاتكون منها او من صلبها .

انه يريد أن يداخل هذا البناء - على أية وجه أردت - شيء أسماه : الجمجمات .. فما هي هذه الجمجمات

حين وضع جبري عمله في بناء قصيدته عن المعري في مهرجان ١٩٤٤ واستشهد بذلك على اتجاهه الشعري الجديد فيما أسماه : وحدة القصيدة في عملية التنسيق أو التنقيح التي داخلت شعره - لاحظ أنأبياتا من هذه القصيدة او مقطعا منها ليس ، أو لا يبدو ، محكم الصلة بما حوله من مقاطع .. انه المقطع الذي تحدث فيه عن الشعر وعن مكانته :

انما الشعر ثورة من صميم
القلب مالحنه وما أوزانه ؟
ان لويت الحديد عن عاتق الشعب
تلوت بسحره قضبانه
دول كالاحلام تدرج في الارض
وتبقى ندية أفنانه
هدم الدهر مشمخر المباني
وسما عن تهديمه ، بنيانه
رب تاج على جوانبه الدرنضير
أزرت به تيجانه
ابن صوب القلوب والفكر
الغر تعالى مثل السماء
مكانه

بالطبع ، من الممكن أن نجد الخيوط التي تصل بين هذا المقطع وبين قصيدة عن شاعر كبير كالمعري .. ومع هذا المقطع بدا وكأنه ليس من صميم الافق ذاته الذي كانت تدور فيه القصيدة وكأن نزعه منها لا يهدم شيئا من بنائها .

كان لا بد لهذا الصنيع الذي أراد جبري أن يتحاماه في هذه المرحلة من حياته الشعرية من سبب دفع به اليه ، وخرج به عن الخط الذي رسمه والمنهج الذي أخذ به نفسه .. فماذا كان هذا السبب ..؟

لم يسكت جبري عن نقده الذاتي لهذا المقطع ، ثم لم يكتم الحديث عن السبب الذي قاده اليه .. لذلك مضى يقول : " ص ٧٠ فاني في قصيدتي في المعري سنة ١٩٤٤ ، تصورت نواحيه كلها أو بعض نواحيه على الاصح وتكلمت عليها بحسب ما استطعت ، غير ان الشاعر في بعض الاوقات تغلب عليه وهو يعمل الشعر نزعة خاصة سببها أمر نفسي ، والامر الذي غلب علي وأنا اعمل في قصيدتي المعري في المعري يرجع الى اعتقادي أن بعض رجال الحكومات يكرهون الشعر والشعراء ، او يكرهون شعراء بأعيانهم ، فاغتنمت فرصة القصيدة لأرفع من منزلة الشعر، وما أظن أن وصف الشعر في قصيدة تقال في المعري أو في شوقي مثلا ، تخرج عن الموضوع أو تنبو عنه .. وهذا هو المقطع الذي جاء فيه وصف الشعر . "

هذا المقطع اذن ألصق بالشاعر ذاته منه بالمعري الذي يتحدث عنه جبري ..

ولكن من الذي يستطيع أن يزعم أننا نملك هذا الفصل الحاد في هذه الكتلة التي نسميها الشاعر - ومعذرة لهذا التعبير الهامد البارد الجاف - بين ما هو من ذاته وما هو من ذات موضوعه ؟ وهل الشعر في جملته الا هذه الذات ؟ .. ان كل المحاولات الموضوعية فيه ليست الا رد فعل لطغيان الذاتية أو الخوف من طغيانها .. ولكن يبقى - كيفما تقلبت بنا النظريات أو تقلبنا نحن في النظريات - يبقى أن المحور الاصلي - وقد يكون مغطى أو مغلفا او متخفيا - هو ذات الشاعر .. أفلا يقودنا ذلك الى اغتفار ما يبدو من هذه الذاتية على السطح ؟

مثلا هذا المقطع في القصيدة هو الذي يسميه جبري . الجمجمات ويقول " ص ٧٢ " : الشاعر لا يستطيع التفلت من حقيقة روحه ولو حصر موضوعه وبالغ وتشدد في الحصر .. والجمجمات لا تخلو من صلة بموضوعه فالشاعر في الحقيقة يعني بنفسه من خلال عنايته بموضوعه " -

والواقع ان النقاد المحدثين لا يمكن ان ينأو- مهما نزعتهم الموضوعية متحكمة - بالشعر عن اذتية الشاعر..ولكنهم لا يريدونها سافرة .. انه هنا يحلو هذا الحجاب الرقيق الذي قد يكون أدعى الى تصوير المحاسن وتمثيلها .

وعلى ذلك مضى جبري في صميم حديثه عن المعري يتحدث ، كما لاحظنا ، عن الشعر ، عن سلطانه الحقيقي مقابة بينه وبين السلطان الزائف الذي يتمتع به الحكام ويستطيلون به .. معنى يقارن بين دولة الشعر الخالدة وبين دولة الحكام المتسلطين الفانية التي هي كالاحلام.. تبدو ولا تتحقق ، وتظهر ولا تتأكد ، وتستعلي ولكنها لاتدوم مثل هذا الذي وقع لجبري في قصيدته عن المعري وقع له في قصيدته عن شوقي في مهرجان القاهرة ١٩٥٨ ، فقد هندس قصيدته على نحو ما ولكنه تصدى لوصف غزل شوقي لا على نحو ما كان يراه شوقي بل على نحو ماكان يراه هو " تصديق لوصف الغزل بحسب ما أراه أنا أكثر مما كان يراه شوقي ص ٧١".

غزل ينفذ القلوب فتلقى
بهواها فيصبح القلب صبا
فتظل العيون تغمز غمزا
وتظل الشفاه ترضب رضبا
ويكاد النسيب ينطق سحرا
ويكاد الهوى يشق الحجبا

وتري قبله الثغور على الخد
وتلقى مزاحها والدعبا
يتلاقى العناق والضم والشم
وهدب يلز فيها هدبا
لا تلمّ الشباك من كل درب
لم تغادر في غمرة الحب دربا

لويسيل الهوى خلال القوافي
سلسبيلا غمرت منه الهضبا
قد ملأت الشباب حبا وفاضت
جارة الواد في فؤادك حبا
فاذا جف في الشيوخ هواهم
هجت فيهم هوى الشيخ فأبا

فتنادوا الى الكؤوس وصاحوا
هاتها يانديم صرفا وصبا
أنت لاتدري ما تكن الليالي
ان توالت وما تكون العقبى

أتدرون بما فسر جبري هذه الجمجمة او بم اعتذرعنها ؟

لنقرأ هذا التفسير اللبق الذاتي " هو لبق اجتماعيا ،ذاتي فنيا " ، وهذا الاعتزاز الذي نشتم فيه رائحة الطفولة والبراءة ولاستسلام للذات والخضوع لها رغم كل الجهد العقلي الذي بذله في بناء القصيدة .. يقول " ص ٢٧٢ : لقد فتح لي شوقي باب الغزل فألهمني وصفه ، فتذكرت السن التي أنافيها وتذكرت الايام التي قضيتها في نضارة الشباب ،فتحسرت عليها وألمت أشد الالم ، فلم أجد ما يخفف عنيهذا الالم الا التعبير عن خوالج نفسي ، ولما قلت :

فاذا جف في الشيوخ هواهم
هجت فيهم هوى الشيوخ فأبا

لم أقصد شيوخا بأعيانهم، وانما قصدت نفسي قبل كل شيء. فأنا لم أسمع ياجارة الوادي، يغنيها محمد عبد الوهاب ، الا أحسست بشيء في قلبي لا يمكن تصويره وأذكر اني كنت أتكلم على شوقي في كلية الاداب في جامعة دمشق وذلك من أربع أو خمس سنين فجاء ذكر قصيدته :

شيعت أحلامي بقلب باك
ولممت من طرق الملاح شباكي

فما أنشدت ثلاثة أبيات منها الا شعرت بخفوت في صوتي وبدموع ، اوشكت ان تنحدر على خدي فقطعت الانشاد وخجلت بعض الخجل من نفسي . وقد قرأ الطلاب على وجهي هذا الاهتزاز وبعضهم فاتحني به بعد الدرس .

لم يكتف جبري بهذا التفسير الذاتي .. وانما مضى يجد الامثلة المماثلة لصنيعه هذا في تراثنا الشعري .. عاد بالمتنبي يستعين به على تفسير هذه الجمجمات كما سماها ، او هذا الجماح كما سيسميه ،فتحدث عن قصيدته في رثاء جدته فقال : " ص ٧٢ : واني لأذكر رثاء المتنبي لجدته الا تحقق عندي هذا الامر ، فقد كانت جدته من الصالحات ، وكان يحبها حبا جما ، فلما ماتت رثاها بقصيدة من أصدق الشعر ، لأنها صدرت عن قلب منفطر ، وانه لفي مثل هذه الحال يرثي جدته ويتحسر على وفاتها اذ ظهرت له نفسه من مكمنها وطالبته بتصويرها، فأبت

روحه الا أن تفيض على جوانب شعره فقال :

تغرب لا مستعظما غير نفسه
ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولا سالكا الا فؤاد عجاجة
ولا واجدا الالمكرمة طعما
يقولون لي :ما أنت في كل بلدة
وماتبتغي ؟ ما أبتغي جل أن يسمى
كان بينهم عالمون بأنني
جلوب اليهم من معادنه اليتما

اني لا اجد في هذه الابيات شيئا من الرثاء وانما أجد فيها المتنبي ، سواء أكانت هذه هي نفسه على حقيقتها أمكانت هذه هي الصورة التي يحب أن يرى نفسه فيها

وكذلك انتهى بعد هذه الامثلة الى التأكيد على هذه الشطحات الذاتية حين يقول : " فمهما نبالغ في حصر الموضوع حتى لا نخرج عنه ونتخطاه فلا بد لنا من الجماح ، وكأن هذا الجماح يدفعنا بعد كبحه الى الرجوع الى موضوعنا والتزام حدوده ومعالمه ".

واذا كان التنقيح ومدآفاق الموسوع عنصرا من عناصر المرحلة الجديدة في شعر جبري ، فأن هناك عناصر أصيلة كانت ترافق عمل جبري الشعري منذ بدايته ..لعلها كانت من بعض هبات السماء ، وتلك هي غايته بألفاظه وعنايته بموسيقاه .

وأفضل الا أتولى الحديث عن الالفاظ عنده ، وما تقود اليه او ما تبتعث عنده من صور .. اني أود أن تقرؤوا ذلك أنتم بلغة صاحبه واسلوبه ، فهي فوق دراسة واسلوب ، يقول :(اجل كنت لا أبالي بتنسيق وتهذيب .. ولكني كنت لا أهمل ولا بوجه من الوجوه قضية الالفاظ .. فان الالفاظ في نظري هي سر الشعر وروحه ، فهي التي تبرز صورة وتظهرها ومحاسن المظاهر ، بين اللفظ وبين الصورة صلة روحية مستحكمة ، فمهما تكن الصورة حسنة فأنها اذا لم ترزق لفظاحسنا يشاكلها فيضمها ويلمها ذهب شيء كثير من حسنها واذا رجعنا الى بعض كتاب الغرب وشعرائه وجدنا لهم عناية بالالفاظ غير قليلة فالشاعر الفرنسي ،"لافونتين"، كان مولعا بالالفاظ ويعرف كيف ينتخبها والشاعر " تيوفيل غوتيه "كان يقرأ صفحة من معجم لغوي كل يوم ، .. اني مولع بالالفاظ أفتش عن محاسنها وأحفظ ما يروقني من هذه المحاسن .. واذا رجعت الى أيام الصبا والمطالعة وجدت في دفاتري الخاصة كثيرا من كلام المتقدمين التقطه من أمهات كتب الادب ، ولا أزال اذا أمكنني مناهز الفرص أقيد في ذهني ما أمر به من أمثال هذا الكلام ، ولقد عرف في هذا الميل بعض الكتاب والشعراء الذين عشت في عصرهم فقد كتب مرة المرحوم محمد البزم خواطر في شعراء الشام فقال عني : " يفجر التاريخ الكلم فيختار منها ما يحسن في الاسماع وقعه ويعذب في الاذواق طعمه ، أما الحوشي فله طبع يذوده ، وذوق يتحاماه ".

واذا كنت تركت لجبري أن يحدثنا عن ألفاظه ، فلست أريد أن أعفي نفسي من الاشارة هنا الى القدر الذي وفره لقصائده من موسيقية .. هل أقول انها أبرز مافي هذا الشعر أو أنها من أبرز مافي هذا الشعر وهل أجانب

الحق في ذلك ؟

في البداية يحسن أن أشير في تسويغ هذا الحكم الى أن الموسيقية ليست عنصرا مستقلا.. ليست كمية مضافة الى العناصر الاخرى .. انها تداخل الالفاظ وتداخل التراكيب ، وتداخل الصور التي تنشأ عن هذه الالفاظ والتراكيب .. وهذا دون أن أشير الى الموسيقى التي نعرفها في الوزن والقافية .. وحتى حين يلجأ جبري الى عرض بعض الافكار في الشعر على نحو تقريري فان قدرا من الموسيقى يداخل هذه الاساليب التقريرية في بنائها وعرضها .. يقول في حافظ ابراهيم في رثائه :

غنت قوافيك بالأحزان مائجة
تكاد تنطق من بؤس أغانيها
على قريضك من أناتها أثر
أراه يفصح عن أقصى مراميها
مافي أغاريدك أماناح نائحها
الا تهاويل من شكوى تزجيها
تجهمتك الليالي في تصرفها
ففاض شعرك في الآفاق تأويها
فما تمليت في يوم مضاحكها
ولا تمهلت الا في مباكيها
أمعنت في طلب الدنيا فما ابتسمت
لك الحياة ولا هشت أمانيها
لو لحنوا البؤس في شعر ترددة
لكان بؤسك ألحانا نغنيها

وقد يخيل الينا ان هذه الموسيقى هي التي تتبدى في قدرة جبري على التحكم بالقافية .. فليس عند شاعر من معاصريه مثل ماعنده من القدرة على التحكم واستدعائها والترشيح لها - كما استدل نقادنا القدماء واقرارها في مكانها الذي هولها ولعل قصيدته : " نوح العندليب " مثل رائع لذلك :

لئن دون الناس أشعارهم
لقد جعل الروض ديوانه
وان قيد الناس أفكارهم
لقد أطلق الشدو أركانه
كتمت الشجون عن العندليب
فراح يبثك أشجانه
وأخفيت عنه دموع الجفون
وقد بلل الدمع أجفانه
فهل شط عن وكنه جاره
فودع بالنوح جيرانه
أم الباز أودى بخلانه
فأصبح يندب خلانه
أم الريح هبت بأفنانه
فزلزلت الريح أفنانه
فيا لك من ممعن في الحنين
ألم يشهد الناس أمعانه
أتبكي العنادل أوطانها
ولا يندب المرء أوطانه

ولكن أمر الموسيقى عند جبري يجاوز ذلك كله الى هذه الموسيقى التي يسميها النقاد بالموسيقى الداخلية .. والتي هي عندي عديل الموسيقى النفسية التي كان ينبض بها عالمه الجواني حين يفور أو حين يسكن .. ولعلي لا أظلم أحدا من الشعراء الذين عاصروه ان قلت ان حظه من هذه الموسيقى الداخلية اوفى الحظوظ، بل لعل هذه الموسيقى الداخلية هي التي خلقت او يسرت له موسيقاه الخارجية التي تتبدى في الوزن والقافية واستواء الصياغة. ألا تنهض الابيات التالية من قصيدته الحرية شاهدا عدلا على ذلك /

هاج نسيم الريح لي أمرها
بالله ياريح ابعثي ذكرها
تجهز الدهر لاقلامها
ماحمدت في جلق دهرها
ان تمسك الاقدار عن نصرها
فما أنا مطرح نصرها
أوتعبس الظلماء في خدرها
فأنت يابدر أنر خدرها

دب مضيف الحب في أضلعي
لاتحسبني طاويا سرها
صبرت عنها مهجتي ساعة
فلم تطق من بعدها صبرها
بلوت في ظل الصبا حلوها
فهل تراني باليا مرها
عشقتها والله أدرى بنا
مامس صدري في الهوى صدرها
ظلل أكناف الحمى طيفها
هنيهة ثم ابتغى هجرها

ولعل من الخير ان امثل كذلك بقصيدته التي قالها في مهرجان شوقي سنة ١٩٥٨ .. أنك حين تقرأ البيت الاول منها يدركك حسان حين سمع مطلع قصيدة للنابغة :

فقد روى صاحب الاغاني بسنده في اخبار قيس بن الخطيم ان النابغة قدم المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرفت منازلا بعرينات
فاعلى الجزع، للحي المبين
فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية مطلع قصيدته جبري في شوقي قد يحملك على بعض الخشية :

ما الذي هيج الحمى والعربا
أنسيم من شاعر العرب هبا

لأن هذه القافية وان تكن مطلقة الا ان الحرف الساكن قبلها يشبه أن يكون مقيدا لها ومع ذلك فقد استطاع جبري ان يتجاوز هذا السكون الساكن المفيد مرتين : مرة حين تسلطن على قافية وتحكم في اختيارها ومرة حين أفاض من هذه الموسيقا الداخلية على النص ما حملك على متابعة وترديد قافيته .

ايه شوقي ،لو كان للشعر رب
جعلتك الأذواق للشعر ربا
ياغذاء القلوب ان تجدب الار
ض فلسنا نظن فيك الجدبا
شاعر العرب كان شعرك حينا
كنسيم الصبا وحينا عقبا
كلما طال عهده وتراضى
رف في مسمع الزمان وشبا
كم هزرت الرجال في ثورة
ة الشام فثاروا ولم يبالوا الخطبا
نفخت فيهم القلائد روحا
جعلت في الشدائد الموت عذبا
فاستطاروا مثل الرياح الى المو
ت فكانوا فيه رياحا نكبا
فنفضنا عن المرابع ضيما
سال فيه النجيع مزنا وسحبا
غصبوا الشام واستباحوا حماه
ثم طاحوا وما تملوا غصبا
كيف ننسى في غوطة الشام يوما
كنت فيه نورا وكنت اللهبا
جلت بالشعر جولة فحسبنا
طيف مروان في النواظر دبا
وكانا نرى الخلافة تختا
ل وملكا مع الخلافة صلبا
هكذا الشعر ثورة كلما هاجت
شعوب أوحي اليهم غلبا

وبعد ، فان هذا العرض لطبيعة العمل الشعري عند جبري يضعنا أمام حقيقتين يخالطهما شيء من النسبية والتأرجح .

أما احدى هاتين الحقيقتين فذلك أنه كان لجبري في حياته الشعرية هذه المراحل : مرحلة الاحتذاء ومرحلة الاقتباس ،ومرحلة الابداع .

وأما الحقيقة الاخرى فذلك أنه كان له في صناعته الشعرية

هذان الاتجاهان : الاتجاه العفوي والاتجاه التنسيقي او التنقيحي الذي دفع به نحو مراعاة وحدة القصيدة واعتبارها بناء متكاملا .

أما النسبية والتأرجح الذي يخالط هاتين الحقيقتين فذلك هو أمر الحدود التي تفصل بين هذه المراحل وهذه الاتجاهات .

ان تحديدا صارما لهذه المراحل والاتجاهات يبدو أمرا صعبا في الدراسات الانسانية كلها ، ولا بد من فهم الظواهر والملاحظات في حدود النسبية فنحن لا نستطيع ان نتعرف بدقة الى مقادير العفوية ومقادير الصناعة في عمله الفني .. فما هي حدود الطبع وما هي حدود الصنعة ، ما هو من صميم بناء القصيدة وما هو من الجماح فيها ؟ .. ما هو من وحدتها وما هو من الجمجمات فيها ؟ ما هو من الذاتي وما هو من الموضوعي ؟ ما هو من أثر الطبع وما هو من أثر الذهن ؟ ما هو من الصور التلقائية وما هو من الوعي ؟ .. واذا كان في كل عمل فني مقدار من غيبوبة الوعي فان من المتعذر أن نعرف مقدار الوعي الغائب والوعي الشاهد .

تلك كلها حدود لا نملك أن نعرف مكانها بالدقة ، ولا أن نتعرف مقاديرها .. وحسبنا أننا نحسها أو نقع عليها .. أما مقاديرها فلا بد لنا من ان ننتظر دهرا طويلا قبل أن تبلغ الدراسات الانسانية مراحل القياس .. وهو شيء ما أظن أن يكون ما دام الانسان على هذا النحو الذي اراده الله حين خلقه : خليطا متمازجا من الروح والبدن ومن العاطفة والعقل ، وما دامت الحياة هذا المزيج المتنافر حينا والمتكامل حينا من الذاتي والموضوعي ، ومن المادي والمعنوي .

قلت انهما في حياة جبري الشعرية حقيقتان .. تخالطهما - في أحكامنا عنها - النسبية .

أما الحقيقة المطلقة المؤكدة التي لا سبيل ان يداخلها شيء من شك .. فتلك هي ان جبري لم يكن شاعرا فحسب .. ولكنه كان الناقد البصير الذي يرصد حركته الفنية ويتحكم فيها حينا بمقدار ما يخضع لها حينا آخر .. ولم يكن ناثرا ولكنه كان الباحث الذي شق الطريق أمام الدراسات الادبية المحدثة في هذا الجزء من دنيا العرب .

والى ان تتوفر دراسات الجوانب الاخرى من حياته فستظل نتمنى على مؤسساتنا الثقافية المجمع ووزارة الثقافة واتحاد الكتاب أن تكون هنالك طبعة جيدة لأعماله الكاملة .

لقد غني جبري لخلود وطنه ، وجدير بوطنه أن يتيح لآثاره فرص البقاء والخلود .

د . شكري فيصل

في
رثاء شفيق جبري

بقلم : علي عقلة عرسان
رئيس اتحاد الكتاب العرب

ايها العرب

أيها الحفل الكريم من العرب

شاعر الشام المجمعي المربي ، صاحب شوقي وحافظ ابراهيم ورضا الشبيبي وخيرالدين الزركلي ، ليس لأهله ولا لأصدقائه ورفاقه ، والا كنت وجهت اليهم الخطاب أولا ، انه شاعر العرب وقد خسرته العرب ، فمصابنا بفقده مصاب جلل ، يمس منا القلب ويستثير مكامن الذكر .. فمؤلف الجاحظ والمتنبي والاصفهاني ومحمد كرد علي ، وأحمد فارس الشدياق ، مؤلف أنا والشعر ـ أنا والنثر ـ الأدب بين البحر والصحراء ـ العناصر النفسية في حكم العرب . إلف العندليب وصاحب نوحه ـ كان أحد أكبر شعراء العروبة في هذا القرن ، ولسان شعبه في دار مروان هذه ، يوم خاض شعبنا نضاله المجيد للخلاص من الاستعمار الفرنسي البغيض ، وهو الذي أشعل بنار الثورة في شعره اضراب الخمسين يوماً عام ١٩٣٦ وهو الاضراب الذي سقطت على أثره الحكومة ، واضطر الفرنسيون يومها الى أن يمدوا أيديهم الى الكتلة الوطنية . التي ظهرت يومها بمظهر المنقذ .

واذا كان جثمان شفيق جبري مما تستطيع القبور أن تواريه ، فان شعر شاعر الشام وفكره وذكره مما تعجز القبور عن أن تطويه .

وها أنذا الذي لم أتشرف بأن يعرفني شاعر الشام تعرفت اليه ، والذي لم أستطع أن أحدثه حدثني وقال لي :

لست مـن ابراهيم ان كنت ترضى	**ثقل القيد واحتمال عذابه**
أيهب الحمام في الأفق الطلـ	**ـق ويعتاض حبسه عن هبابه**
اللمـاء الدماء يا آل مروا	**ن فقد ضج تربكم من لؤابه**

بدلوا الأرض واخضبوا وجهها الحـ ... ر فلا يشفي اليوم غير خضابه
كذبت دعوة الحضارة في الغـ ... ب وهذا عنوانها في انتدابه
قد تظن السراب ماء على القفـ ... ر ويغري بالقفر لمع سرابه

حدثني عن قوميتي ومن تاريخها قال انها لم تقو وتشتد الا على أيدي الشعراء والكتاب فهم طلائعها وانهم تغنوا بها في القرن التاسع عشر وفرق بينها وبين الوطنية « فالقومية بدلا من أن تكون غايتها محبة ارض الآباء والأجداد فانغايتها محبة الآباء أنفسهم والحنو على دمهم وعلى ما أورثونا اياه من آثار عقولهم وأخلاقهم ٠ »

علمني كيف أرسم بل أجسد ماضي شعبي ومستوى حياته وعلاقاته الاجتماعية واهتمامات أناسه وأدواتهم المستعملة وعاداتهم من خلال قراءتي لتراثه حين بسط أمامي خلاصة كتاب الأغاني في قراءة له لماحة ٠ وبصرني برجال أعتزبهم في الجاحظ ، وقدم لي بتواضع وصدق خلاصة تجربته الشعرية الفنية وبعض ميزاته قال : « ملكة الهضم والتمثل قوية فيَّ ، فقد انتفعت في زمن قصير بما لا ينتفع به الا في زمن طويل ، وهذا من نعم الله علي » وقال : « يكاد الحس يكون أقوى شيء فيَّ ، فلم تتنبه فيَّ ناحية تنبه هذا الحس ٠ اني أشعر بالحياة وأحب مذاهبها وأتمسك بشبابها وأكره اكتهالها وشيخوختها ٠ » ولا عجب ، أبدا لا عجب في أن يقول شاعر الشام ذلك وهو صاحب «نوح العندليب» الذي تنقل باعترافه من هوى الى هوى ٠

وهو القائل :

كتمت الشجون عن العندليب ... فراح يبث أشجانه
واخفيت عنه دموع الجفون ... وقد بلل الدمع أجفانه
فهل شط عن وكنه جاره ... فودع بالنوح جيرانه
أم الريح هبت بافنانه ... فزلزلت الريح افنانه
فيا لك من ممعن في الحنين ... الم يشهد الناس إمعانه

وهو شاعر الشام نفسه الذي كان يبعث الشعر النشوة في كيانه ويعيده متوثب القلب حي الخطا ، وكان شعر شوقي يفعل فيه ذلك وقدخاطبه في مهرجانه باعتراف :

فاذا جف في الشيوخ هواهم ... هجت فيهم هوى الشيوخ فآبا

شاعر الشام اذن يستطيع أن يدخل البيوت والعقول والقلوب ، احتجب عنا جسده ولم يحتجب تأثيره وفكره وشعره ، طوى الرمس جثمانه ، وعجز عن طي بيانه ٠٠ كان شاعر الحس الوطني الصادق يعيش الحدث العربي ، وينفخ في الناس روح الوحدة وحب الوطن ٠ ويدفعهم للنضال ٠ ويجسد نضالهم ٠

هكذا الشعر ثورة كلما ... هاجت شعوب أوحى اليهم غلبا
أكلتك الذئاب ان لم تكن في ... ثورة العرب والعروبة ذئبا

شهد لشاعر الشام أقرانه في حسن ابداعه شعراونثرا ، وانني أقرأه أجد المتعة في الجنسين الادبيين لديه. وهو مدقق صناع ممحص يختار اللفظ ويصقله قال فيه محمد البزم « يفجر ينابيع الكلم فيختار منها ما يحسن في الأسماع وقعه ، ويعذب طعمه ، أما الحوشي فله طبع يذوده وذوق يتحاماه » .

انني تعرفت شاعر الشام شفيق جبري على الرغم من انني لم أعرفه، وحدثني ولم أحدثه، علمني ولم أجتمع اليه ، وعرفت صدق حسه بمأساة وطنه وقومه ، واستشفيت أي ألم غرست في قلبه مأساة وطنه العربي .

أتبكـــي العنــــادل أوطانهـــــا ولا ينـــدب المــرء أوطانـــــه

فهل يكون مثل هذا الرجل كمثل سواه ممن تطوي القبور أجسادهم وذكرهم وتأثيرهم انني أقول لا ، وأجد في هذا العزاء الأكبر .

كان فقده خسارة كبيرة ، ولكن كل حي الى زوال ولا يبقى الا وجه الله تعالى .. وشفيق جبري الجسد ضمته الأرض التي احبها، ارض الشام ، أرض الغوطة، ولكن ذكراه وأفكاره وأشعاره طليقة ملء أرضنا وسمائنا تعيش في قلوبنا وأرواحنا وعقولنا ، وفي هذا عزاء لنا نحن الأدباء والكتاب .

ان اتحادنا فقد بفقده ركناً ، ولكن بقي لنا من تراث قلمه مما تستند اليه أجيال فيهديها ويسند خواءها .

وبعد أيها العرب

أيها الحفل الكريم من العرب

هل كنت على حق في الا أوجه الخطاب لأصدقاء شاعر الشام ورفاقه وآله ؟ ، وهل أنا على حق اذا التمست منكم الا يكون حفل تأبينه مناحة ، وأن نكفكف الدمع ، لأن الراحل منه أقل بكثير جـــدا مما بقي لنا منه ؟ !

نحن هنا :

لــم نكــرم شاعــر الشــام ولكـــن كرمتـــه آياتـــه وبيانـــــه

فهل تسمحون لي بأن اقول لكم كما قال شاعر الشام لآل الشهداء من أبناء قطرنا يوماً ؟ !

قال لهم : **ارفعوا رؤوسكم بوطن لا يموت**

واقول لكم : **ارفعوا رؤوسكم بشاعر لا يموت .**

السلام عليكم ورحمة الله .

تأثير الغرب في أدب شفيق جبري

بقلم الدكتور : عمر الدقاق



موئل العطاء الذي لا ينفد ، وينبوع الابداع الذي لا ينضب .. هذا الفكر الخلاق ما كان ، على مر العصور ، الا ذهناً متفتحاً رحيب الجنبات ، لا تفتأ تهب عليه رياح جديدة من كل حدب وصوب ، فتزيده غنى ومضاء ، وألقاً واشعاعاً . ولم تخمد جذوة الابداع ، وتخفت طاقة العطاء ، الا حين انغلق الفكر على نفسه وبدأ يجتر مخزونه الراكد ، ويستمرئ نسغه الجامد ، فاذا هو آخر الأمر مترهل ويظن نفسه سمينا، خاب ويحسب انه متوهج..

وهكذا كان شأن العرب في سالف العهود ، حين فتحوا صدورهم لثقافات العصر الوافدة ، تروز اصالتهم وتثري شخصيتهم . وكان من ذلك تمازج ثقافي ناشط ما لبث ان آتى أكله ، حين تجلت ثماره في حضارة عربية اسلامية غنية الجنبات ، اسهمت في دفع مسيرة الانسانية عصورا مديدة ...

وكما تأثر العرب بثقافات من حولهم ، وانتفعوا بها ، احدثوا ، في الوقت نفسه ، وايضا من بعده تأثيرا بعيدا في سائر الامم ، ان ركب الحضارة ماض قدما ، والخير قادم ابدا ، وما الحياة الا تبادل وتفاعل ، واخذ وعطاء

ثم آفاق الشرق ، وفيه العرب ، آخر الامر ، بعد رقاد طال امده ، فرأى نفسه متخلفا عن ركب التقدم ، يتطلع الى امم الغرب بدهشة وانبهار ، وعهده بهم انهم كانوا وراءه ، فاذا هم يكادون يسدون عليه الافاق .. ولم يطل تفكير العقلاء حين رأوا ان انجع وسيلة برغم بعد الشقة ، هي الركض في الطريق نفسه ، وانه لا بديل سواه ، على حين احجم اخرون او ترددوا زاعمين ان ليس عليهم المضي في هذي الاخرين .. ولكن الحال لم يكن يسيرا تجاهله ، وكان لابد من حدوث تفاعل على نحو ما بين ثقافات العصر من جديد ، وفقا لناموس الكون وسنة الحياة .

ومن المؤسف حقا الا تدخل الثقافات الوافدة على العرب في نهضتهم الحديثة الا مصحوبة في كثير من الاحيان بشر مستطير ، وذلك بدخول جيوش السيطرة والاحتلال واعمال القهر والاذلال ٠
هذا ما احدثه نابليون وجيشه ، وايضا الانكليز واساطيلهم في مصر ، ثم ماكان من امر الذئاب الجائعة بعد ذلك تجاه سائر شعوب الغرب الامنة ٠
على ان ثمة مدارس خاصة طائفية كانت ، برغم اغراضها الخبيثة ، تودي عملا ثقافيا مجديا ، وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشروما تلاه من العقود الاولى للقرن العشرين ، وكانت هذه المدارس منبثة في بيروت وسائر ربوع لبنان ، وايضا في حلب ودمشق والقدس ، على حين كانت سائر المدارس الرسمية ، وهي مدارس الدولة العلية العثمانية ، على اسوأ حال من الضعف والتأخر في ظل الحكم العثماني ، حين كانت العربية تتعرض للاهتراء ، وطلابها لا يكادون يفقهون من لغة امهاتهم وعلوم عصرهم الا النزر السخيف والضحل الهزيل ، ولولا نباهة فئة طيبة من ذلك الجيل التاعس كتب عليها ان تحبو في ظل تلك المدارس وتدرج في كنف تلك المعاهد ، ثم يلمع شأنها بفضل طاقات افرادها ، ونباهة روادها ، لحكمنا على تلك المؤسسات التعليمية بالعقم ، اما من كانت تواتيه ظروف العيش فالخيار امامه ميسور٠

– ١ –

وهكذا اتيح للفتى شفيق ، ابن التاجر الدمشقي درويش جبري ، ان ينتقل من كتاب الحي الى مدرسة الاباء العازاريين اثر نصيحة صديق مسيحي صاحب مصرف ، " فدخلها صغيرا مع لداته وظل فيها تسع سنوات حصل في ختامها – عام ١٩١٣ – على الشهادة الثانوية (١)" ، وبذلك انغرست اللغة الفرنسية في كيان الفتى شفيق جبري ، وغدت له بمثابة كوة بات يطل منها على آفاق جديدة لم يكن له ولأترابه عهد بمثلها من قبل ٠
صحيح ان كثيرين من امثال شفيق قد يدخلون المدارس ، ثم يخرجون منها كما دخلوا او بأقل زاد اكتسبوه ، سواء كان ذلك على صعيد اللغة الفرنسية او المواد الاخرى ، وحتى العربية نفسها ، الا ان الفتى كان على قدر واف من الاهتمام والجد ، فخرج بحصيلة مناسبة في اللغة الافرنسية وايضا في مواد علمية اخرى ، وذلك بفضل رفعة مستوى بعض معلمي تلك المدارس ٠٠(١) :
" كنا في اخر سنة من المدرسة ندرس مبادىء تشريح الانسان وعلمي الحيوان والنبات ، وكان يدرسنا هذه المبادىء استاذ فرنسي متمكن من علمه كل التمكن٠٠ " على حين كان يتولى تدريس العربية اناس دون المستوى المنشود ، وهذا ماعطف الفتى المتعطش الى المعرفة الى ان يستزيد فيما بعد من معاشرة العرب الاقدمين ويمتح من عيون مؤلفاتهم ٠٠
وآية ذلك ان اول نتاج نشره شفيق جبري خلال حداثته انما كان ترجمة ولم يكن انشاء (٢)، وقد تم نشره في صورة مقالة ، وهو يتصل بموضوع في العلوم الطبيعية ، ولم تكن له صلة ما بالادب ولا بفنونه ٠
وما هو قريب من الترجمة ، كان ثمة اقتباس او استيحاء ، اذ لم يجد الفتى شفيق بدا من اللجوء اليه ، فذهنه الغض عهدئذ كاد يكون خاويا من افكار اصيلة ذات شأن ، بحيث تغدو جديرة بأن تعرض على الملأ ٠انه يحدثنا عن هذه المرحلة قائلا (٣) :
" كنا ننشر الموضوعات التي نلتقطها من صحف اجنبية او صحف عربية ، كنت مثلا اقف على مقال في جريدة فرنسية او على خبر ، فيوحي الي هذا المقال او هذا الخبر موضوعا من الموضوعات فاتصوره واكتبه ، واقحم فيه من الافكار ما يعن على البال ٠٠" ٠ ويقول في مكان اخر :(٤)
" وكنت استعين بكثير من كلام الكتاب من العرب والافرنجة على توضيح الموضوع الذي اتصدى له ٠٠"٠
وواضح من ذلك ان جبري كان يعمد الى استمداد مضمون مقالاته – حين يعوزه الامر – مما حوله من المعين الاجنبي او العربي ، في اطار موضوعات محددة ، لافرق كبير في الامر لديه ، وعلى اي جانبيه شاء ان يميل ٠٠
وفي هذه المرحلة ، مرحلة الاختزان والتكون ، ولا سيما بالنسبة الى اطلالة على الادب الفرنسي ، كان جبري وهو يافع في مقتبل العمر حريصا على ان يشتري القليل من كتب الادباء الفرنسيين الذين وافقت اساليبهم ذوقه مثل : بول بورجيه ، واميل فاغيه ، وبيير لوتي ، واندريه موروا٠٠ (٥)

– ٢ –

على ان التأثير الحقيقي للثقافة

الفرنسية في شفيق جبري تعدى هذا النطاق من ترجمة مقالة تطلب منه ، او اقتباس افكار تروقه ، وان كانت هذه المرحلة في الوقت نفسه ذات اهمية بالغة ، لأنها زودت صاحبها بمفتاح اخر يرود به عالما جديدا من عوالم الادب والفكر ، كما ان هذا التكوين الثقافي الخاص سوف تتجلى نتائجه في قابل الايام .

ان استقراء حياة جبري الثقافية والادبية يبين ان هذا اليافع الذي لم يعد متاحا له - لظروف عديدة - ان يمضي في دراسة منظمة اعلى ، كان معرضا - شأن الكثيرين امثاله - للاستسلام الى حياة الدعة ونسيان الكثير مما يعيه المرء في مدرسته ، ولا سيما اللغة الاجنبية التي تقل خلالها الممارسة في غير منبتها . غير ان ماحدث لذلك الفتى كان مزيدا من الدأب ومن المضي في هذا السبيل ، وتتبع الكثير مما هو مسطور في العربية او في الفرنسية . بل ان ابتعاد جبري مدة من السنين عن ممارسة عمل ما ، حر او رسمي ، اتاح له وقتا فسيحا لاشباع نهمه الى القراءة وارضاء ميله الى الكتابة ، وفي اعتقادنا ان ما وقف عليه جبري من معارف وافكار تتصل بالثقافة الفرنسية انما هو في أكثره وليد هذه المرحلة . وان اقلة كان من حصيلة مقاعد الدرس .

والمتصفح لكتب جبري ، ولا سيما بحوثه ودراساته ، يعجب لسعة اطلاعه على جوانب متعددة من ثقافة الغربيين وفكرهم ، فهذه الثقافة تكاد تطل برأسها في كل صفحة بل في كل مقطع .

فعلى صعيد رواد العلوم ، وجد جبري ، وهو يتعمق في درس صاحبه ابي عثمان من خلال كتابه الحيوان ، ان ما كان الجاحظ في صدده قريب ايضا مما تناوله داروين ولامارك وسبنسر وجون لوك .. (٦) كذلك كان لاعلام الادب اللاتيني ذكر في السياق من امثال فرجيل وهوارس واوفيد وديموستين .. ثم كان لاعلام الفكر والاستشراق حين آخر ، من مثل ديكارت وبرغسون وريننان ولاماني .. وكان هذا شأنه ايضا مع صفوة من نقاد العصر امثال لسنغ ولانسون وغوتييه وبرونوتيير وسانت بوف ..

اما انباء الكتاب والمفكرين ، واما اعلام الشعراء والروائيين ، فكان لهم عند شفيق جبري مجال رحيب بطبيعة الحال ، نسرد منهم فولتير ، وروسو ، ولافونتين ، والكسندر دوما ، وشاتو بريان ، وبلزاك وزولا ، وموباسان ، وبرنارد دين دو سان بيير ، واميل فاغيه ، وشارل ريشيه ، وبول فرجيه واندريه موروا ، وغوستاف فلوبير ومدام دي سيفينييه ، واندريه شينييه وبيير لوتي ، واناتول فرانس ، وموريس باريس ، وفيكتور هيغو ، وشارل بودلير .. وغير هؤلاء وهؤلاء مما يتعذر حصرهم ويثقل ذكرهم ..

وسواء استطرد الباحث الى زمرة منهم فأورد لاحدهم خبرا او ذكرا ، او عرض لبعضهم رأيا او فكرا ، او توقف عند سواهم مليا ، فان هذه الغزارة في الاسماء التي عرفها شفيق جبري وانبثت في فكره ونفسه ، ذات دلالة جلية على دخول الثقافة الغربية - ولا سيما الفرنسية - في حياة هذا الاديب العربي من باب واسع .

ففي صدر دراسة اسلوب الجاحظ وموقفه من قضية المبنى والمعنى في الادب ، وتغليبه عنصر المبنى على المعنى يستشهد جبري على ذلك بأحكام نقدية لبعض الكتاب الفرنسيين فيقول (٧) :

" فمن كلام فولتير ان الاشياء تؤثر فينا على الاغلب من نواحي اساليبها ، اي من نواحي القوالب التي تصب فيها ، لان للناس افكارا واحدة بوجه التقريب ، ولكن الاسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب ومن كلام فاغيه ان الذي يخلد الكاتب انما هو جمال الاسلوب ، ومن كلام فرانس ليس الفكر ملكا لمن يبدعه ، وانما هو ملك الذي يثبته في الاذهان ."

وحين يود جبري مصاحبة الجاحظ في اسفاره ، وما خلفته هذه الاسفار في نفسه ومن ثم في كتبه ، يجنح الى التمثل ايضا ببعض ادباء الغرب (٨) حين اقتبس شاتوبريان من سفره الى امريكا صورا شتى ، والوانا غريبة ، اسبغت على فكره وعلى لغته نعمة الشاب ، ومن اراد ان يعرف ما الذي اوحاه السفر الى لوتي فليقرأ كتاباته التي صور فيها ما نراه من مختلف الاصقاع ، فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد ، فأحيا في كتبه مصر القديمة ، وافريقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة ، وكان لبلاد فارس ولديار الشام صورة في هذه الكتب .. ولو نظرنا في ادبنا نفسه لرأينا للسفر اثرا في بعض هذا الادب ، فلو لم تحضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري ، فيوجه عنه الى ابيض المدائن لما كان من شعره هذه السينية الخالدة"

ومن خلال فصل اخر عقده شفيق جبري حول مدينة البصرة وطن الجاحظ تحدث عن الاوطان عامة ، وما لها من اثر

في نفس المرء وحياته ، برغم ان وطننا كوطن الجاحظ ، لاينطوي على روعة او جمال ، وقد استدعى جبري الى ذهنه في هذا الصدد ما كان قرأه يوما في المجلة العالمية فأوجزه بقوله (٩):

" لما نفي (اوفيد) الشاعر اللاتيني الىشواطىء البحر الاسود ، خرج من دياره وهو يلتفت الى روما وبوادي وطنه ، (سولومون) ويقول : لا ادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلا الى نسيانه على وجه الدهر، وكذلك (فيرجيل) شاعر اللاتينيين فانه لم ينس مولده البائس مدينة (مانطو)، كل حياته، ولا ذهل (اوراس) عن بقعة ارضه ، قال (فيناون) في قصيدة له : مهما ضربت فيمناكب الارض فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تحلو الاقامة بها ، وتضحك لي اجواؤها اكثر من كل بقعة .. وانك لتجد العواطف نفسها في كلام (برناردان دي سان بيير) قال: اني افضل باديتي على سائر البوادي ،ولا اوثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها ، ما اسعد الذي يعود الى ديار جعل كل شيء فيها محبوبا .."

ومثل هذه المشاعر كثير ، اسهب جبري في ايراده .. ثم ختمه ايضا بنماذج مماثلة من انشاء الجاحظ نفسه من خلال احدى رسائله وهي رسالة الحنين الى الاوطان .

كان منحى شفيق جبري في بحوثه الرصينة المنظومة ابدا في سلك المنهجية هو الاعتماد على المقارنة كلما وجد الى ذلك سبيلا ، اذ كان يجنح باستمرار الى مقارنة جوانب من الادب العربي في نطاق موضوعه المعالج بما يشابهها من آداب العرب ، راميا من وراء ذلك الى اظهار فكرتين ، اولاهما جلاء الحقائق الانسانية المشتركة برغم اختلاف اداب الشعوب المتباينة ، والثانية وضع معطيات العرب المشرقة على صعيد واحد مع امثالها عند الامم ..

على ان جبري الذي سعى طوعا الى مثل هذه الاراء ، ملتمسا فيها مايروقه وما يغني به دراسته ويدعمها ، كان يجد نفسه في احيان اخرى مدفوعا الى بعض رجال القلم من الفرنسيين الذين كانت لهم بموضوعه المتناول صلات . ومن هؤلاء ارنست رينان ، فقد اطلع شفيق جبري على رأيه الظالم للعرب من خلال كتاب فرنسي من تأليف بيزار اسمه " الطريقة الادبية " وكان رينان قد ألقى خطبته المعروفة في قاعة جامعة (السوربون) يوم ٢٩ اذار ١٨٨٨ ، وجرد خلالها المسلمين من فضيلة البحث عن المعرفة ، واتهم الاسلام بانه بطبيعته معاد للعلم لأنه في زعمه يقود الى الكفر (١٠) .

وكان هذا الحكم الجائر في طليعة ما حفز شفيق جبري على الالتفات الى البحث والتقصي ، ولا سيما من خلال دراسته للجاحظ ، راميا الى ازالة هذا التشويه لوجه الاسلام الحضاري ، .ومحو تلك الوصمة التي الصقت بالعرب ، زورا وبهتانا .

ومن جهة اخرى حرص شفيق جبري على تتبع ما كان يدور في فلك موضوعاته من قبل الدارسين الفرنسيين ، وكان البارون (كارادوفو) من ابرزهم ، اذ طلع جبري على كتابه المعروف مفكرو الاسلام وتوقف مليا عند حكمه على منهج الجاحظ بالفساد والفوضى .. وكانت فصول جبري بصدد الجاحظ ومنهجه وتحقيقه وتجريبه .. بمثابة رد علمي مسهب وغير مباشر على هذا الحكم .

اما ديكارت الفيلسوف الفرنسي ، فقدكان ظله منبسطا على كتاب شفيق جبري الرائد : (الجاحظ معلم العقل والادب) منذ البداية ، حين وجد جبري ان صاحبه اباعثمان يلتقي مع ديكارت في نظرية الشك ولا سيما في كتاب الحيوان ، فوجد أنهما ، كليهما ، ملاكهما العقل ، ووسيلتهما الشك ، وغايتهما اليقين ، الم يقل الجاحظ قبل ديكارت بمئات السنين ، " اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة ، لتعرف بها مواضع اليقين.." او " لا اجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الادلة .."

وحين ننعطف الى نمط اخر من كتابات جبري بعيدا عن موضوع علم الجاحظ وتحقيقه ، او دقته واحاطته ، او شكه ويقينه ، مقتربين من الادب نفسه ، وما يتصل به من فكرة وعاطفة ، وصورة وخيال ورونق وطلاوة .. يبدو لنا شفيق جبري ، في هذا المجال اكثر التصاقا بالادب الفرنسي واعلامه ، واذا كان هنالك العقل والمنطق ، والدليل والبرهان ، فهنا العاطفة والشعور ، والخلق والابداع ، وبعبارة اخرى ، كان جبري في ذلك المجال من البحث وما شابهه امرا موضوعيا ، على حين انه كان على صعيد المحض انسانيا ذاتيا .

ويبدو للباحث جليا ان قراءة جبري للشعر الفرنسي في حداثة عهده عهده لم تكن قراءة طارىء عابر ،ولكنها قراءة محب ممتاز ، ومشغوف متلهف ، ومن خلال مطالعاته تلك ربما راقته قصيدة

فراح يعربها ، وهذا ما كان منه تجاه قصيدة لفكتور هوغو اثرت في نفسه ، وانتزعت اعجابه ، فحفزه ذلك الى تعريبها ، وعنوانها " نجوى آدم " وقد جاءت على هذا النحو (١١) :

فقال آدم : ما للشمس باسمة
هيهات ما نقصت من شجوي وتعذيبي
فما الذي في مجال الطرف يطربني
اصحوة الجو ام دفق الشآبيب
ام نظرة من رفيق الفجر ناعسة
كأنها غمزة من عين محبوب
ام نفثة من شفاه الورد ناعمة
كأنها فجرة عن صدر مكروب
أم هبة من نسيم البان لينة
تناغم الخد في صبح وتأويب

وعلى هذا الغرار مضت بقية الابيات المعربة ، ونحن في هذا المجال لا يعنينا كثيرا مدى اقتراب الترجمة من الاصل ، ولكننا نرجح ان الشاعر انفعل بمعاني القصيدة الفرنسية وبصورها ، والتصق بها الى حد الاندماج ، فطاب له ان يتغنى على هواه ، وان يتصرف ايضا بالترجمة ، فتروقه العبارة العربية : " دفق الشآبيب .. " اذ لم يكن همه أمانة الترجمة ودقتها بقدر ما كان يهمه تصوير مشاعره الكامنة هو والتنفيس عن عاطفته الدفينة .

ولا عليه في ذلك ، انه يقدم لنا شعرا فيه شيء من نفسه ، مهما يحاول ان يكون خلاله موضوعيا مجردا عن ذاته ، وهكذا وجد ذاته او بعضا من ذاته في مرآة ذلك الشاعر الفرنسي ، بل ان هذه القصيدة الفرنسية ، وليس فيها شيء غير مألوف ، قد احدثت في نفس جبري تأثيرا لم نتوقع ان يبلغ هذا المدى الذي صوره بقلمه اذ قال (١٢) :

" بادرت الى تعريب القصيدة شعرا لأنها كانت تصور شيئا يخالط لحمي ودمي وعظمي ، بادرت الى تعريبها لان الصور التي اشتملت عليها كانت نصب حسي وفكري وشعوري ، وسواء علي اصدرت هذه الصور عن هوغو ام صدرت عني "

ولعل اول ما نلاحظه على هذا الخبر الادبي في ضحى حياة الشاعر جبري انه برغم كتابته اياه بعد نحو اربعين سنة (اذا افترضنا ان عمره يوم ترجم القصيدة كان في نحو الثانية والعشرين) فانه قد احتفظ بحرارته وتوهجه ، وحيويته ونبضه طوال تلك السنين في حنايا صدره ، وبقي يخالط لحمه ودمه وعظمه حتى غدا شيخا تجاوز الستين..

ويحسن بنا قبل ان نتجاوز مرحلة التعريب عند جبري ان نلاحظ انها اقتصرت على مدة قليلة في اوائل العشرينات ، كما ان تعريب الشعر الفرنسي خلالها لم يطل عهده لدى الشاعر ، فكان بمثابة نزعة في نفسه جعلته ينطلق بحماسة ثم ينكفىء بشرعة ، اذ لا يبدو لنا ان جبري قد عاود محاولته او مضى في الشوط الى مدى ابعد ، وكنا نتمنى لو انه فعل ، اذ لازداد اقترابا من الشعر الفرنسي من خلال ابرز اعلامه ، ولكان له من ذلك ، فيما نقدر ، شأن آخر في اغناء شاعريته .

وثمة ملاحظة نوردها قبل ان نتجاوز ايضا هذه النقطة في تكوين شفيق جبري وهي ما ذكره في هذا الصدد حول مناسبة تعريبه تلك القصيدة من انه اهتدى الى قصيدة فكتور هوغو اهتداء ، ثم قال " انها لم تنشر في ديوانه (١٣) ، ثم حين عمد الى تعريب قصيدة اخرى لهوغو اسماها (نابليون والشيخ) فيما يقارب عشرين بيتا ، علق قبيل ترجمته تلك بعبارة مماثلة ايضا فحواها ان القصيدة لم ترد في ديوان هوغو (١٤)..

واقل ما يعني هذا انما هو الاحاطة والتتبع ، اضافة الى الرغبة والشغف .

ويغلب على ظننا ان شفيق جبري ، وامثاله ممن عاشوا في جيله ، وايضا الذين اعقبوه في دنيا العرب ، كانوا مفتونين الى ابعد مدى بالشعر الرومانسي الغربي وباعلامه ، وقد كان شعراء الرومانسية ، ولا سيما في فرنسه ، من امثال هوغو وموسيه ولامارتين.. ملء السمع والبصر في الشرق العربي . وقد دوت اشعارهم في افاق الربوع العربية ، وصادفت منازعهم العاطفية الفياضة هوى في نفوس العرب المتعثرة المضطرمة ، فأقبلت عليهم بنهم ، وكأنها وجدت في اشعارهم مرآة لذاتها المضطرمة الحائرة ولم يكن ماعربه المنفلوطي ، وما دبجه ايضا قلمه واقلام العديدين من الكتاب ، أو ما ترجمه ونظمه ايضا الكثيرون من الشعراء في رحاب هذه المنازع الرومانسية الا صورة كبرى تجسد تلك الظاهرة الاسرة .

ولعل ما أجج هذه المشاعر الرومانسية لدى شفيق جبري في أواخر العشرينات وهو في اوج شبابه ، انه وقف مليا تجاه روميات ابي فراس ، فأثارت في نفسه وفكره فيضا من الشجن ، فقال (١٥) :

" ان شعرا يصدر في الاسى والمرض وفرط الحنين الى الاهل والاخوان والوطن ، والتبرم بالحال وبالمكان ، عن صدر حرج ، وقلب شجي ، لجدير بأن يكون

من غرد الشعر " ثم يمضي على هذا الغرار من الانفعال :

" اي عين لا تدمع اذا نظرت الى روح ضعيفة مثل روح ابي فراس تتردد في جسم معذب بال ؟ لئن حبس ابو فراس دمعه، في الحوادث فان قلبه كان يبكي ، ولا مندوحة لنا عن مشاركته في هذا البكاء، لمن كان محزون الفؤاد فلا بد من ان يدخل الحزن على قلبك اذا كان لك قلب "

ان اول انطباع يرتسم في مخيلة القارىء تجاه هذه الكلمات الشجية والعبارات الدامعة يكاد يوحي في الذهن ان الكاتب لا يصور ابا فراس بقدر ما يصور ذاته من خلال شاعره القديم ، او ان نفس الكاتب ونفس الشاعر قد اتحدتا وتعانقت مشاعرهما في شبه اتحاد صوفي لا انفصام له على صعيد وحدة الوجود .. فالذات العربية عهدئذ .. ويمثلها شفيق جبري وامثاله في جيله خير تمثيل ، كانت تعيش في خلال العقد العشرينات وما بعده أيضا ، في حالة رومانسية طاغية ، كانت تتجلى ، لأحوال سياسية عاثرة ، واوضاع اجتماعية عابسة ، في اللوذ بالطبيعة ، والاكثار من الشكوى ، وقد صادف ان شفيق جبري وقع على شاعر عربي تكاد تتجسد فيه كل ملامح الرومانسية المعهودة والتي تجلت في رومياته على اشد ما يكون التجلي .

على ان ما قلناه هنا ليس هو بيت القصيد ، بل ما قاله شفيق جبري نفسه بعد ان تحدث ، على ذلك النحو المؤثر ، عن روميات ابي فراس ، فقال معقبا بعد سنين (١٦) :

" ذاك نمط من انماط هذه الافكار الادبية لم يكن لي صلة به او معرفة ، وانما جاءني من وقوفي على بعض ادب الفرنجة ولمطالعتي لبعض كتب هذا الادب .. وقد قال فكتور هوغو : اذا اردت ان تستبكي فابك .. فان لغة العواطف ابلغ اللغات"

هذه النماذج وامثالها ذات دلالة بعيدة على انغمار الاديب جبري في لجج الرومانسية وتجاوبه الحار مع اعلامها ، وان فيمن انتزعوا اعجابه ، فترجم لهم وتجاوب مع نزعاتهم ، من مثل روسو ولامارتين ، وموسيه وسان بيير وريشيه وهوغو .. ما يكفي لخلق تلك الاجواء الحالمة المنشودة التي بسطت ظلها المديد حينا من الزمان على الحياة الادبية في ربوع المشرق العربي خلال الثلث الاول من القرن العشرين.

لعل اهم ما تنطوي عليه نفس جبري تجاه تلك النماذج الادبية الوافدة اعلامها ، هو انفعالها الشديد بما تقرأ هو في معظمه ادب مفعم بالمشاعر الجياشة حتى ان هذه الحالة كانت تلفه وهو في صدد الترجمة ايضا ، فهو حين يعمد الى تعريب ما يروقه تعروه هزة المبدع حتى كانما حل في قريحة ذلك الاديب ، او حل ذلك الاديب في قريحته ، انه يصور ذلك بدقة فيقول (١٧) :

" فاذا ترجمت فاني لا اترجم من الكلام الا ما يمتزج بلحمي وعظمي ودمي ، انني لا اترجم الا ما يخالط روحي وقلبي ، فلا أحس باني اترجم ترجمة ، وانما احس بأني انشيء انشاء ، ولذلك قلت : لابد من الصلة الروحية في الترجمة " .

على ان السبيل الى الترجمة وايضا الى الاقتباس لم يكن امام جبري دائما على قدر واف من السهولة واليسر، فالكتاب و الشعراء او الفلاسفة ، او المفكرون ليسوا على صعيد واحد في قرب المأخذ ، اذ هم متباينون في نتاجهم تباينهم في طبائع نفوسهم وملامح وجوههم ، وشفيق جبري على اية حال لم يكن ابن اللغة الفرنسية ولا من اهلها ، فلا غرابة ان يكابد بعض المعاناة تجاه ما يتصدى لترجمته ، فيسلس جانب منه له القياد لسهولته فيقبل على نقله ، على حين يستعصي لديه جانبه الاخر لصعوبته فينأى عنه . وقد جلا شفيق جبري هذا الامر بصراحته المعهودة تجاه قطعة أدبية راقته لواحد من خطباء الكنيسة في القرن التاسع عشر اسمه (مواسون)، وعنوانها (الزمن) ، وبعد ان قلبها بين يديه آثر ان يدعها جانبا ويقول :

" .. فرأيت انه لا قدرة لي على تثبيت افكارها في شيء من الشعر ، فان شعر الشعراء الذين آنست بدواوينهم في القديم لم يألف هذا النحو من الافكار، وحين نظمت قصيدتي (الزمن) لم يأت فيها شيء مما في كلام مواسون ، ولكن الهمني العنوان لا غير .. واني أقر بعجزي في هذا المقام " .

ويعود جبري الى الموضوع نفسه بعد حين في كتابه (انا والنثر) فيؤكد هذه المعاناة تجاه بعض الادباء واستعصاء بعض نصوصهم عليه ، فيقول ايضا بصراحة مماثلة (١٨) : " لا استطيع أن أترجم وصف الطبيعة في كتابات (شاتوبريان) استطاعتي لهذه الترجمات في كتابات غيره من الكتاب الذين لم يغرقوا في التصوير ولم يغلوا فيه ".

ومع اننا نوافق بالاجمال على ما اورده جبري من اراء في صدد الترجمة فاننا نجنح للاعتقاد في الوقت نفسه بأن الاستعصاء قد لا يكون دائما بسبب

طبيعة النص الاعلى المنقول منه ، ولا بطبيعة اللغة الاخرى التي يتم النقل اليها ، بل لقصور ايضافي طاقة المترجم الناقل او المعرب . وجبري نفسه ألمح الى ذلك ولم يستبعده ، والا متى عز كلام خطيب مثل مواسون او نثراديب مثل شاتوبريان على الترجمة .

ولا بد بعد ذلك من تقبل ما ذهب اليه شفيق جبري بصدر آرائه في مجال الترجمة ، من حيث ايثاره النماذج التي كانت تروقه ، الا اننا نضيف الى ذلك ايضا قولنا : وايضا النماذج التي يتمكن من فهمها ويحسن تذوقها وتشوق خصائصها ، ولعلنا لا نظلمه في ذلك وهو نفسه القائل في قضية الترجمة نفسها عن النصوص الاجنبية (١٩) : "... ولكني لا اميل الى الصور الغربية ، ولا الى الاغراق في التصوير ، فأنا ميل الى الصور الواقعة ، القريبة من حواسنا بمجامعها ، وأحب افراغ هذه الصور في قالب بسيط .. " . ولعله يبدو لنا تجاه هذه المعضلة على نحو اجلى حين يضع يده على اصل الداء ، وذلك بعد طول ممارسة وشدة معاناة ..(٢٠) : " الصعوبة كل الصعوبة انما هي في اصول الترجمة ، ان المترجم لا مناص له من اتقان لغته واللغة التي ينقل عنها ، ومع ذلك فان هذه الصعوبة تظل قائمة ، وأهون علي أن انشيء فصلا من الفصول بحذافيره من ان اترجم صفحة واحدة . والسبب في هذا ان لكل لغة اسرارها وخصائصها ، روحها وعبقريتها .. وكم كنت استغرب عمل الذين تصدوا لترجمة القرآن الكريم .. فما هي البلاغة التي تبقى لهذا الكتاب المعجز بعد الترجمة ..؟"

– ٤ –

وثمة صعيد اخر في ادب الغرب الفرنسي ، استند اليه شفيق جبري في مرحلة متأخرة بعض الشيء عن مرحلة الشغف بالشعر ، ونعني بذلك اعجابه البالغ بالنثر الادبي الذي دبجه اعلام الكتاب في فرنسا ، واغلبهم عاش في القرن التاسع عشر .

والنثر ، بطبيعته ، ليس من شأنه ان يكون وعاء للمشاعر الدافقة والرغبات العارمة والعواطف الجياشة ، فهذا شأن الشعر قبل سواه ، على حين ان النثر ينطوي على حظ اوفى من الفكر ، وبسط جانبا ارحب من الرأي .. وقد وجد جبري لدى كتاب الغرب ، ولا سيما الفرنسيين ، طرافة متميزة ، وآفاقا واسعة ، واساليب عذبة ، وكان اعجابه بما يقرأ ، يحفزه ايضا ، كعهدنا به ، الى ترجمة ما يراه جديرا بالترجمة . وكان اكثر ما يهزه ، وهو شاعر ، هو الوصف ، ووصف الطبيعة بوجه خاص ، اذ كانت احب الى قلبه ، وأقرب الى نفسه ، وقد اوضح هذا الجانب لديه بقلمه فقال (٢١):

" من الموضوعات التي امتزجت بأجزاء نفسي ، وخالطت كل ناحية من نواحي هذه النفس وصف الطبيعة .. ومن هذا القبيل ترجمتي لما وصفه بوفون من صحارى البتراء "

" تصور بلدا لا خضرة فيه ولا ماء وشمسا محرقة ، وسماء مجهمة ، وسهولا من رمال ، وجبالا جرداء .. تقع عليها العين ، ويضيع فيها البصر من دون ان يرى اي شيء حي ، وارضا ميتة عرتها الرياح ، وحصى مبعثرا ، وصخرا منتصبا او مقلوبا ، وقفرا مكشوفا لا يتنفس فيه المسافر تحت ظل من الظلال ، ولا يصحبه فيه الا ظله وحده .."

ويعلل جبري نقل هذه المقاطع الى لغته العربية بأنه " لا صورة غريبة في هذا الوصف ، ولا تشبيه بعيد عن الواقع ، ويكاد القارئ اذا قرأ وصف " بوفون " لهذه الصحارى يحس بأنه مقيم بها ، يتقلب في هولها ووحشتها وكآبتها

ومما ترجمه جبري في مجال الطبيعة وصف الكاتب الفرنسي (برناردان دو سان بيير) لعاصفة في بحر الهند " تركت القوم على سفينتهم بين اشداق الموج والموت " ..

وعلى صعيد اخر نقل جبري الى العربية فقرات من قصة غي دو موباسان " اليد اليسرى " لما انطوت عليه من وصف جميل لجوانب من طباع المرأة (٢٢) ، كما نقل الي العربية ايضا مقاطع راقته من رواية " مدام بوفاري " التي كتبها غوستاف فلوبير (٢٣) وقد عقب على هذه الرواية اثر قراءتها بقوله :

" .. ووالله لم ادر ما الذي استولى علي من اولها الى اخرها ، ما الذي ملك علي شعوري وفكري في قراءتها ، أهذه المعارض التي عرض فيها كل حركة من حركات القلب ، في الحب الجامح والعشق الاعمى ؟ اهذه المعارض التي انكشفت فيها خوالج نفس مدام بوفاري كل الانكشاف ، حتى رأت حيلها ، وسمعت كذبها .. لا شك في اني كنت امر في اضعاف الرواية بتفاصيل تزعجني ،ودقائق تضجرني ، ولكن بلاغة الوصف والمهارة في الكشف عن بواطن نفس مثل نفس مدام

بوفاري ، والقدرة على تحليل هذه البواطن ، كل هذا كان يلهيني عن اقلاق واضجار ، كنت اطوي ورقة من ورق الرواية فيزداد شوقي الى الورقة التي بعدها ، وكنت افرغ من موقف من المواقف فيشتد تطلعي الى الموقف الذي بعده ، فكأني كنت مقيدا لا املك من حريتي شيئا وانما كانت حريتي في يد صاحب الرواية ، هذا هو الفن في الرواية ، هذه هي الموهبة ، وكان الفن قائم على أسر القارىء حتى يظل في تطلع مستمر من صفحة الى صفحة ومن فصل الى فصل " .

وحين يوفي جبري على نهاية رواية فلوبير يكون انطباعه الحار عنها قد بلغ ذروته :

" وما كدت اشهد نهاية " مدام بوفاري " حتى تراءى لي الالم والفجيعة ، وحتى ذقت بلاغة الكاتب ، فكأني لا ازال ارى هذه المرأة في نزعها ، كأني لا ازال اراها تتقلب على فراش الموت ، فأرى صفرة وجهها ، وعذاب جسمها ، وألم قلبها.. هذا هو الفن الخالد في الروايات لقد كان فلوبير في روايته استاذ الفضيلة واستاذ البلاغة في وقت واحد ، فاذا اردنا ان يشيع في ادبنا مثل هذه الفضيلة ومثل هذه الفضيلة ومثل هذه البلاغة فلنمش على آثار (مدام بوفاري) — واشباهها من الروايات الخالدة على وجه الدهر " .

قد لا تكشف هذه المقاطع التي كتبها جبري حول رواية فلوبير عن نقد أدبي ذي شأن تجاه فنية العمل الروائي وما ينطوي عليه من قدرة الكاتب على سبر اعماق شخصياته ورسم ملامحها ، وتحليلها واحكام العلاقة بينها ، وجمع خيوطها ، وتسيير احداثها ، فما اورده في الواقع لا يعدو اكثر من انطباعات قارىء متذوق استهوته الرواية ، فراح يطريها بعبارات عامة اشبه بصيحات الاعجاب ، بل ان بعض هذه العبارات التي اطلقها على ذلك النحو ينم عن سذاجة ، كالقول ان فلوبير استاذ الفضيلة ، وان هذا الفن الخالد على وجه الدهر .. ·انه اذا اردنا ان يشيع في ادبنا ثل هذه الفضيلة ومثل هذه البلاغة لنمش على آثار مدام بوفاري.." وكان المعول عليه في الادب والفن هو شيء من حسن النية او الارادة ، ثم المشي على آثار هذا او ذاك ..

على ان ما يعنينا في هذا المجال الذي نحن بصدده هو مدى اقتراب جبري من الادب الفرنسي ومدى اعجابه به ، وثمة جملة وردت في بداية تعليق جبري لها في رأينا دلالة ما وذلك حين قال : " كنت في هذه الايام الاخيرة اطالع رواية مدام بوفاري ، ولما فرغت من هذه الرواية في هذه الايام الاخيرة ، اي قبل سنة ١٩٦٠ بقليل وهي سنة تأليف كتابه (انا والنثر) وهذا يعني ان شفيق جبري ظل حريصا على الاتصال بالادب الفرنسي حتى بعد ان تجاوز الستين من عمره . غير اننا لا نزعم في الوقت نفسه انه كان دائم الاتصال بهذا الادب طوال حياته ، وفي ظننا ان طور الصبا والشباب هو
الذي شهد اوج هذا الاهتمام بالادب الفرنـ
الذي شهد اوج هذا الاهتمام بالادب الفرنسي ثم تراخى ذلك منه على مر الايام ، ولا سيما بعد انشغال الرجل بأدب أمته العربي وبلغتها وتراثها وما تقتضيه الحياة من واجبات التدريس والانتماء الى المجتمع اللغوي والانهماك في التأليف ونظم الشعر والانشغال في الاجتماعات والاسفار .. كل ذلك ، مضافا اليه التقدم في مطاوي العمر .. كان جديرا بأن يباعد بين الرجل وبين ادب جانبي يبقى لديه في المنزلة الثانية . وفي رأينا ان تعاظم شأن الفن الروائي في الادب العربي خلال الخمسينات من هذا القرن وما صاحبه من ترجمة روائعه عن الاداب العالمية .. ربما حفز جبري على مداومة الاتصال بذلك الادب الوافد . وأغلب الظن انه ، وهو في هذه السن ، مع ضعف مزمن ومتزايد في البصر، وتراجع لا بد منه في فهم الفرنسية (لم يقرأ بوفاري بلغتها الاصيلة) بل قرأها في النسخة العربية ، وكانت قبل ذلك قد ترجمت اليها ترجمة حسنة .

ولعل ما يدعم قولنا ان جبري نفسه قد اشار الى ابتعاده عن هذا المجال وعدوله عن الترجمة في وقت مبكر من حياته هو في اواسط العشرينات ، وبين ذلك التاريخ وهذا الكلام عهد مديد .. ؟

وكثيرة هي النماذج النثرية التي كانت تروق جبري فيبادر الى تعريبها ، ثم يعمد الى التعليق عليها بما يعبر عن محاسنها ، غير ان اعجابه بهؤلاء الكتاب الفرنسيين على كثرتهم ، لا يعدل اجلاله لكاتب بعينه وهو "اناتول فرانس" . حتى انه اسهب في الكلام عليه في كتابه "انا والنثر" وخصه بمعظم صفحات فصله : " الاتصال بادب الفرنجة " وقد تجلى هذا الاعجاب في وقت مبكر من حياة جبري ، حين كان في نحو العشرين من عمره . وفي ذلك يقول(٢٤) :

" .. ثم لما اعجبت باناتول فرانس اقتنيت جملة من رواياته وكتبه الادبية " .

وجبري لا يكاد يذكر الادب الفرنسي او بعض اعلامه دون ان يشيد بصاحبه فرانس، ان يشير اليه من قريب او بعيد، حتى كأنه ملك عليه مشاعره، ولندعه يحدثنا بنفسه عن مبلغ هذا التعلق (٢٥):

".. الا ان الكاتب الذي اندمجت في افكاره حتى كدت اغرق في هذه الافكار انما هو اناتول فرانس، ولقد ترجمت طائفة من آرائه، فكنت اشعر بأني صاحب هذه الاراء، انا الذي تصورها واعرب عنها. وذلك لامتزاج روحي بروحه، وذوقي بذوقه، وشعوري بشعوره، من أجل هذا كله لم اجد في ترجمة آرائه مشقة، ولا رأيت ارتباكا".

وقد اشاد جبري على هذا النحو في مواضع كثيرة اشادة بالغة بكاتبه الفرنسي الاثير وبعدد من كتبه، من ذلك ماقاله بصدد كتاب اناتول:

" حديقة ابيقور (٢٦): " هذا الكتاب الطريف هو اول كتبه التي اتصلت بها، وقد صادف هوى في ذوقي .." ثم ماقالت ايضا في سائر كتابات فرانس (٢٧): "كنت اترجم جملة من كتاباته في بعض موضوعات ادبية ولا سيما تصوير الاشخاص ووصفهم مما لم آلفه في ادبنا القديم الا قليلا"

ويتجلى الزهو في كلام جبري حين يأتي على ذكر اناتول فرانس، ولا سيما حين يعلن قائلا (٢٥): ولعلي اول من عرف به وببعض ادبه في الشام، وقد ترجمت طائفة من مقالاته، واني اختصصته بمحاضرة منفردة القيتها في مجمعنا العلمي العربي في دمشق".

وطبيعي، تجاه من يعلي شأن صاحبه الى هذا المدى، ان يعتقد ان "اناتول فرانس ان لم يكن ابلغ كاتب في فرنسا فانه من بلغاء الكتاب غير مدافع".

وليس من شأننا ان نسأل عن سر ذلك الاعجاب او سبب ذلك التفضيل، فهذه قضية ذوقية تتصل باطع والمزاج ولا تنضوي تحت جناح المنطق او في اطار الذهن، وقد يكون جبري محقا فيما ذهب اليه تجاه صاحبه، وقد يكون قد أفرط فيه القول والثناء بدافع المحبة والاعجاب، غير انه من المفيد ان نشير في هذا الصدد الى ان شفيق جبري ليس وحده الذي يكن لاناتول فرانس هذا الاعجاب، بل كان يشاركه فيه عدد من معاصريه، وربما كثير من مثقفي جيله. ولعل من ابرز اولئك علامة الشام محمد كرد علي الذي كان على مثل هذا الاكبار والتقدير، اذ خص اناتول فرانس وكتبه ومقالاته بمحاضرة القاها على الملأ في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢٩)، كما كان على مثل هذا الاعجاب او اشد، فئة بارزة اخرى من الكتاب العرب من مثل محمد حسنين هيكل وشكيب ارسلان ومحمد كرد علي (٣٠)..

والان، وبعد هذا الطواف في رحاب ثقافة الغرب وادابه، والوقوف على مواقع شفيق جبري منها اقترابا وابتعادا، اوتلاحما وتجافيا، وما كان لذلك من تأثير في نتاج شفيق جبري بوجه عام، جدير بنا ان نجمل تلك المؤثرات في مجاريها التي انسربت خلالها .. لعل اول مانلمسه في ادب شفيق جبري ان سلطان المؤثرات الاجنبية عليه ظل يحوم في اجوء اعامة تتصل اول ما تتصل بمعطيات الفكر الغربي وماهية منهجه، وروح ادبه، ومن امثلة ذلك ما افاد منه على نحو جلي في محاضراته ودراساته، على صعيد منهج البحث وطرقه، ومن ثم استمداده شطرا من افكاره ومعلوماته من اعلام الدارسين الفرنسيين، لنستمع اليه في هذا الصدد وهو يهم باعتلاء منبر التدريس بالجامعة (٣١):

"استندت الى (اناتول فرانس) والى (لانسون)، واستعنت ببعض اراء (برونوتيير وفاغيه وسانت بوف) وغيرهم واقتبست ما امكم اقتباسه من هذه الاراء، وبنيت محاضراتي على طائفة من افكارهم"

وعلى صعيد دراساته وبحوثه ايضا يوضح مااقتبسه من ذلك المعين الوافد (٣٢):

" هذه هي الافكار الادبية واشباهها التي انشأت ثقافتي الادبية، من نواحي الفكر والشعور والذوق، هذه هي الافكار التي اقتبستها من الفرنجة، فانتفعت بها في فهم الادب وذوقه، وفي تدريسه وفي وضع كتبه. ولولا اتصالي بطبقات هذه الافكار لظلت ثقافتي الادبية جامدة جافة قاحلة ..".

" لقد اخذت اشياء كثيرة عن بلغاء من العرب كابن المقفع وابن عبد ربه والثعالبي وابن خلدون ومن هم في طبقاتهم. ثم اضفت ما اخذته عن بلغاء الكتاب من الفرنجة مثل فينيلون، وموتتسكيو واناتول فرانس ولوتي، ومن هم على طرازهم، فاجتمع هذا كله في روحي، فاختلطت عناصره، وتزاوجت أجزاؤه، واتحدت جملته".

لقد دأب شفيق جبري من خلال هذه النصوص على القول ان ما اخذه من الفرنجة انما هو الافكار والاراء. وهذا جلي في مؤلفاته وكتاباته، سواء على

معيد كتبه عن الجاحظ والمتنبي وابي الفرج ، او على صعيد سائر محاضراته ودراساته ومقالاته ، فالافكار والاراء هي التي استمدها وليست الصور ولا الاخيلة ولا الاساليب ، وبعبارة اخرى فان ما استمده جبري من ثقافته الاجنبية انحصر او كاد ينحصر في نطاق التأليف والمحاضرة وفي مجال النقد الادبي ، اما الادب المحض من حيث كونه فنا خالصا فكان تأثره خلاله على صعيد النثر محدودا ، وعلى صعيد الشعر معدوما ، وعلى الرغم من ان جبري فتن بروائع الادب الفرنسي الا ان افتتانه لم يتحول الى ممارسة او تطبيق ، واكثر ما كان منه انه اقتصر من هذا الادب على جانب المضمون دون الشكل لقد عب من الافكار واستمد من الاراء ما راقه وما طاب له ، دون ان يتجاوز ذلك الى فن التعبير نفسه . ولهذا كان انصرافه الى نثر الكتاب وهو شاعر ، اكثر من احتفاله بشعر الشعراء ، اجل كان اناتول فرانس الكاتب هو الاثير لدى شفيق جبري الشاعر . وحتى حين يلامس جبري فكتور هوغو الشاعر فانه يظل بعيدا عن شعره ، ويكتفي بان يلوذ بنثره ، مع تذكرنا ان التفاتته الى شعره وانفعاله به في يفاعته مثل الذي يكون من التماعة الشهاب ، انه يقول (٣٣) : " لقد اثرت في الثقافة الافرنجية وحين قلت في الشعر انما هو وحي يوحى، التقيت بقول (هوغو) في هذا المعنى ، على ما بيننا من المسافة "فالتأثير اذن دائما في المضمون وليس في الشكل، وعلى صعيد النثر وليس الشعر، وفي مضمار الاراء والافكار والمفاهيم ، لا على صعيد الصور والاخيلة وفن الاداء .

لقد كان شفيق جبري مقتنعا - كما تبين لنا خلال البحث - ان العربية لها خصائصها واسرارها ، ولا قبل لها باستساغة صور اداب الغربيين واساليبهم .. انه يؤكد هذا الرأي وهو بصدد تلخيص مذهبه في الادب وحصيلة ارائه تجاه معطياته في الادب الغربي ، مختتما بذلك صفحات كتابه (انا والنثر) :

" سواء اكنت اكتب مقالات في السياسة ام كنت اكتب في الادب ، وفي الرحلات .. وسواء اضمنت هذه المقالات بعض الصور وبعض الوصف ام لم تضمن ، اني كنت احاول جهدي ان احرص على روح اللغة " .

" لقد كتبت مقالات في الصحف وفي المجلات وخطبت وحاضرت وترجمت واستقبلت اساتذة في مجمعنا العلمي العربي ، والفت كتبا ، وما خطر ببالي ان اخرج في هذا كله عن روح العربية" .

" ولقد كنت امر في اثناء مطالعتي لكتب افرنجية على صور رائعة ، غير اني كنت ارى ان روح اللغة العربية لا تألف هذه الصور ، فكنت أزهد فيها واستغني عنها ، حتى لا يكون في كتاباتي شيء نافر عن ذوق اللغة .."

ان قطب الرحى لدى جبري من خلال هذه العبارات هو دوما : روح اللغة ، وحجته الدائمة ، ان العربية لا تألف تلك الصور الرائعة التي يتسم بها ادب الغرب . غير ان هذه حجة واهية تنطوي على حكم مطلق غير مقنع ، ولعل ما يسوغ ما جنح اليه جبري وما قر في ذهنه هو في رأينا انجذابه الشديد الى الادب العربي التقليدي بنماذجه القديمة الاصيلة ، وتشبعه البالغ بتراث العرب وذوقهم وصورهم واخيلتهم وكل ما تنطوي عليه اساليبهم وطرق تعبيرهم من خصوصية وتفرد .. حتى بات لطول معاشرته لادب العرب التقليدي .. شعره ونثره ، جزءا منه لا يتجزأ ، وهيهات مع هذا الالتحام ان تكون مطالعاته في اداب قوم آخرين قادرة على ان تزحزحه عما الفه وفطرت عليه نفسه . وهكذا لم يستطع ادب الغرب ان ينفذ الى داخله ، بل انه هو نفسه لم يشأ ان يسمح له ان يتوغل في اعماق قريحته ، وهكذا ظل كل تأثير مأمول من حول شفيق جبري ، شاعرا او اديبا ، عائما على السطح ، وبوسعنا القول ان التأثير الحقيقي للفكر الفرنسي وما يتصل به من ثقافة وادب ونقد ، انما هو لدى جبري تأثير المحرض، ولم يكن يتعدى ذلك الحد الى مدى التأثير الفاعل بما ينطوي عليه هذا التأثير من قدرة على التغيير في طبيعة الرؤية ومنطلقاتها .

ان شفيق جبري الباحث والمحاضر والمؤلف ، واحيانا الصحفي والكاتب والناشر ، كان بحق ينطوي على قدر واف من التجديد ، على حين ان الجانب الاخر من شخصية جبري ، جبري الشاعر ، ظل عصيا على تلك المؤثرات ، وكأنه الحصاة التي بقيت صلدة برغم انغمارها طويلا بمياه دافقة جديدة .

وشفيق جبري يبقى مع ذلك اديبا مجددا ، في اطار عصره وفي ظل بيئته ، ويكفيه فضلا انه كان منفتح الفكر في عهد غلب عليه الانغلاق ، اذ (٣٤) " اي ادب - كما قال - لم يؤثر فيه ادب غيره ولسنا نعرف ادبا قوميا محضا مستقلا كل الاستقلال . الجدة انما هي غذاء الادب ، وهل تأتي الجدة الا من ادب غيره ، اننا

لا نستطيع ان نتغذى بمواد بدننا وحدها.

لقد ايقن شفيق جبري بان الادب لا يستطيع ان يحيا ويزدهر اذا لم يرفده من اداب الامم رافد ، كان مواكبا لعصره ، واعيا لرسالته ، رصينا في محافظته وفي تجديده ، انه بعد ذلك ، ومع كل ما له وما عليه ، ادب رائد .

د . عمر الدقاق

غَزَل



شفيق جبري

هَيْهَاتَ ما عرفتْ هواكَ ولا دَرَتْ ... بوَجيفِ ظِلِّكَ في هُدوءِ ظِلالِها

عَجِبَتْ لِطَرْفِكَ غارِقاً في طَرْفِها ... مُتَعَرِّضاً لِقُعودِها ومَجالِها

لا تَسْتَطِيعُ سُؤالَها في خَلْوَةٍ ... يوماً ، ولا جادَتْ ببعْضِ سُؤالِها

كم كنتَ تُتْبِعُها خيالَكَ في الدُّجى ... دَرَجَتْ وما احتفلَتْ بغيرِ خيالِها

أقْلَقْتَ نَفْسَكَ في ذَراها حائراً ... في يَأسِ جَفْوَتِها وأمَلِ وِصالِها

لا تَحْسَبَنَّ صَدَى هواكَ مُرَدَّداً ... في قُرْبِ حَلَّتِها وبُعْدِ حِلالِها

لم تَخْلُ من عَطْفٍ ولا من رِقَّةٍ ... صاغَ الإلهُ العَطْفَ مِنْ تِمْثالِها

لكنَّها ذَهَلَتْ صَبَاباتِ الهوى ... فَطَوَتْ جوانِحَها على تَذْهالِها

أترعْتَ هذا الشِّعْرَ منها فانثَنَتْ ... عن كلِّ قافِيَةٍ سَرَتْ بدَلالِها

لم تَقْضِ من أمَلِ الهوى رَيَّانَهُ ... جَفَّتْ مُناكَ على ثَرى آمالِها

إنَّ التي ملأَتْ فُؤادَكَ صَبْوةً ... قَطَعَتْ حِبالَكَ فاعتَلِقْ بِحِبالِها

(ا)

شفيق جبري وآراؤه النقدية

-١-

دكتور / محمد رجب البيومي

تقصير شائن

انتقل الى رضوان ربه الاديب الكبير شفيق جبري منذ نصف عام ، ولم أعرف نبأ رحيله الا منذ اسبوع فقط . حيث سنحت لي نسخة من (المجلة العربية) قرأت بها مقالا عنه بمناسبة وفاته ، وأني لأعجب كل العجب من صحافة العالم العربي كيف تجاهلت حق اديب كبير كان من صفوة المفكرين في أمته ، فلم تخصه بحيز ضئيل يشير الى رحيله ، على حين تفرد الصفحات المتتالية لمطرب من الدرجة الثالثة مرض او توعك فهي تتبع انباء مرضه وزواره وأطبائه تتبعا يجعله مدار التفكير الشاغل فاذا حان أجله اسودت صحف الجرائد بصوره وذكرياته وأنباء جنازته ، وانتقلت الحمى الى الاذاعة والتلفزيون لينهضا ببث الحزن في نفوس المستمعين ، ثم يموت أديب ممتاز مثل شفيق جبري قدم للادب العربي فكرا متميزا طريفا يضيف الجديد فلا يجد صحيفة تأسف على رحيله ، وقد كانت الصحافة الى عهد قريب تحتشد لاذاعة مآثر الكبار من المفكرين ، فما بالها اليوم تتنكر لذوي النباهة من الاصلاء ، ولماذا لا يقوم على تحريرها في كل قطر عربي من درس اعلام عصره ، ونهل من الوفاء رشفات تشعل في عروقه دماء الغيرة على النابغين ، والحمية للمثقفين ، لا ننكر ان في بعض من نعنيهم بالملام اساتذة فضلاء ، ولكنهم استثناء لا يمثل القاعدة .

ميادين شتى :

لقد كان لشفيق جبري ميادين شتى يجول فيها سابقا ظافرا ، كان شاعرا يجول فيها سابقا ظافرا ، فهو متعدد المواهب ، متنوع الملكات ، كان شاعرا مفلقا يهز اعواد المنابر ، ويذكر مع حافظ وبشارة الخوري وعلي الجارم وبدوي الجبل وشبلي الملاط ، وكان مؤلفا ناهضا يفرد الكتب للحديث عن أعلام الادب العربي مثل الجاحظ والمتنبي وأبي الفرج الاصبهاني ، وكان كاتبا ذاتيا يتحدث عن رحلاته وتجاربه الخاصة في دنيا الشعر والنثر ، وقد كتب عنهما كتابين طريفين تحت عنوان (انا والشعر) و(انا والنثر) حفلا بخير كثير ، وليس من شأننا ان نتحدث عن ذلك كله اليوم ، ولكننا نكتفي بتسليط بعض الاشعة الهادئة على طائفة من آرائه النقدية لها قيمتها الخاصة لدى الدارسين ، واكثرها لا يزال متفرقا لم يجمع في كتاب ، وما جمع منه في مثل كتابه



د / محمد رجب البيومي

مصر

(بين البحر والصحراء) قد اختصر اختصارا من مقالات مبسوطة نشرت في مجلة الثقافة المصرية في سنواتها الاولى ، اذ كان من كبار كتابها البارزين ، يذكر مع طه حسين واحمد امين وعبد الوهاب عزام واحمدزكي ومحمد كرد علي ، وعلي ادهم ، وغيرهم ممن اسسوا مجد هذه المجلة الممتازة ، ولئن شارك الاستاذ شفيق جبري سواه في بعض ما اهتدى اليه من الاراء ، لقد انفرد في بعضها الاخر بابتكار يضاف الى رصيده الحافل بل ان ماشارك فيه قد رسم بميسمه المنفرد ، فأصبح ذا ملامح خاصة به ، وتلك ميزة الكاتب الاصيل ، الذي يشعرك انه يفيض بعاطفة صافية ، وخواطر منفردة ، اخذت نسيجها المادي من عقله ولحمه ودمه ، فاليه تنسب في محبة واعتزاز .

تواضع أصيل :

وأول ما كان يحبب شفيق جبري الى قارئه تواضعه الاصيل في عرض ارائه ، فهو يشارك قارئه فيما يعانيه من افكار ، اذ يسوق اليه الحديث وكأنه يحاول ان يستلهمه الرأي ، مع أنه هو الذي يهديه ويجنبه العثار ، انه لا يبدأ بحوثه بصخب مرتفع يدل على تعاظم كاذب كما نعهد لدى بعض ذوي الطبول ، ولكنه يدخل قلب قارئه دخولا حبيبا حين يتحدث عن فن الجاحظ ، مثلا فيقول (1) في عظمة حقيقية يعرفها الفاقهون :

" لقد قضيت اياما وانا افكر في فن الجاحظ ، كيف اشرع في الكلام على هذا الفن ؟ وكيف افرغ من هذا الكلام ، واشتدت حيرتي لما طالعت طائفة من فن الفرنجة ، ورأيت كيف يبحثون عن فن شعرائهم او كتابهم او خطبائهم ، ان لهم اسلوبا في البحث عن الفن لم يعهده أدبنا بعد ، فلا يكتفون بالاشارة الى جزالة الكلام او الى رقته ، او الى محاسن التشبيه والكنايات ، وغير هذا من الصور ولكنهم يعرضون لالفاظ الكاتب ، فيبحثون عن هذه الالفاظ بحثا مستفيضا من حيث دلالتها على المعنى من طريق الحقيقة او المجاز ، او من حيث دلالتها على لون من الالوان ، او على صوت من الاصوات ، او من حيث انها مجردة او محسوسة .

قضيت اياما وانا افكر كيف اشرع في الكلام على فن الجاحظ ، وخاصة بعد ان تراءى لي تقصيرنا في هذا المجال ، وقلت في نفسي : وما انت قائل في هذا المعنى ، وكيف انت داخل هذا الباب ، ام كيف أنت خارج منه ، وخاصة انه اجل ابواب الجاحظ التي تدل على خلوده في الادب ".

ثم يقرأ الانسان ما جاء به جبري عن فن الجاحظ فيجد اشعة صائبة ، وخطى هادية ، ولوامع كاشفة ، فهل كان يخدع قارئه بما قدم ؟ ان الرجل يرسم في ذهنه انموذجا للكلام الجيد ، انموذجا مثاليا يراه صعب المرام بينه وبين نفسه ، ثم يقيس ما عنده - وهو جليل خطير - بما يفترضه في هذا الانموذج المثالي ، فيرى البون شاسعا ، ويستشعر الحرج ، ثم يتضاعف حرجه فيجد متنفسا فسيحا منه ، حين يفضي الى قارئه بما يحس ، واذا استشعر كاتب هذا الجرح فهو أمين صادق ، يعرف منزلة الكتابة وقيمتها العالية عرفانا يدفعه الى نيحي القشور ، ويعمد الى اللباب ،وهذا ما كان من امر الرجل دائما ، وسنحاول ان نتبعه في بعض ارائه التوجيهية في النقد الادبي ليرجع اليها القارىء من جديد .

الظواهر والبواطن :

درس جبري الادب الفرنسي دراسة جيدة ، فأكثر استشهاداته الاوربية منه ، وله ولع زائد بالمقارنة بين الادبين ، وهي مقارنة تعرض النموذجين المختلفين لتوضح مكان الفرق الواضح ، لقد تعرض مثلا الى حديث البخلاء عند الجاحظ وموليير ، فقال ما ملخصه ان الادب العربي يهتم بالظواهر الحسية ، اما الفرنجة فيهتمون بالبواطن ، فالجاحظ يلاحظ البخيل كيف يأكل ويبين حركة اليد والفم والوجه والعين ، وهي صور تقف عند الظاهر ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يظهر اثار السخرية والكراهة والفظاعة في صور تجعل البخلاء ضحكة للناس ، لقد اهمل تصوير قلق البخيل وانفعاله وحرارة غضبه وضيق صدره ، فاذا كنا نضحك من بخلائه فانما يضحكنا ظاهرهم فقط .. اما موليير ، فقد صور الخوالج النفسية التي تساور صاحب المال اذا كان بخيلا ، صور القلق والسهد ، وخوفه من كل شيء وسوء ظنه بكل شيء حتى ولده ومن يحيطون به ، فهو لا يريد ان يرى خادم ابنه منصوبا في داره كالرمح ، يلاحظ مايقع في هذه الدار ، ولا يريد ان يرى جاسوسا تلاحظ عيناه الملعونتان اعماله ، وتأخذان

ما يملكه ، وتدوران في كل جهة لعلهما تريان شيئا يمكن استلابه (٢) .

هذا ما اهتدى اليه الناقد من الفرق بين بخيل الجاحظ ، وبخيل موليير ، ويخيل الي ان الكاتب الكبير قد ظلم الجاحظ حين وازن بين مسرحية مكتملة الفصول ، وأقاصيص قصيرة عن البخلاء تهدف الى النادرة الفكهة دون ان تمعن في التصوير ، ان ملكة التصوير الباطني متهيئة للجاحظ ، وقد ظهرت بوضوح في رسائله وان تضاءلت في اقاصيصه ولسنا نقول انه يشابه موليير تمام المشابهة . ولكنا نقول ان اختلاف المسرحية عن الاقصوصة الصغيرة كان ذا شأن في بواعث هذا الخلاف .

لذلك نرى الاستاذ شفيق جبري قد رجع عن هذا الرأي بعد بضع سنوات ، حين نشر كتابه عن الجاحظ فقال عنه ص ٢٤٢ ط اولى .

" ومن قرأ كتابه ـ الجاحظ ـ في الحاسد والحسود ، تجلت له قدرته على تصوير الاخلاق الخاصة ، فيكاد يكون في هذا الباب عالما من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقاربها ، ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هذه الناحية ادق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى اذا فرغ من البواطن ، انتقل به الكلام الى الظواهر ، فراقبها وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة ، ولولا اني اعتقد اني في نقل طائفة من هذا كله تشويها للمحاسن لنقلتها .

ثم ينقل من كلام الجاحظ ما يدل على تصوير الحالتين الظاهرة والباطنة معا .. ويعقب على الاستشهاد بقوله :"فاذا دققنا في هذه الاوصاف كلها ، تحقق عندنا ما قلته من ان الجاحظ عالم من علماء النفس ، يبني علمه على تجربته ، ثم يصف ماتوحي اليه هذه التجربة وصف صناعة وفن " .

وبعض الذين يتسرعون في النقد يظنون الكاتب الناقد متناقضا مع نفسه والحق ان كل اديب بحاثة يلازم الفحص الادبي مدى طويلا يضطر الى تعديل آرائه حين يثبت له من الحقائق والوثائق ما يوجب هذا التعديل ، ولن يعد بذلك متناقضا ، ولكنه يصحح اراءه قبل أن يصححها سواه فحسب .

أدب الطبيعة بين الشرق والغرب :

فاذا تركنا مسألة الظواهر والبواطن لدى الانسان ، وانتقلنا الى ادب الطبيعة بين الشرق والغرب فاننا نرى الناقد الكبير يختار البحتري من ادباء العرب ليقرنه بلامارتين الشاعر الفرنسي ، اذ وقف البحتري امام بركة المتوكل فعد البحر تاليا لها في الروعة ، ورأى دجلة تنافسها في الحسن كالتي تغار منها ، وتخيل ان جن سليمان هم الذين ابدعوا صنعها وأقوا معانيها ، اما ماؤها فهو الفضة البيضاء تسيل من سبائكها ، فاذا علته الصبا هزته فجعلت له حبكا ، والشمس تضاحكها والبعث يباكيها :

اذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلاحسبت سماء ركبت فيها

وكل ذلك قاله البحتري ونشره شفيق جبري نشرا دقيقا لينتهي الى القول بان صور البحتري صور مادية تلهي العين والاذن وتقف عند ذلك دون ان تتصل بلواعج الفؤاد وخوالج النفس امالامارتين فوقف امام البحيرة التي شاهدت اوقات صفائه زمنا مع حبيبته الراحلة ليرى في صوت المجاديف الضاربة في الماء انغاما تجهلها الارض ، وليتخيل الموج يصغي لهذه الاصوات اذ هي خطاب للازمان والساعات ، مطالبة ان تهدي من سيرها فلا تتعجل ، لقد نفح لامارتين روحا في الطبيعة من عنده واشركها في آلامه واحلامه فوصل بها كل ناحية من نواحي قلبه ، كان يرى في الطبيعة معبدا يسمع فيه أصواتا تعلمه بما عند الله ، فهو يجد فيها الرفق والهدوء وكل ما يحمل النفس على التأمل ،. وقد كان ذلك كله مقدمة لهذه النتيجة التي لخصها الناقد في قوله (٣)

" الفرق بيننا وبين الفرنجة ، انهم اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسهم ، فخلقوا لها قلبا يشعر بشعورهم وعينا تبكي لبكائهم فشاطروها الامها وشاطرتهم الامهم . واذاكان في بعض شعرنا شيء من اشباه هذه النزعات فهذا شيء قليل ، واقل من القليل ، اذ ان الطبيعة في شعرنا لذة العين ولذة الاذن ولكنها لم تكن لذة الروح ، واذا الهمتنا الطبيعة بعض صور مادية فان شعورنا وعواطفنا لا تزال جامدة امام الطبيعة " .

ولا ننكر ان شعر الفرنجة أكثر حيوية في مناجاة الطبيعة وأكمل تشخيصا ، نحن مع الناقد في ذلك ، ولكننا نراه يكتفي بقطعة للبحتري مقارنة بقصيدة للامارتين ليكون الاثنان وحدهما مقياسا شاملا لأدبين مختلفين يمثل كل منهما موطنه ، وفي هذا ظلم لشعراء كبار

من امثال ابن الرومي وابي العلاء وابن خفاجة ، ويستطيع ناقد اخر ان يأتي بمثل قصيدة ابن الرومي التي يقول فيها :

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
على الافق الغربي درسا موزعا
ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خدا على الارض أضرعا
كما لاحظت عوادة عين مدنف
توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الخلي لتدمعا
يراعينها صورا اليها روانيا
ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلا صفاء تودعا

ليقول ان الادب العربي يحمل طابع لامرتين ، وكان على الناقد الكبير مع الاجمال الذي ذكره الا يغفل الاستشهاد ببعض هذه الاثار الحية ليقول انها تسير مع شعر الطبيعة الافرنجي جنبا لجنب .. وبذلك لا يحرم الشرق من نبوغه البارزة في اثار نوابغه المتميزين .

(١) الجاحظ ص ٢٤٩ ط دار المعارف
(٢) مجلة الثقافة (العدد الاول من السنة الاولى) اول يناير سنة ١٩٣٩م
(٣) الثقافة : العدد العاشر ١٩٣٩/٣/٧.

أمّي

شفيق جبري

أمّي! ولستُ أرَى في الأرضِ قاطِبةً	أعزَّ منكِ على الاسمَاعِ والبَصَرِ
ناديتُكِ اليومَ، لا حِسٌّ ولا خَبَرٌ	فأينَ منكِ دَويُّ الحِسِّ والخَبَرِ
غادَرْتِ في القلبِ جُرْحاً كلّما هَدأَتْ	آلامُهُ اتَّقَدَتْ في القلبِ كالشَّرَرِ
لو تَسْمَحِينَ جعلتُ الصَّدْرَ مُتَّكأً	لرأسِكِ الطُّهرِ في الظَّلماء والحُفَرِ




شفيق جبري وآراؤه النقدية

د/ محمد رجب البيومي - مصر

-٢-



بين النثر والشعر :

حين نستعرض اراء شفيق جبري الادبية ، نجد شيئا عجيبا حقا ، نجد أنه التزم بها فيما كتب نثرا لاشعرا ، فكل ما دعا اليه من سهولة اللفظ والحرص على المعنى ، وبساطة الاداء قد وجد تطبيقه في نثره فقط ، لأن شعره في أكثره الغالب قد نحا منحى الجزالة وقوة الرنين . وجانب البساطة السهلة القريبة فهو الى ابي تمام اقرب منه الى غيره ، ، وان كان معجبا بشوقي والمتنبي والشريف وتلك ظاهرة ادبية لها نظائر كثيرة ، فأبو تمام قد اختار ما راقه من شعر السابقين في ديوان الحماسة ، ولكن هذا المختار لديه من اقوال الفحول يجانب منحاه الشعري ، ولا يتصل بفنه الادبي اتصال القدوة والاحتذاء ، حتى لنتساءل : كيف اختار الرجل طعاما يقدمه لسواه دون ان يأكل منه ، وتعليل ذلك أن العبقري يحب الانفراد بطابع خاص ، فهو وان اعجب بزهور كثيرة في الروض ، فله وردته التي تتميز عن زميلاتها لونا ورائحة وانسجاما ورفيفا ، هكذا كان ابو تمام .

السهولة البسيطة :

وليست كلمة " البسيطة " من عندي حتى يعترض بعض اللغويين علي ، ولكنها ومشتقات مادتها من اختيار شفيق جبري حين دعا الى بساطة الاداء ، وأجمل ما يلحظه الدارس لديه انه فنان حقا في ملاحظاته النقدية اذ لا يسوق هذه الملاحظات مساقا اكاديميا ، يعج بالتعريفات والقواعد ، ولكنه يقدمها في مساق فني هو الى روح الشاعر أقرب منه الى روح الباحث ، انه يريد ان يتحدث عن سهولة التعبير ويسره ، فيذكر انه يجلس في محراب الطبيعة ، على صخرة يجري تحتها الماء فينعم ببساطة مايرى من مشاهد ، ينعم بشعاع الشمس الذي لا يرى غير ضيائه الصافي البسيط في ظاهره ولكننا اذا حللنا الشعاع ، وفككنا اجزاءه رأينا الوانه السبعة قد اتحدت اتم اتحاد ، وتضامت أكمل تضام ، حتى ألف منها هذا الشعاع وركب تركيبا محكما بحيث لا يرى منه الا ضياؤه ، وقد جاء حسنه من كمال تناسق وأجزائه ، واتحاد ألوانه ، فلا جزء في غير محله ، كذلك الاسلوب الادبي اليسير السهل تراه رقيقا صافيا يبهرك وقد ألف من اجزاء دقيقة مثل قوله تعالى : " يوم تبيض

وجوه وتسود وجوه ، وقوله : " رب اشرح لي صدري ويسر لي امري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، وقوله تعالى على لسان يعقوب واولاده : " يا ابانا مالك لاتأمنا على يوسف ، وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وانا له لحافظون ، قال اني ليحزنني ان تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون " .
يقول الاستاذ شفيق جبري تعقيبا على هذه الايات :
" ليس غرضي في هذه الاستشهادات التقصي في ذكر بساطة البيان في القرآن وانما غرضي الذي اتوخاه ان نعلم ان الطبيعة كلما تشتمل على مشاهد بسيطة في ظاهرها ، جاءها لحسن من بساطتها ، كذلك كتاب اللهعز وجل يشتمل على مفردات وجمل بسيطة جاءها الاعجاز من بساطتها ، ومثل هذه المفردات وهذه الجمل كمثل شعاع الشمس فكما أننا لا نرى من هذا الشعاع الا ضياءه الصافي، فكذلك لا نرى من مفردات كتاب الله ومن جمله الا رونقها الصافي ، ولكننا اذا حللنا اجزاء هذه المفردات وهذه الجمل ، ورددناها الى اصولها ، عرفنا حسن التنسيق فيها وحسن الاقتصاد في أجزائها ، كما نعرف حسن تنسيق الالوان في شعاع الشمس فقد يبهرنا هذا البيان في بساطته ولكننا لا ندرك تعذر الوصول الى مثل هذه البساطة الا اذا فصلنا اجزاء هذا البيان (١).
أرأيت كيف يكتب الناقد افكاره النقدية في مساق فني رائع لقد دون قواعد البلاغة العريقة وكأنه يتحدث في مجلس سمر مع صديق مؤنس لبيب .

بلاغة الصدق :

لقد تحدث الناقد الكبير عن وجوب الصدق الفني ، وموضوع الصدق في الادب لدى النقاد يحتل صفحات متوالية تحتشد بالنقول ، وتتضارب بالاراء ، ويظلم بعضها حتى لايكاد ينير شيئا مما يحمل من المعاني ، ولكن الاستاذ شفيق جبري يرسل رأيه في الصدق الفني كما ترسل السماء شعاعها الصافي الهادي في يسر وسهولة ، لقد ابتدأ مقاله الفني الممتاز ، فذكر انه كان في رحلة الى العراق ، فسمع في اثناء الطريق صديقا يتلو قول دعبل الخزاعي .

بنات زياد في القصور مصونة
وآل رسول الله في الفلوات

فتأثر بالبيت تأثرا عنيفا
واخذ يتساءل قائلا : ليس في هذا البيت روعة تشبيه ، ولا قوة استعارة ، ولادقة محسن بديعي ، فكيف جاء له هذا التأثير الخالب ؟ ان البيت - في رأي الناقد - خالد في اللغة العربية خلود هذه الفجيعة الحمراء التي فاضت فيها دماء كربلاء ، ولم تأته البلاغة من دقة معانيه ، فانها واضحة ظاهرة انما جاءته من وجه آخر هو صدق المعنى الذي صوره ، ومن هذا الصدق جاءته العظمة ، يقول جبري ما نصه " وأظننا لا نرى البساطة في الحياة الا رأينا العظمة في ظلالها (٢) ".
وما قاله الناقد حق صائب ،فان أبلغ ابيات الشعر العربي مما ينحو هذا المنحى الصادق ، قد يكون المعنى يسيرا قريبا ، ولكن يسره القريب لم يمنع روعته الخالبة ، فأنت مثلا تقرأ قول قيس المجنون :

أمزمعة ليلى ببين ولم تمت
كأنك عما قد أظلك غافل
ستعلم ان شطت بهم غربة النوى
وزالوا بليلى ان قلبك زائل

تقرأ هذين البيتين فيزانك هزا، ويرجانك رجا ، وماذا فيهما غير بلاغة الصدق ، لا تشبيه ولا استعارة ولا صورة بلاغية ، ولكنه تساءل مرير عن هذه العفلة الغافلة لهذا القلب الذي يعرف قرب الرحيل ثم لا ينفطر كمدا ، وهو يتأكد ان زوال حبيبته سيزيل قلبه من مكانه ، ما هذا السحر الخالب الذي يرسم مشهد الفراق بدءاوما يعقبه انتهاء من فجيعة ، في بيتين قريبي التناول قالهما الشاعر في يسر هادئ لان المعنى كان في خاطره جائشا هادرا ، لم ينترعه بافتعال واعمال ، بل صدق عما أحس ، وهذا حسبه .

قوة المعنى وعمقه :

وقد يظن قارئ ان ما يعنيه الناقد من يسر الاداء وصدق التعبير يغفل نصيب الاسلوب من قوة المعنى ورسمه وعمقه ، والحق ان المعنى الدقيق مما يرتفع بالاسلوب ارتفاعا واثيا ، وجودة الكاتب تلوح حين يستطيع ان يأتي بمعناه الدقيق في يسر هادئ ، لان بعض الكتاب ينوء اسلوبهم بما يحمل من قوة المعنى فيأتي غامضا معهما ، كبعض مقالات الفلسفة التي صاغها التجريديون جافة خشنة ، وقد اراد شفيق جبري ان يلفت الدارس الى قوة المعنى حين دعا

الى الاهتمام بقضايا العلم في مقالـــه الرائع (عالم الزوايا) فجاء مقالـــه صورة من فنه الادبي المعهود اذا بـــدأ بحديث عن صديقه الاثير (اناتول فرانس) الذي عشق الادب في صباه ، وترك مسائل العلم ، ثم بدا له بعد امد طويل انه خسر شيئا ذا بال ، حين لم يعكف علـى مسائل العلم لتلهمه روعة المعاني في بيانه الادبي ، فعكف أخيرا على الدراية العلمية ليعوض مافاته ، ومزج خطـوط الهندسة بخطوط الطبيعة . والف بيـــن قواعد الارض ، وقواعد المثلثات فخلق لهذا العالم الجاف طلاوة – هكذا يقـول جبري – ولهذه الدنيا الخرساء لسانـا ، حين ناسق بين الادب والعلم .

يقول شفيق جبري بعد ان افاض في مثـل ما ألمعت اليه من المعاني (٣):

" وكما لجأ – اناتول فرانس – الى الاشكال الهندسية في تمثيل قصر الحياة ، فقد لجأ اليها في تمثيل نسبة الاشياء ، فاسمع ما يقوله احد اشخاص روايتـــه (تاييس) للراهب (يافنوس) وقد سألـه عن السبب الذي من اجله يحرم نفســه طيبات الدنيا – .

" أيها الغريب ، اني لا احرم نفسي شيئا من الطيبات ، واني لأفخر بالاهتداء الى نمد من الحياة ارضى به بعض الرضى واذا توخينا صحة الكلام ، فليس فـي الارض حياة حسنة ولا حياة سيئة ، الا شيء شريف او معيب في ذاته ، ولا شيء عـادل او غير عادل ، لذيذ او لئيم ، صالـح او فاسد ، وانما الرجل هو الذي يجعل صفات الاشياء كما يجعل الملح طعما للاكل .

والاشياء الواحدة لها مظاهـــر متعددة ، فان اهرام " منفيس " تلـوح في مطلع الشمس كأنها شكل مخروط ينبسط عليه ضياء وردي ، وفي مغربها تلـوح كأنها في السماء الملتهبة مثلث اسود اللون ، ولكن من الذي ينفذ الى مادتها العميقة ، أنت تعيبني بأني أنكـــر الظواهر ، على حين ان هذه الظواهـر هي الحقائق الواحدة التي اعترف بها ، فالشمس تظهر لي مضيئة ، ولكني اجهـل طبيعتها ، انا اعرف ان النار تحرق ، ولكنني لا اعرف كيف تحرق ؟ ولماذا تحرق هذا نمط من الاستفادة العلمية التـــي يعنيها الناقد ، وهي استفادة فـــي التصوير النابع من شتى الملكـــات الانسانية تفكيرا واحساسا ووجدانـا ، فآفة الاسلوب العلمي لدى الاديب ان يأتي به عقليا جافا لا يتلون بشعوره الذاتي ، كما نعهد لدى بعض الكاتبين الذيـــن ينتسبون للادب ، وهم علماء فحسب ، فعلى الاديب المثقف بمعارف عصره ان يجعـــل علوم العصر وسيلة للتعبير ، تقتويـــه وتمنحه الدقة ، وفراسة النظـــرة ، وسلامة الاستنباط وقوة التعليل ، لا ان تأتي هذه العلوم بمنطقها التجريـــدي ، فتكون عبثا متخما لا يستطيع القارىء تحمله فيرميه عن ظهره ليستريح متخلصا من همه الثقيل .

نصيب الصورة :

عرفنا كيف تحدث الناقد الكبيـــر عن الالفاظ اليسيرة وعن المعانـــي الدقيقة ، ولا مناص من ان نشير الى بعض خواطره عن (الصورة الادبية) – وضرورتها الملزمة ، في الاسلوب الادبي ، ونحن نعلم ان الفصل مستحيل او يكـاد يكون مستحيلا بين الفكرة والصورة لـدى الفنان حين ينشيء ابداعه ، لان خواطره الفنية تفد الى نفسه متسربلة بصورهـا الادبية فهو لا يأتي بمعان عقلية ، ثم يبحث عن صور تظهر بها هذه المعانـي ، ولكنه يأتي بخواطره مزدانة بثوبهـا الجميل في وقت واحد ، انما يجيء هذا الفضل لدى الدارسين ممن يحللون الاثار الادبية الى عناصر متميزة ، كما يحلل الكيميائي مادته المختلطة فيردها الى عناصره الاولى .

والصورة عنصر هام من عناصر الاسلوب الادبي بل هي اقوى عناصره على الاطلاق وقد تحدث شفيق جبري عنها حين وازن بين العلم والادب فذكرني مقال جيد تحت عنوان " الادب الخالد " (٤) مانصه :

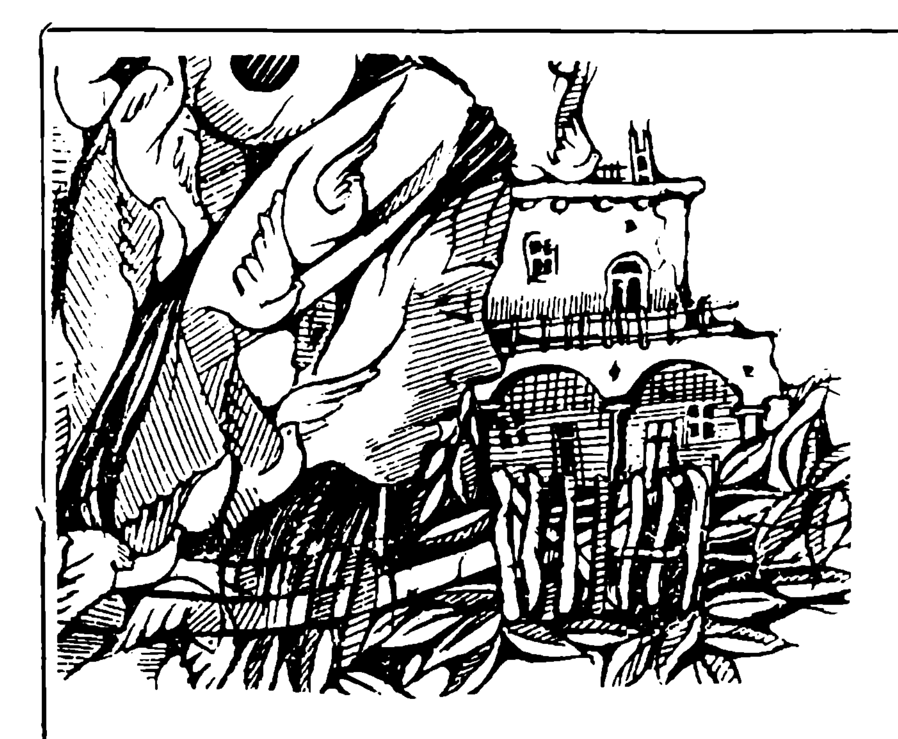
" ان العلوم لا تستغني عن الامثال والصور ، فهي روحها ، وهـل روح الادب غير الاشكال والصور ، فالادبـاء لاصقون بالحياة ، وروح صناعتهم هـي الاشكال ، ولا يمكن ان تجري اقلامهم من دون صور ، واذا رجعنا الى كبـار كتابنا وشعرائنا . وجدنا ان الخالدين منهم هم الذين لجأوا في فيض قرائحهم ، وصوب خواطرهم ، الى الاشكال المحسوسة ، وبهذا اللجوء قربوا من المادة ، من الحقيقة عينها ، وعلى قدر قرب صورهم من الحقيقة يكون خلودهم وبحسب بعـد اشكالهم عن هذه الحقيقة تقصر حياتهم ، ولماذا لا آتي بالادلة ؟ لقد قرأت كتب الجاحظ ، وقرأت شعر المتنبي ، فاذا تمثلت بهما فلأني ادري بهما ، فمن صور الجاحظ تشبيه الزر بالخيط الاســود الممدود ، فهو يقول : فلا يلبث ذلـك الانسان ان يراها قد اقبلت وخلفهـا كالخيط الاسود الممدود " .

ثم يستطرد جبري في استشهادات اخرى للجاحظ والمتنبي ، نشير اليها دون رصد .

خاتمة موجزة :

قلت ان ميادين الكاتب الكبير شفيق جبري متعددة ، وقد اقتصرت منها اليوم على بعض آرائه النقدية ، لأبعث الدارسين على تتبعها ، فان هذا الكاتب الكبير وابناء جيله الماضي قد اورثوا الفكر الادبي المعاصر ثروة تعز على النسيان ، ولا بد ان تهيأ السبل للدراسة ماخلفوه من اثار رائعة نتلمس بعضها اليوم لدى المعاصرين فيوسفنا الا نجد ، ولسنا نتعصب لجيل ، ولكننا نحاول ان نبعث همم الابناء كي يلحقوا بالاباء واثبين .

(١) مجلة الثقافة العدد ٢١٤ /١٩٤٣/٢/٢
(٢) مجلة الثقافة العدد ٢١٠ :١٩٤٣/١/٥
(٣) مجلة الثقافة العدد ٦ / ١٩٣٩/٢:٧
(٤) مجلة الثقافة العدد ٢٢٧ / ٩٤٣/٥/٤



الفتاة العانس

شفيق جبري

نَظَـرَتْ إلى مَـرآتِهـا	والطَّيْـرُ في وُكُنـاتِهَـا
والشَّمسُ ضاحِكَـةٌ تُناجِـي	الرَّوضَ في ضَحِكـاتِهـا
كَتمَـتْ هَـواهـا في الفُـؤادِ	فـلاحَ في لحَظَـاتِهـا
فتـأوَّهَـتْ حَتى حَسِبْـتُ	المـوجَ مِـنْ أوْهَـاتِهـا
وبَكَـتْ فكِـدْتُ أخـالُ أنَّ	الطَّـلَّ مِـنْ عَبَـراتِهـا
الشَّمْـسُ تُـوحِشُهـا إذا	طلعَـتْ على شُـرُفَـاتِهـا
وإذا الضُّحَـى بسمَـتْ لها	عَبسَـتْ على بَسَماتِهـا
مـا الوَردُ، مـا المنثُـور	مـا الرَّيحانُ في جَنّـاتِهـا
مـا الدُّرّ، مـا اليـاقُـوتُ	مـا المَـرْجـانُ في جَنَبـاتِهـا
لا تَشْتَهـي إلاّ القَـرِيـنَ	يَلُـمُّ مـن شَعَثَـاتِهـا

شفيق جبري شاعر الشام

بقلم : أحمد الجندي

عقيب انتهاء الحرب العالمية الاولى عرفت دمشق عددا من الشعراء الشباب الذين شغلوا فترة طويلة من هذا القرن باشعارهم وكتبهم النقدية وتحقيقاتهم الادبية ، فأدوا خدمة لا تنسى للادب والشعر العربيين ، كان خليل مردم وخير الدين الزركلي ومحمد البزم وشفيق جبري ، وكان لكل واحد من هؤلاء لون خاص وطعم يفرقه عن غيره ، وكان اخر هذه السلسلة الخيرة شفيق جبري الذي توفي في احد مشافي دمشق بعد ان نقل اثر مرضه من مسكنه الدائم في مصيف بلودان المعروف .

ولد شفيق جبري على ما يظن في عام ١٨٩٨ للميلاد وقد يكون عمره اكثر من هذا فقد توفي وله من العمر ثلاثة او اربعة وثمانون عاما ، ولو نظرت الى هذا الشاعر وهو يسير في دربه بين بيته ومقهاه في بلودان لرأيت رجلا طويلا بين الرجال ، ابيض البشرة ينحني على نفسه قليلا حين يمشي ولا يلتفت يمينا او شمالا في وجهه شيء يشبه الحزن او الملل ، فاذا جلس في مقهاه المفضل جلس وحده لا يكلم احدا ولا يكلمه احد ، اما حديثه فبطيء متأن في صوت خفيض لا يتناسب مع قامته المديدة والواحة العريضة .

يحب النكتة ويقدرها فاذا سر من جلستك افاض عليك ما وقع له من يومه وامسه وربما كان في ذلك ما يسلي ويضحك اكثر الاحيان ، فالشاعر جبري محدث لبق قريب الى القلب حين تجالسه ، وربما اعرضت عنه اذا نظرت اليه من بعيد لما يلوح عليه من ملل وكأنه يمثل بيت زهير

سئمت تكاليف الحياة .. الخ..

كان شفيق جبري مثقفا واسع الثقافة ، فقد درس اللغة الفرنسية وفق اصولها فهو ابن المدرسة العازارية القديمة في دمشق ودرس فيما بعد المدرسة شيئا من الانكليزية ، اما اللغة العربية فهي اللغة المنتقاة التي كان يحرص صاحبها على اختيار الفاظها وتنقية كلماتها مما يشوب اللغة الفصحى من الفاظ عامية او مصطلحات دخيلة ، لقد كتب في النقد حين درس الادب العربي في كلية الاداب القديمة والحديثة ، وانشأ كتابين عن المتنبي والجاحظ يعتبران بحق دراسة قيمة ذات تأثير لا ينكر ، من اراء صائبة واستنتاجات



الاستاذ
احمد الجندي

مفيدة افاد منها الجيل الذي درس على الشاعر فن النقد الادبي .

عرفت شفيق جبري منذ عام ١٩٣٨حين جاء الى دمشق حافظ ابراهيم شاعر النيل، يرافقه خليل مطران شاعر القطرين، يوم دعته الجامعة الامريكية لالقاء قصيدة في احدى قاعاتها الشهيرة ، وكانت القصيدة :

حيي بكور الحيا ارباع لبنان
وطالع اليمن من بالشام حياني

أهل الشام لقد طوقتم عنقي
بمنة خرجت عن طوق تبياني

ولم يكن ممكنا ان يصل الشاعران الكبيران الى بيروت ولا يزوروا دمشق ، لذلك تبادر الادباء والشعراء من دمشق الى بيروت لدعوة الشاعرين اللذين لبيا الدعوة وحضرا الى دمشق بين التقدير والاحترام ، وقد كلف حافظ يومها انشاد قصيدة كالتي انشدها في بيروت ولكن حافظا لم يكن كشوقي غر البديهة خصب الالهام سريع الاستجابة ، فقد كان اشبه بالفرزدق ، لا ينظم الشعر الا بعد تعب وتفكير ، اذ كان كثير التنقيح والتهذيب لما ينظم وكان يحمل ورقة في جيبه ، اذا اراد نظم قصيدة ، فيكتب فيها البيت والبيتين ، ويعود اليها بعد حين واخر حتى تستتم القصيدة وتكتمل خلال شهرين او اكثر بينما كان شوقي اشبه بجرير فهو فياض القريحة لو كلفته نظم قصيدتين في اليوم الواحد لفعل .

واقيم للشاعرين حافظ ومطران حفل في مجمع اللغة العربية - المجمع العلمي سابقا - والقى حافظ في الحفل بيتين اسعفته بهما قريحته وهما :

شكرت صنيعكم بدموع عيني
ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفني
على ما ذاقه طعم السرور

وكان مستغربا طبعا الا تجود قريحة شاعر كبير كحافظ ابراهيم الا بيتين اثنين لم يكونا اكثر من كلام بسيط هو اقرب الى النثر منه الى الشعر .
وقام يومها شفيق جبري ليجيب شاعر النيل على قصيدته الاولى التي القاها في بيروت وكانت اجابته اشبه بالمعارضة فهي من نفس البحر والقافية قال :

أنشدت شعرك في أفياء لبنان
فرحت أغمز وسواسي وشيطاني
يا طاوني اليم من دجناء زاحفة
على صفيح من الامواج مرنان

الى أن يقول :

وبنت مروان توخى مناباطحها
وشتى القرائح عاشت بنت مروان

وكأنه من ذكر " بنت مروان " قد نظر الى شوقي يوم جاء الى دمشق وانشد:

مررت بالمسجد المحزون اسأله
هل بالمصلي او المحراب مروان

وكانت قصيدة جبري " قنبلة " الموسم الشعرية ، ثم اخذنا نسمع صوت الشاعر بين حين واخر ، فهو يتحدث الى الناس في عيد الجلاء وفي المناسبات الوطنية الكبيرة ، حتى لقد سمي بحق شاعر الشام .

على ان شفيق جبري في طبعه الخاص كان اشبه بالبحر يهدأ ليثور ويثور ليهدأ ، فاذا ثار رأيت الجبال تنقض والاودية تسيل والاشجار تتقصف والرياح تعصف وتزأر ، لقد كانت له خلافات مع خصومه فكان كفوًا للمناجزة والقتال، لقد خاصم اقوى الخصوم من مثل حسني البرازي والشيخ تاج الدين الحسيني وغيرهما فانتصر عليهم جميعا ، وكان شعره هو المروي على لسان الناس في حين ان خصومه لم يصنعوا شيئا الازاحته عن العمل الذي كان يشغله في وزارة المعارف أو الجامعة .

ويحاول شفيق جبري الزواج بعد ان كاد يبلغ الستين من العمر وكانت مناسبة سعيدة له لو وفق الى ما اراد، ولكن ظروفا خاصة منعت ذلك الزواج ان يتم ، وقد بقيت آثار هذا الفشل مرافقة له في حياته كما اعتقد وكثيرا ما كان يعود اليها حين كان يريد ان يسر شيئا هاما الى اصحابه .

وكانت علاقتي به قريبة صادقة يوم كنت في مجمع اللغة العربية ، فقد وقع الاختيار على لأكون مقررا للجنة الشعر في المجلس الاعلى للاداب والفنون . وقد كنت خلفا لشفيق جبري ، وهذا ما كان

موضع فخر بالنسبة الي ، ولكني خشيت ان يدس الدساسون بيني وبينه فذهبت اليه احكي له حكاية هذا " المركز " الذي نلته ، وقد اضحكته يوم قلت له لو ان لهذه الوظيفة راتبا لما وصلت اليها ، واضحكته اكثر يوم قلت له في لقاءة أخرى : انني موظف شفهي ، وقال لي : لم افهم ، قلت انا موظف شفهي لاني لا اقبض راتبا على عمل اعمل فيه في الدولة .

واني لافخر كثيرا انني كنت محل تقدير الرجل تقديرا اخويا ، فقد كان يترك لي مقاله الدائم في مجلة المجمع ، لأصحح اخطاءه المطبعية ولا يتركه لغيري ولقد لقيت منه تكريما خاصا يستغربه الناس جميعا حين يعلمون قصته ، فقد هتف الي مرة ان ازوره في البيت ، فلما جئته قال : لقد كلفتك الحضور لاني اريد ان اقرأ عليك قصيدة نظمتها لارى رأيك ان كنت ترى نشرها او ارجاء ذلك وأخذ يقرأ وهو جالس بين عدد من الطنافس على الارض ، فقد كانت تلك عادته رحمه الله واخذت اسمع القصيدة وكان ينظر الى رافعا بصره ليستشف رأيي بين مقطع وآخر وكنت ادلي برأيي متحفظا اتحسس الهمسة والنبرة كيلا اسيء الى شاعر يرى نفسه اكبر شاعر في البلاد العربية وحين انتهى من قراءة القصيدة وسمع رأيي قال :

حسنا ، قلت يا شفيق بك : ان قراءتك هذه القصيدة علي اعتبرها اكبر راتب اتقاضاه عن كل حياتي الادبية ، فضحك ، واكتفى بذلك ، فقد كان رحمه الله لا يؤمن بالكلام الكثير ، واللبيب من الاشارة يفهم.

كان شعر شفيق جبري يمثل احداث هذا الجيل منذ غرته ، وهو شعر ينبغي على المولعين بالادب ان يقرأوه ويمعنوا النظر فيه لانه اشبه بكتب الجاحظ :فهو يعلم العقل اولا ، والادب ثانيا والشعر ثالثا .

رحم الله شفيق جبري رحمة واسعة ورحم خير الدين وخليل مردم والبزم فقد كانوا من ركائز هذا العصر في الشعر والادب .

احمد الجندي

شفيق جبري

غـزل



أنـتِ الحياةُ فما تَـزْهـو محاسِنُهـا	إلا إذا طابَ للأحياءِ مَـزْهَـاكِ
إنْ شِئتِ كانتْ حَياةُ الخَلْقِ باسِمةً	تفيضُ في جَنَباتِ الخَلْـقِ نُعْماكِ
خُلِقْتِ أُنساً لِعَينٍ ليس يُؤْنِسُها	إلاّ التَفيُّـؤُ في أفيـاءِ مَغْنَـاكِ
ليس الرَّبيعُ وإنْ بَشَّتْ أزاهِـرُهُ	أحْلَى على العَيْنِ مِنْ ريّا مَـزايَـاكِ
ولا العَنادِلُ في الأفنان هـادِلـةً	أشْهَى إلى السَّمعِ مِنْ رنَّاتِ ذِكْرَاكِ
يلهُو النَّسيمُ بِغُصْنِ البَانِ في سَحَرٍ	فما يَهيـجُ فُـؤادي غيرُ مَلْهَـاكِ
قالُوا : عُيونُ الْمَهَا والسِّحْرُ يملَؤُهـا	فقلتُ: كلاّ ، فإنَّ السِّحْـرَ عَيْنَـاكِ
وما الضِّيَاءُ ، ضياءُ الشَّمْسِ إنْ طَلَعتْ	وإنَّما النُّورُ فَيْـضٌ مِـنْ مُحَيَّـاكِ

شفيق جبري ورسالة لم تتم

بقلم : عادل الفريجات



مدخل :

كنت قد تخيرت المرحوم شفيق جبري ، بوصفه علما من اعلام الشعر والادب والنقد في هذا القطر – موضوعا اعد فيه رسالة علمية لنيل درجة الماجستير في الاداب بجامعة دمشق .

وقد انفقت من زمني مالا يقل عن اربعة اشهر في دراسة اثاره وتقصي اخباره والتعرف على ملامح شخصيته ، واقتضى البحث ، بداهة ، ان ازوره في بيته ، في بلودان ، فزرته اكثر من مرة ، وطلبت اليه ان يكتب ترجمة حياته بخط يده ، وان يجيب عن مجموعة الاسئلة التي وجهتها اليه ، ففعل .

ولكن الاقدار شاءت ان ادع هذا البحث ، وأن أرجع الى الادب القديم ، فاحتفظت بالترجمة وبالاحاديث وبما جمعته عن هذا الاديب في اضبارة خاصة ، لعلي – اذا ما اتيح لي الوقت الكافي اعد بحثا وافيا عنه في قابل الايام .

واما اليوم فاني انشر ترجمته التي كتبها بخط يده ، وانشر معها الاسئلة والاجوبة التي تمت في ربيع سنة ١٩٧٧ ، محافظا كل المحافظة على امانة الحديث والرواية ، آملا ان يكون في هذا الصنيع شيء من الوفاء لذكرى الفقيد الراحل .

وفي تقديري ان القارئ الكريم سيلمح بين الترجمة والحوار والحواشي (*) ، تواشجا كبيرا يرسم ملامح صورة ما عن حياة هذا الاديب وآثاره .



أولا – الترجمة : بخط يده

ولد في دمشق ليلة الاربعاء في ١٤ شعبان سنة ١٤١٣ للهجرة ، وهو من اسرة عريقة في التجارة ادخله ابوه مدرسة الاباء العازاريين في دمشق وهو ابن ست سنين بوجه التقريب .

المدرسة لآباء فرنسيين تدرس العلوم والفلسفة الفرنسية ، ويتولى تدريس العربية رهبان من لبنان ، مدة الدراسة فيها تسع سنين . وقد أكمل دراسته وحصل على الشهادة الثانوية .

تدريس العربية فيها ضعيف ، فقد يحسن الرهبان الموارنة تدريس الصرف والنحو اما تدريس الادب على اصول حديثه فلا اثر له .

لاحظ احد رفقائه (١) في المدرسة ضعف تدريس الادب فنصح له ان يطالع كليلة ودمنة وديوان المتنبي وكتابات الشيخ ابراهيم اليازجي .

خرج من المدرسة سنة ١٩١٣ فسافر الى يافا حيث كان اهله لاشغال خاصة . وفي أواخر سنة ١٩١٣ سافر الى الاسكندرية للراحة فاقتنى ديوان المتنبي وعكف على مطالعته ثم عاد الى يافا سنة ١٩١٤ ، فوقعت الحرب الكبرى فانقطع عن كل عمل وانصرف الى مطالعة كليلة ودمنة وديوان المتنبي ولما رجع الى دمشق مع اهله في اواسط سنة ١٩١٨ توسع في المطالعة ، فطالع العقد الفريد وكتب الجاحظ وابن خلدون وحفظ بعض المعلقات وانصرف الى ديوان البحتري .

من هذا النمط من المطالعة تمكن من سهولة التعبير والبعد عن التعقيد وسال في شعره الى البيان العربي الاصيل سنة ١٩١٧ تعرف الى الشاعر الكبير خير الدين الزركلي في دمشق وقويت الصداقة بينهما ، ونشر اول قصيدة في رثاء تاجر كبير في دمشق (٢) صديق والده مشهور بحسن الاخلاق والكرم. ثم نشر قصيدتين اقتبس احداهما من الفرنسية وعنوانها : الزمان . واقتبس الثانية من المنفلوطي وعنوانها :خيال الغد .

وفي سنة ١٩١٨ دخل الجيش العربي دمشق والفت اول حكومة عربية فعين في دائرة المطبوعات لمراقبة الصحف ثم انتقل الى وزارة الخارجية فكان فيها سكرتير الوزارة . وفي تموز سنة ١٩٢٠ دخل الجيش الفرنسي سورية فالفت اول حكومة كان وزير المعارف فيها محمد كرد علي فوقع اختيار الوزير عليه ليكون رئيس الديوان نظرا لاتقانه الفرنسية والعربية .

وفي اثناء وجوده في وزارة المعارف كان ينشر القصائد الوطنية مرة يدعو فيها الى وحدة سورية ولبنان ، ومرة يعبر فيها عن الشعور الوطني في البلاد (٣) وقد تولى وهو في الوزارة تدريب المعلمين والمعلمات على الانشاء ، فكان يدربهم على اصول حديثة تعلمها في مدرسة الاباء العازاريين .

ثم أنشأ الفرنسيون مدرسة عليا للاداب ، (٤) ، فوقع اختيارهم عليه ليكون مديرها ، فتردد في اول الامر حتى اوشك الفرنسيون ان يقلعوا عن انشاء المدرسة ثم قبل ان يكون مديرها ، وكان يدرس فيها ساعة في الاسبوع ، فألف كتاب المتنبي ، وكتاب الجاحظ ، ثم أغلق الفرنسيون المدرسة خوفا من اتساع نفوذها بحسب ما قاله احد اصدقائه المطلعين (٥)

وفي سنة ١٩٣٤ الغى الفرنسيون وظيفة رئيس الديوان فتقاعد عن العمل وانصرف الى المطالعة ونشر مقالات وقصائد في الصحف يغلب عليها الروح الوطنية .

قصائده اكثرها في الثورة ، وفي موضوعات وطنية ، فاذا توفي احد المشهورين من امراء العرب او شعرائهم او رجالاتهم كان يرثيهم . فقد رثى الملك فيصل (الاول) وسعد زغلول ، وفوزي الغزي ، من رجالات دمشق ، واحمد كرد علي من رجالات الصحافة ، كما رثى شوقي وحافظ والمنفلوطي ، وكل مراثيه فيها روح وطنية . وهو لم يطبع ديوانه حتى اليوم .

اما نثره فقد يعثر في بعض صحف دمشق وخاصة القبس والايام ، وفي بعض المجلات وخاصة مجلة المجمع العلمي العربي والثقافة ومجلة الحديث في حلب ونثره اكثره في موضوعات ادبية ولغوية ووطنية ، وهو لم يجمع بعد فهو مبعثر في الصحف والمجلات .(٦)

اما انتاجه الادبي فبعد خروجه من وزارة المعارف عاد الى الجامعة السورية بعد جلاء الفرنسيين ، فعين عميدا لكلية الاداب سنة ١٩٤٨ وبقي فيها احدى عشرة سنة ، اصدر في خلالها كتابه : دراسة الاغاني ، ثم سافر الى الولايات المتحدة فألف كتابه ارض السحر ، وهو وصف هذه الرحلة وفي اثناء وجوده في كلية الاداب ، دعاه معهد الدراسات العالية في القاهرة لالقاء بعض المحاضرات فألف محاضرات جمعها في ثلاثة كتب : انا والشعر ، انا والنثر ، محمد كردعلي وهذه هي كتبه المطبوعة :

١ ـ المتنبي (٧)
٢ ـ الجاحظ (٨).
٣ ـ العناصر النفسية في سياسة العرب (٩)
٤ ـ بين البحر والصحراء (١٠)
٥ ـ ابو الفرج الاصفهاني (١١).
٦ ـ دراسة الاغاني (١٢)
٧ ـ انا والشعر (١٣).
٨ ـ آنا والنثر (١٤)
٩ ـ محمد كرد علي (١٥)
١٠ ـ ارض السحر (١٦)

الكتب المخطوطة :

١ ـ احمد فارس الشدياق (١٧) .
٢ ـ محاضرات ومقالات .
٣ ـ ديوان شعر : نوح العندليب (١٨)

الشعراء الذين اشتهروا في سوريا وفي مقدمتهم خير الدين الزركلي وفؤاد الخطيب وبدوي الجبل وخليل مردم وعمر ابو ريشة وانور العطار وبدر الدين حامد وعمر النص وغيرهم.

اما في لبنان فكانت صلتي ببشارة الخوري وامين نخلة . واما في العراق فكانت صلتي بالشيخ رضا الشبيبي والزهاوي والرصافي .

واما في مصر ففضلا عن الشاعرين العظيمين شوقي وحافظ تعرفت الى بعض الشباب ، ناجي وطه صالح جودت .

هذا ما بقي في ذهني واعظم شيء في الشعر بحسب اعتقادي انما هو روح الشاعر فالشاعر الذي لم يخلقه الله شاعرا لا يمكن ان يعد في الشعراء ولو نظم ، فكل واحد يستطيع ان ينظم ولكن كل واحد لا يمكن ان يكون شاعر (١٩)

ولا اريد في هذه المناسبة ان اشير الى الشعراء الذين خلقهم الله شعراء ، والى الشعراء الذين نظموا ولم يخلقوا شعراء حتى لا اسيء الى احد .

ثانيا : الحوار :

في بلودان وتحت ظل شجرة وارفة ، يمتد الافق امامنا فسيحا بعيدا، تحجز رؤيته بوضوح سحب ضبابية ناعمة . جلست الى اديب الشام الكبير . قدمت نفسي ، وقلت له أنوي ان اعد رسالة علمية عنكم فهل تسمحون ببعض الاسئلة التمهيدية لها ؟

ج – بكل سرور .

س – هل سبق ان اعد احد الطلبة بحثا علميا عنكم ؟

ج – لا ، وان كان قد حصل فلا اعلم به .

س – استاذ جبري عرفت كتبكم المطبوعة ، وقرأت العدد الاكبر منها ، واتصلت بأصحابك ومعارفك بدمشق ، ورسمت خطة للدراسة ، سأطلعك عليها ، لا ارى ما تقول فيها (واطلعته على الخطة) وكان ان اقترح ان يكون المخطط للبحث فيه على النحو التالي :

آ – خلاصة الترجمة . (وهنا ذكر لي انه صحح تاريخ ميلاده ، برسالة بعث بها الى الدكتور شكري فيصل امين المجمع العلمي واصبح هذا التاريخ ١٤ شعبان ١٣١٤ هـ). وقد طلبت منه ان يكتب لي الترجمة باختصار ففعل ، وقد مر بها القارى قبل قليل .

ب – التكوين الادبي والثقافي .

ج – مقابلة بين اسلوبه واسلوب القدماء .

هـ – طريقته في الدراسة وتحليله للكتب . وخاصة (الجاحظ – المتنبي – محمد كرد علي) .

س – لك كتابان هامان هما : انا والشعر، وانا والنثر .

ج – هذان يعدان بمثابة قصة ادبية او هما بوح باسرار نظمي ونثري .

س – فيما يتصل بنشرك ما هي الجرائد والمجلات التي كنت تنشر فيها مقالاتك وآراءك ؟

ج – جرائد العهد الوطني الاول وهي :

١– المقتبس للاستاذ محمد كرد علي .
٢ – القبس لنجيب الريس .
٣ – الايام لنصوح بابيل .
٤ – جريدة المفيد لخير الدين الزركلي .

واكثر هذه المقالات مقالات سياسية واجتماعية .

اما المجلات فهي :

١ – الثقافة : لصاحبها احمد امين – القاهرة .
٢ – الحديث : لصاحبها سامي الكيالي – حلب .
٣ – مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

واكثر هذه المقالات يتناول شؤون الادب واللغة .

س – انت عضو في مجمع اللغة العربية بدمشق ، فمتى حزت شرف هذه العضوية ؟

ج – في عام ١٩٢٦ عينت عضوا في المجمع وفي هذه السنة بالذات توفي والدي في فلسطين ، وكان يعمل بالتجارة والمعروف ان كل اسرتنا تعمل بالتجارة .

س – هل تسمح بأسئلة شخصية ؟

ج – نعم – تفضل .

س – في هذا البيت الرائع لا اجد احدا غيرك ؟ وعلمت ممن يعرفونك جيدا انك لم تتزوج ؟ فلماذا يا استاذ جبري ؟

ج – يمكن ان ارجع سبب عدم زواجي الى ما يلي :

١ – نشأتي في مدرسة العازارية ، وهي مدرسة اساتذتها رهبان .
٢ – كنت اخشى عدم التوافق ، او خيبة الامل في الزوجة او الاولاد .
٣ – وانا صاحب مزاج لا يحب الاسر (٢٠) .

س – وهل تعتقد ان الزواج اسرا ؟

ج – على العموم ، لا ، ولكن في كل الاحوال لست نادما .

وحصل شيء من الصمت والتأمل قطعته بطرحي السؤال التالي :

س – هل تعود الى جو الشعر والادب ؟

ج – كما تشاء .

س – كنت تدرس في كلية الاداب بل كنت عميدا لها ، فمن هم زملاؤك في قسم اللغة العربية آنئذ ؟

ج – اذكر منهم امجد طرابلسي ، سعيد الافغاني ، شكري فيصل .

س – انت لم تطبع الديوان ، فيما اعلم وتصعب دراسة شعرك دون ان يكون كل الديوان بين يدي الدارس . ومع ذلك قرأت في كتاب (٢١) للدكتور جميل صليبا رأيا له فيك ، فحواه انك تمثل المذاهب الاتباعي ، (الكلاسيكي في الشعر المعاصر ، فماذا تقول ؟)

ج – كتاب صليبا ، او رأيه لم اسمع به ، ولكن انا فعلا من الشعراء الكلاسكيين

س – ماهو رأيك في احسن قصائدك ؟

ج – لا يوجد تفاوت في قصائدي ، وفي شعري تماسك متماثل . ولكن القصائد الاولى ليست من روح القصائد في المرحلة المتأخرة (٢٢).

س – يقال انك تأثرت بالزركلي (٢٣) فما رأيك ؟

ج – لم أتأثر بالزركلي ، بل كنت اعجب بقصائده فاعارضها ، المتأثر بالشاعر

يجب ان تظهر عليه روحه ، انك تأثرت بالمتنبي والبحتري وابي تمام ،فهؤلاء هم عناصر التكوين ، اما الزركلي والشبيبي والخطيب فلم يكونوا عناصر تكوين . فقد كانت الطوابع العامة للقدماء قد رسخت في فكري وطبعي (٣٤).
س ـ ما هي اخر قصيدة نشرتها ؟ وأين ؟
ج ـ اخر قصيدة نشرتها (ايار ١٩٧٧) هي مناجاة البحتري . في المجلة العربية التي تصدر بالرياض ، ورئيس تحريرها صديق لي اسمه الدكتور منير العجلاني .
س ـ لم يمض على وفاة الزركلي زمن طويل فهل رثيته ؟
ج ـ لا لم ارثه لان الشعر لايقوى على حمل ما اريد ان اقول فيه .
س ـ قيل لي انك كنت تحب اناتول فرانس؟
ج ـ نعم هذا يعد من اكابر كتاب فرنسا عبارته سهلة ، وقد تأثرت به حقا .
ونشرت في مجلة الميزان لصاحبها احمد شاكر الكرمي مقالات مترجمة عن اناتول فرانس .
س ـ لنعد قليلا الى الوراء ، ماهي اول جريدة نشرت فيها ؟
ج ـ اول جريدة ـ وليست مجلة ـ نشرت فيها هي جريدة المهذب لصاحبها الخوري بولس الكفوري وكان ذلك سنة ١٩١٤ .
س ـ استاذ جبري انك لك اسهامات كبيرة في النقد والدراسات النقدية ، وقد توليت الكتابة في باب التعريف والنقد في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ردحا من الزمن ـ فأين تضع نفسك بوصفك ناقدا ؟
ج ـ انا انظر الى محاسن الكتاب اكثر من نظري الى مساوئه (٣٥).
وكان سؤالي الاخير :
س ـ هل تسمح بالاطلاع على الديوان ؟
ج ـ لا مانع .

وذهبنا معا الى مكتبته ، وفتح لي آنئذ حقيبة بنية اللون كان الديوان بداخلها . فاطلعت عليه ، وكان فيه ، (في ايار ١٩٧٧) حوالي / ٦٨ / ثماني وستين قصيدة ، ولو طبع فسيكون عدد صفحاته حوالي / ٣٠٠ / ثلاثمائة صفحة على وجه التقريب .
كانت القصائد فيه مرتبة بحسب موضوعاتها وهناك قائمة ذكر فيها الشاعر اسماء القصائد وتاريخ نظم كل منها . وهي التي عرفتني بمجموع قصائد الديوان .
ان اكثر القصائد قرضت في رثاء العظماء من شعراء وادباء وزعماء ، وقد جمعها تحت عنوان (شعر العبقرية) (٣٦).
وكانت لديه مجموعة من القصائد لم ينشرها هي : مناجاة الشمس ـ الشهيد ـ اباطيل التاريخ ـ سلطان الشعر .
ومن الجدير بالذكر قوله لي ان هناك بعض الابيات التي تصور نفسي ، بل هي صورتي النفسية ، واود ان اثبتها في اول الديوان . وعددها خمسة أبيات ، منها قوله :

تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم
ترى عبسهم بشرا وبشرهم عبسا
فما الفت بالليل بارقة الدجى
ولا هي ناغت في رفيف الضحى الشمسا
ومالي وما للناس ابغي وصالهم
فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا
(٢٧)

ولكن الموت الذي قطع صلة جبري بالناس ، لم يبتها بتا ، وانى له ذلك ؟ وهو المؤلف والباحث والاديب والشاعر .
فطلاب العلم ، ودارسو الادب والمهتمون بنهضة هذا القطر الادبية لامناص لهم من مد خيوط الاتصال بآثار الشاعر والاديب والناقد شفيق جبري ، هذا الذي احدثت وفاته وقعا اليما لدى اهله واصدقائه واصحابه وطلابه .
وشكلت خسارة كبيرة في دنيا العلم والادب والشعر .

الهوامش :

(١) رفيقه هذا هو المحامي جرجي الريس .
(٢) يقول فيها :
اودى المنون بواحد الاحاد
وعدت على ربع الكرام عواد
والدهر يعثر بالكرام وقلما
عثرت صروف الدهر بالاوغاد
شلت يد الاحداث كيف تخرمت
شرخ الشباب ونضرة الاعواد

والشاعر ينقد نفسه في هذه القصيدة ، ويقر بتقليده للشريف الرضي ، ويعترف بصبغتها العامة بحيث يمكن ان تقال في كل واحد ميت ، (انظر انا والشعر ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٥ ـ ٦ ـ ٧) . وهذا النقد الذاتي يدل بوضوح على الروح الموضوعية التي كان شفيق جبري يتحلى بها .

(٣) كان جبري يرى ان الادباء من كتاب وشعراءهم اساتيذ الوطنية فهو يقول في كتابه (بين البحر والصحراء ص ٩٢):
" فان اساتيذ الوطنية انما هم الكتاب والشعراء لانهم يستطيعون وحدهم ان يتغنوا بوطنهم وان يعلموا الناس محبة اشكال هذا الوطن والوانه وان يحملوهم على ذوق محاسن هذه الاشكال والالوان ، وعلى ما به فكل وطنية مجردة مه هذا الحنو ، منسلخة من هذا التقديس انما هي وطنية فارغة ، وعبثا يحاول السياسي ان يدعي هذه الوطنية فمهما تكن اساليبه في هذا السبيل بارعة فان وطنيته لا تكون صحيحة الا اذا كانت مبنية على محبة ارض ابائه واجداده ، انا لاندفع الاجنبي عن ارضنا الا اذا اشربت قلوبنا محبة هذه الارض ، وتسلسل هذا الحب احقابا طويلة ، ولا يحسن افراغ هذه المحبة على قلوبنا مثل الكتاب والشعراء ، فهم القادرون على تصوير محاسن الوطن ، وهم القادرون على قذف محبته في نفوسنا ، فلنقدس الادب اذا اردنا تقديس الوطن ، وانظر ايضا مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٩ - ص ١٧٠ .
ويضيف جبري قوله : (انا والشعر - ص ١٥) .
" فالنزعة الاولى من نزعات الشعر الذي مارسته كانت نزعة وطنية " .
ومن اجل تفصيلات اكثر انظر فصل الشعر الوطني في كتاب جبري انا والشعر - القاهرة ١٩٥٩ . ومما يذكر ايضا ان الدكتور جميل صليبا اثبت في كتابه ، اتجاهات النقد الادبي الحديث في سوريا (القاهرة ١٩٦٩ - ص ٥٩) قول جبري له :
" اننا معشر اهل الشام نفضل الشعر الذي عليه آثار القومية واثار الوطنية لاننا في غلاب ونضال " .
وقوله ايضا : " امانحن الان في دمشق فلا يرضينا الا النفحة الوطنية في الشعر قد نكون على حق ، وقد نكون على باطل، ولكن هذا هو الامر الواقع " .
(٤) كان ذلك في سنة ١٩٢٩.
(٥) اخبرني جبري ان الدكتور انور حاتم هو الذي قال له : ان المدرسة اغلقت خوفا من تأثيرها وتأثيرك .
(٦) يتحدث جبري عن طريقة تكون اسلوبه النثري الذي كان نتاج ثقافته العربية والفرنسية فيقول: (انا والنثر ص ١٦٥ ،
" لقد اتتني هذه الاصالة في الاسلوب على ما اعتقد من تنوع الكتب التي قرأتها ، ومن تنوع اساليب هذه الكتب فقد اخذت اشياء كثيرة من بلغاء الكتاب دين العرب كابن المقفع والجاحظ وابن عبد ربه والثعالبي وابن خلدون ومن هم في طبقاتهم ، ثم اضفت اليه ما اخذته عن بلغاء الكتاب من الافرنجة مثل فنلون وبوتشكيو واناتول فرانس ولوتي وغيرهم ومن هم على طرازهم ، فاجتمع هذا كله في روحي فاختلطت عناصره ، وتزاوجت اجزاؤه ، واتحدت جملته ، فنشأ عن هذا الاختلاط وهذا التزاوج وهذا الاتحاد اسلوب خاص بي عرفت به وعرف بي والذين فاتحوني بشأن هذا الاسلوب قالوا لي : انه اسلوب مطبوع بطابع الوضوح والسهولة والبساطة مع المحافظة على روح اللغة وعبقريتها " .
(٧) المتنبي دمشق ١٩٣٠.
(٨) الجاحظ دمشق ١٩٣٢ والقاهرة ١٩٤٨.
(٩) العناصر النفسية القاهرة (سلسلة اقرأ) ١٩٤٥ .
(١٠) بين البحر والصحراء القاهرة - سلسلة اقرأ ١٩٤٦ .
(١١) ابو الفرج - بيروت ١٩٥٥ وط ٣ في القاهرة ١٩٦٥ .
(١٢) دراسة الاغاني - دمشق ١٩٥١ .
(١٣) انا والشعر. القاهرة ١٩٥٩
(١٤) انا والنثر . القاهرة ١٩٦٠
(١٥) محمد كرد علي القاهرة ١٩٤٧.
(١٧) تناهى الي انه كان يعد هذا الكتاب للطباعة قبل وفاته باشهر ، بناء على طلب احدى دور النشر ، ولا ادري فيما اذا كان قد انجزه ام لا ؟ وافادني ايضا انه انتوى تأليف كتاب بعنوان : انا والناس ، ولكنه الان صرف النظر عنه .
(١٨) يكشف جبري عن قصة عنوان الديوان في كتابه انا والشعر . ص ٢٤ . بقوله :
" لقد كنت جالسا في غرفتي في يوم من الايام من ايام الربيع سنة ١٩٢٤ وكان فيها شباك يطل على بستان وكانت العنادل تغرد على الاغصان للتعبير عن ابتهاجها بالربيع وكنت في تلك الايام واقعا في أزمة عاطفية شديدة ، فهاج الشعر في صدري ، فنشأت عن هذا الهيجان قصيدتي : نوح العندليب .
وفي هذه القصيدة يخاطب الشاعر العندليب بقوله :

فيالك من ممعن في الحنين
الم يشهد الناس امعانه
أتبكي العنادل اوطانها
ولا يندب المرء اوطانه

وضيف جبري (انا والشعر ص ٢٥) :
والحقيقة اني لم اعن بوح العندليب ، وانما عنيت بنوحي ، ولم اتغن باشجانه ، وانما تغنيت باشجاني ، "وقد شاعت

قصيدة جبري هذه في اكثر بلاد العـربـه ، كما يقول . والحقيقة ان الكآبة كانـت تسم مزاج الشاعر الراحل ، ونحن لانزعم هذا زعما ، فقد اقر هو به حينما قارن بين مزاجه ومزاج ابراهيم ناجي، يقـول جبري (انا والنثر ، ص ١٧٢) :لايغضبن علي الدكتور ناجي ، فالكرب الذي طبع عليه قد طبع علي مثله كثيرمن النـاس ، وانامنهم .." وانظر ايضا كتاب :محمد البزم ، شاعر العربية ونحويهاللدكتور ابراهيم الكيلاني .. دمشق .(بلا تاريخ، ص ٢٣٦) .

(١٩) كان جبري يرى الشعر ابن الطبـع وليس ابن التكلف ـ (انا والشعـر ـ فصل سحر العبقرية) .

وكان يشدد كثيرا على الروح الشعريـة ، ان الشعر في اي عصر كان لايعيبه انـه رثاء او مديح او احياء ذكرى ، وانمـا الذي يعيبه خلوه من الروح الشعريـة ، ومن ادوات الشعر كالخيال والحس والذوق والفكر وما شابه ذلك ." ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المجلد ص ٣٦٦.

وكأني بجبري يود ان يعبر عن شيء فـي الشعر يكاد يقترب من السحر ، فلا يعـرف كنهه ، ولا يجد المصطلح المناسب لـه ، لذا نراه يقر بأنه لم يبلغ الغاية في الكلام عليه ، فيقول :

(انا والشعر ، ص ١٠٩ ـ ١١٠) : ان في الشعر سرا روحانيا يدركه الـذي يزاوله ، ولا يدركه الذيلا يزاولـه وهذا السر الروحاني هو الذي يجعل الشعر يهز النفوس ، ويحرك الطباع ".

وقد ترددت فكرة ان الشعر طبع وموهبـة ووحي والهام في اكثر كتبه فها هـو ذا يقول في كتابه : المتنبي ـ مالىء الدنيا وشاغل الناس ـ ص ٥٢ فما بعد : " من هذا كله تستخلصون ان الشعر قد ركب فـي الطبع وامتزج بالنفس ، فالطبع هـو العامل الاكبر في الشعر ، ولعمري كيـف يكون الشاعر رقيقا اذا قدت طبائعه من الصخر ، ونحت قلبه من الحجر ، امكيف يكون ظريفا اذا نشأ على الغلظة والفظاظة وطبع على فتور الذهن وجمود النفـس ، فالناس كلهم يستطيعون ان يتكلفوا الشعر وما كل شعر يقولونه خالد على وجـه الدهر فاذا لم يكن ، الشعر ابن الوحي والالهام ذهب جفاء ولم يمكث في الارض .

وكرر هذه الفكرة في كتابه ـ انا والنثر ص ١٤٥ . اذ قال : " ان الانسان اذا لم يخلق شاعرا فلا تنفعه معرفـة الاوزان والعروض والقوافي ".

(٢٠) في كتابه ارض السحر ص ١٥٩ يـروي جبري : ان شابا اسمه جورج كان ينـزل في ضيافته وضيافة امه في (سـان فرنسيسكو) سأله عن الزواج فأجابـه جبري ذاكرا الحقيقة :" اني غلطت فـي حياتي غلطة فخطبت ، ثم تبين لي ان الفتاة واهلها غايتهم في هذا الـزواج المال وحده ، فصحوت وملصت .."

ـ ولكن الباحث قد لايقنع بما سبق مـن اسباب ويمكن ان يتحرى هذا الامر فـي وقائع وظروف اخرى ، منها على سبيل المثال ان جبري كان ولعا بأمه ، وربما كان في سبب احجامه عن الزواج احسـاس لا شعوري بان هذا الزواج سيعكر عليه حب امه ، او يعكر علىامه حبها له ..

وبعبارة اخرى :"ربما كانحبه لامه يغنيه عن حب الزوجة اوالتفكير في الـزواج ، بشكل جدي وحاسم ، وقد تحدث الشاعـر، عن علاقته الخالصة هذهفقال فيكتابـه (انا والشعر ـ ص ٤٥) :

" اني لم احباحدا في حياتي مقدار حبـي لامي ، ولقد شغل حبها كل ناحية مـن نواحي قلبي ، كانت ملء هذا القلب كله لا تكاد الدنيا وزينتها تعدل جزء مـن هذا الحب ، وقد بلغ من ولعي بها انـي كنت لا استطيع ان افاتحها بهذا الواقع ، وقد كانت تشعر به ، كانت معاملتي لهـا الدليل القوي على عمق عاطفتي ، ولقـد كانت تبادلني بمثل هذه العاطفة فكانـت ترى الدنيا كلها في وكنتارى الدنيـا كلها فيها ، حتى توفاها الله ليلـة الثلاثاء في ١٠ ايلول سنة ١٩٥٧ .

وقدقال في رثائه لها :

امي ولست ارى في الارض قاطبـة
اعز منك على الاسماع والبصـر

ناديتك اليوم ، لا حس ولا خبـر
فأين منك الحس والخبـر

غادرت في القلب جرحاكلما هدأت
آلامه اتقدت في القلب كالشـر

لوتسمحين جعلت القبر متكئـا
لرأسك الطهر في الظلماء والحذ

(٢١) انظر، محاضرات في الاتجاهـات الفكرية في بلاد الشام واثرهـا فـي الادب الحديث لجميل صليبا ، (القاهرة ١٩٥٩ ـ ص ٢١٧) ويمثل المؤلف الاتجـاه جبري هذا بقصيدته في المتنبي ومنها :

فجر الحرب بالمداد دمـاء
فتلاقت دماؤهـا ـ ومـداده

فترى الجو ملهبـا من لظاهـا
وترى الافق مائجا بالسـواده

وتحس الدماء تقطر من جانـب
سيف تندى بهـا اغمـاده

وتظن الجريح اودى به الجـرح
ونادى من الوجـاع ضمـاده

ويعلق عليها بقوله : " ففي هذه القصيدة

الرائعة معان صادقة ، وتصوير عجيب ، وجرس موسيقى اخاذ ـ تشعر عند قراءتها انك تقرأ شعر البحتري او شعر ابن الرومي ، او شعر المتنبي نفسه ".

(٢٢) يستنتج الدارس تاريخ ابتداء جبري بنظم الشعر من خلال حديث له مع معروف الرصافي عن قصيدته التي نظمها عام ١٩١٩ ومطلعها :

وثب الردى والليل لائل
يطوي المعالم والمجاهل

يسأله الرصافي : متى شرعت في نظم الشعر ؟ فيقول له من ثلاث سنين . فلا يصدق الرصافي ، ويقول : " ان هذا الشعر لايتأتى لصاحبه الا بعد عشر سنين او خمس عشرة سنة " (انا والشعر ص ٩٦) ولكن الشعر تأتى لصاحبه حقا ، وله من العمر ثماني عشرة سنة ، اي في سنة ١٩١٦ .

وقد كان شاعرنا في اول عهده يعارض الاقدمين ، الا انه فيما بعد " اصبح لا يعمل شعرا الا منقادا الى الهامه وحده لا يخطر على باله شعر شاعر ، لا من المتقدمين ولا من المتأخرين . " انا والشعر ص ٩٢ . وهو لم يكن يفكر في البدء في تنسيق او تنقيح ، ولكنه في سنة ١٩٥٩ صار يقضي في نظم القصيدة وتنقيحها مدة اقلها شهرا او اربعون يوما حتى يتوثق من القصيدة " (انا والشعر ص ٩٣).

(٢٣) قال احمد شاكر الكرمي عن جبري: ان شقيق جبري شاب متناسب الاسلوب في شعره ونثره ، ينتقي الفاظه ويعني برصفها يقلد بذلك خير الدين الزركلي ويسير على سننه . وفي ظني انه سيصل في عالم الادب العربي الحديث الى مرتبة يحسد عليها . " احمد شاكر الكرمي ـ مختارات من اثاره ـ منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٤ ص ٩٢ .

وقد صحح جبري للكرمي ، حكمه فيه قال: " فلو قال الكرمي انه يهزني شعر خير الدين فيثير الشعر في خاطري لكان قوله اقرب من الحقيقة " (انا والشعر ص ٩٣)

(٢٤) يؤكد جبري انه كان مولعا بالقدماء وبالتراث العربي ، حيث لم تسحر لبه ثقافة الغرب فتجعله ينحرف عن معنى الاصالة . فهو في خطابه الذي استقبل فيه منير العجلاني عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق يقول : انه " مولع بالمتقدمين " وعلى الرغم من تزوده باليسير من ادب الغرب فانه لا يعق الذين اورثوه ادبهم ولغتهم ، انظر المجلد ٢٦ من مجلة المجمع العلمي ص ٤٤٩ ـ ٤٥٧ .

(٢٥) الحقيقة ان جواب جبري هنا كان مقتضبا . وهو في تضاعيف كتبه النقدية يبدو ناقدا اميل الى النقد الموضوعي . يقول في كتابه انا والنثر : " كنت أجد لذة في الاعراب عن رأيي الخاص الى جانب اعراب المؤلف عن آرائه . ولم أكن شديدا في النقد ، بل ربما ملت الى المسامحة اكثر من ميلي الى العنف ، كنت أظهر محاسن الكتاب اكثر من اظهاري لمساوئه . فاني اري ان فائدة النقد في نشر المحاسن تفوق فائدته في نشر المساوىء " (انا والنثر . ص ١٣٤)

ومن الجدير بالذكر ان جبري كان يرى في الادب الهية ، ولكنه الهية ممتعة ومفيدة ويشرح المرحوم جبري فكرة ان الادب الهية في معرض تعريفه ونقده لكتابي المطالعات والمراجعات للعقاد هذا الذي يهاجم صديق جبري اناتول فرانس لآرائه في سهولة الفن .

ويرى جبري ان العقاد اساء فهم اناتول فرانس او فسر آراءه بما يناسب معتقداته ويذهب الى ان الذين خلدوا في ادبنا انما هم الكتاب والشعراء الذين سهل فنهم . ومما يقوله " وانما خلد المتنبي لسهولته " ولا شك ان هذا الرأي قابل للنقاش . ولعل مناقشته ستكون في مقام اخر ـ انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المجلد ١٩ ص ٥٤٩ ـ ٥٥٥ .

ولكن جبري الناقد كان يدرك طبيعة العمل النقدي الخلافية فهو يقول في كتابه دراسة الاغاني : (دمشق ١٩٥١ . ص ٣٠٤) : " ومهما نشأ ان نضع قواعد عامة في النقد فقد تكون قاعدة هذا الاختلاف اعم القواعد .لان لكل ناقد رأيا خاصا وذوقا خاصا وشعورا خاصا . ومن الصعب ان نرى اجماعا في امور الفن يشبه الاجماع في امور العلم فاذا قدمنا هذه المقدمة فما ينبغي لنا ان نلوم ابا الفرج وغيره من رجال النقد على تفضيل شاعر من الشعراء على غيره من نظرائه . وقد يكون للنقد في عصر من العصور قواعد يجمعون عليها ولكن الشذوذ عن الاخذ ببعض هذه القواعد امر لابد منه لاختلاف الامزجة والطبائع والنظرات الى الحسن والقبيح وما شاكل هذا كله ".

ولكن هذه الحرية التي يبيحها جبري لا يدعها حرية مطلقة فهو يشترط في النقد التعليل فحينما وصل الى رأيي ابي الفرج الاصبهاني في قصيدة لابن هرمة فحواه : انها منفاخر الشعر ونادر الكلام ومن جيد شعر ابن هرمة خاصة قال مؤلف دراسة الاغاني : " فهذا نقد مجرد لاتعليل فيه " .

وهو لم يشأ ان يكون النقد فوضى" بحيث

يستطيع كل من يمسك بيده القلم ان يحكم
على شاعر او كاتب حكمه الذي يمليه
عليه ذوقه . ولهذا كان هم النقاد في
كل العصور تقييد النقد حتى لا يكون
فوضى ، وحتى يكون للناس قواعد عامة
يصطلحون فيها على محاسن الفن ومقابحه
على قدر الامكان ." مجلة المجمع العلمي
العربي بدمشق – المجلد ٢٢ ص ٤٤٩ .
وخلاصة الموقف النقدي عند جبري انه
كان اميل الى التأثرية ، وقد وصفه
لطفي جمعة بانه (سانت بيف) العرب ،
ولكنه بوصفه استاذ ادب ، كان من حين
لاخر ، يخرج من دائرة النقد الذاتي الى
دائرة النقد الموضوعي . " فان استاذيته
حملته على تحليل الاعمال الادبية تحليلا
موضوعيا . وهكذا استطاع ان يجمع بين
الذاتية والموضوعية في وزن واحد
منسجم ، " انظر د . صليبا ، جميل :
اتجاهات النقد الادبي الحديث في سوريا ،
القاهرة ١٩٦٩ – ص ١٩٤ .
وأضيف : اني لم اقل كل شيء عن جبري
الناقد ، اذ له آراء في الشعر والنقد
والاسلوب والالفاظ والتراكيب والقصة
والترجمة ، والقصيدة وبنائها ، تحتاج
الى جمع وتمحيص وتنسيق وتأليف ، وحري
بدارس جبري ناقدا الا يغفل عن " مسألة
الالفاظ " تلك التي اولع بها اشد الولع ،
وفتن بحياتها – (انا والنثر ص ١٤٨) .
ونظر اليها على انها "سر الشعر وروحه"
(انا والشعر ص ٩٣) . وخصها بمقالات
كثيرة كانت تتصدر اعدادا من مجلة
المجمع العلمي العربي ، بعنوان :
بقايا الفصاح ، واكثر من الاشارة الى
حبه لها في مواضع شتى من آثاره .

(٢٦) يفخر الشاعر بمراثيه ، وقد نظر
اليها على انها " تصاوير بطولة من
البطولات ، او وطنية من الوطنيات ،
او زعامة من الزعامات ، او عبقرية من
العبقريات ، وقال : " وأي نقيصة في
تكريم اشباه هذه الامور " انا والشعر ،
ص ٦١ .
وقد رثى شفيق جبري كلا من شهداء ايار ،
ففي عام ١٩٢٠ اقام النادي العربي حفلة
لتأبين هؤلاء الشهداء ، فألقى فيها
الشاعر قصيدة . وكانت هذه المرة هي
المرة الاولى التي يلقي فيها امام
مجتمع عام . وفيها يقول :

دمشق الشام هل نفذ القضاء
فزلزلت الكواكب والسماء
لقد حل العزاء فلا عزاء
وعز الصبر وانقطع الرجاء
ترادفت الشدائد والرزايا
فلا صبح يسر ولا مساء
ثوي في الظلمة الاجداث قوم
يحل غداة يومهم الثواء
من العرب الذين لهم نفوس
تلازمها المدائح والثناء
بنوا ما لا تطاوله سماء
وما آوى ظلالهم البناء

ورثى الشاعر ولي الدين يكن ١٩٢١ م ،
والمنفلوطي ، واحمد كرد علي صاحب
جريدة القبس ١٩٢٧ . ورثى سعد زغلول ،
في ٣٠ ايلول ١٩٢٧ . واشار في قصيدته
فيه الى قدرته الخطابية حيث يقول :

يامرسل السحر الحلال
يذوب في القول الرصين
ومدبج الخطب الطوال
تفيض من وضح اليقين
في ثورة البحر الخضم
وزأر ضرغام العرين

ورثى فوزي الغزي ١٩٢٨ بقصيدة مطلعها :

لبست دمشق من الخطوب برودا
ومشت على هام الخطوب وئيدا

وفيها يقول في دمشق – ولنتذكر انها
كانت تئن تحت الانتداب الفرنسي :

رفع الشعوب على الحديد قلاعهم
ودمشق ترفع بالرفات حديدا
صمدت لريب الدهر ملء رجالها
لم ترهب التهويل والتهديدا
صحف باحمر قانىء مكتوبة
ضمن الزمان لاهلها التخليدا

وممن رثاهم المرحوم جبري الحسين بن
علي ١٩٣١ ، وحافظ ابراهيم الذي يقول
فيه – سنة ١٩٣٢ :

ستون عاما على كره تعاقبها
هدأت عنها ولم تهدأ عواقبها
غنت قوافيك بالاحزان مائجة
تكاد تنطق من بؤس اغانيها
لو لحنوا البؤس في شعر سيردده
لكان بؤسك الحانا تغنيها

وكما اشتهر حافظ بالبؤس اشتهر شوقي
بالنعيم فذكر جبري ذلك في رثائه له
سنة ١٩٣٢ ايضا :

يا كرمة ذويت فيها امانينا
لا الظل ضاف ولا الافنان تندينا
ما ضاع عمرك الا في مضاحكة
ولا تمليت الا الخفض واللينا
ياعيشة في حمى اللذات فيأها
سكر الهوى والغواني والحلينا

وممن رثاهم الشاعر ، المتنبي ١٩٣٥ في
مهرجانه الذي اقامته الجامعة الاميركية
ببيروت ، والمعري ، وشوقي مرة اخرى
سنة ١٩٥٨ .

(٢٧) كان الشاعر محبا للعزلة مؤثرا
للصمت والتأمل ، وكما تكشف الابيات ،
اعلاه ، عن مزاجه ، كذلك يكشف عنه

قوله عن مرافقه في رحلته الى امريكا ، الدكتور ايلي سالم : " لد كان للدكتور ايلي سالم اثر حسن في نفسي من اول تعرفي اليه ، فقد وجدته هادئا في مظهره ، قليل الكلام ، ولا يزعجني شيء مقدار الثرثرة، " - ارض السحر ، ص ٥١ .

نوح العندليب

شفيق جبري



دع العَنْدَليبَ على غُصْنِهِ ... يُرَدِّدُ على الغُصْنِ أحزانَهُ

فلم أرَ في لحْنِهِ كُلفَةً ... تهجَّنُ - إنْ ناحَ - ألْحانَهُ

لئنْ دوّنَ النّاسُ أشعارَهُمْ ... لقد جعلَ الرّوْضَ ديوانَهُ

وإنْ قيّدَ الوَزْنُ أفكارَهم ... لقد أطلَقَ الشَّدو أوزانَهُ

كتمْتَ الشّجونَ عن العَنْدَليبِ ... فراحَ يبُثُّكَ أشْجانَهُ

وأخْفَيْتَ عنه دُموعَ الجُفون ... وقد بَلّلَ الدّمعُ أجْفانَهُ

فهل شَطَّ عن وُكْنِهِ جارُهُ؟ ... فودّعَ بالنَّوْحِ جيرانَهُ

أم البازُ أوْدَى بخُلاّنِهِ ... فأصبح يندُبُ خُلاّنَهُ

أم الرّيحُ هَبّتْ بأفْنانِهِ ... فزلْزلَتِ الرّيحُ أفْنانَهُ

فيالَكَ من ممعنٍ في الحَنينِ ... ألم يَشْهدِ النّاسُ إمْعانَهُ؟

شفيق جبري شاعر الشام

بقلم: عيسى فتوح

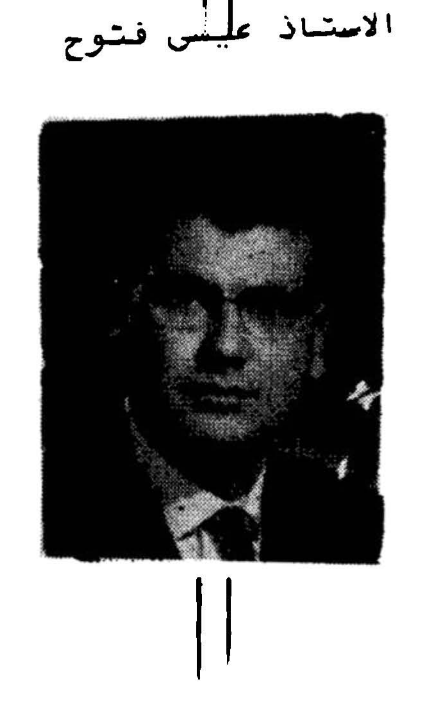
اذا ما احصينا شعراء الكلاسيكية في سورية، برز اسم شفيق جبري في الطليعة، لأن هذا المذهب كان اول ما ساد فيها حتى زمن متأخر، وقد تأثر به شعراء كثيرون منهم خليل مردم، وبدوي الجبل، وشفيق جبري، ومحمد البزم، وبدر الدين الحامد، وخير الدين الزركلي، وسليم الزركلي، وانور العطار، وعمر ابو ريشة، وعدنان مردم، وعبد الرحيم الحصني، واحمد الجندي وغيرهم ممن آثروا متانة الاسلوب، وجزالة الالفاظ، وقوة التركيب، وجلال المعنى، وساروا على منهج القدماء في صورهم وتعابيرهم واخيلتهم، وطغت عليهم النزعة الوطنية في اكثر ما نظموا.

لقد انصرف جميع هؤلاء الشعراء الى نظم الشعر العمودي، ولم ينازعهم النثر، ما عدا خليل مردم، وشفيق جبري، اللذين امتلكا ناصيتي الشعر والنثر معا، فألف شفيق جبري عشرة كتب هي: الجاحظ معلم العقل والادب. المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، دراسة الاغاني، بين البحر والصحراء، العناصر النفسية في سياسة العرب. ابو الفرج الاصفهاني، ارض السحر، انا والشعر، انا والنثر، محاضرات عن محمد كرد علي بالاضافة الى عدة محاضرات عن احمد فارس الشدياق، ومقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي وغيرها.

اما ديوانه "نوح العندليب" فلم يطبع حتى الان، وقد كلف مجمع اللغة العربية بدمشق الاستاذ قدري الحكيم ليشرف على طباعته بعد ان تسلم المخطوطة.

ولد شفيق جبري في حي الشاغور بدمشق ليلة الاربعاء في ١٤ شعبان عام ١٣١٤ الموافق ١٨٩٨ م (١) ولما بلغ الخامسة ارسله والده - وكان من كبار تجار دمشق - الى كتاب الحي ليتعلم القرآن وحسن الخط، وقليلا من الحساب. وبعد سنة نقله الى المدرسة العازارية في حي باب توما، فمكث فيها تسع سنوات حصل في نهايتها على شهادة ختام الدراسة الثانوية عام ١٩١٣، وكان الاول في صفه فأتقن الفرنسية وعلم النحو على ايدي رهبان المدرسة، كما درس مبادىء اللغة الانكليزية، اما اللغة العربية وآدابها فأتقنها على نفسه، وكان هو بنفسه مدرسة قائمة بذاتها.

رافق والده في احدى رحلاته التجارية الى يافا بفلسطين، فراح يراسل من هناك بعض المقالات الى جريدة "المهذب" في زحلة، ولما سافر الى



الاستاذ عيسى فتوح

الاسكندرية ، عثر في احدى مكتباتها على ديوان المتنبي بشرح الشيخ ناصيف اليازجي ، فاشتراه وراح يلتهمه ويبدو انه حفظ شعر المتنبي واولع به منذ ذلك الحين ، ثم قرأ المعلقات ، والشعر الجاهلي ، وشعر البحتري والشريف الرضي وحين عاد الى دمشق عام ١٩١٨ ، آخذ ينشر قصائده في الصحف ، فلفتت اليه الانظار .

عكف اثناء الحرب على مطالعة اثار ابن المقفع ، وابن عبد ربه وابن خلدون ، والصابي والجاحظ ، فقوي بيانه ، وتعمقت ثقافته ، وازداد علمه ثم رجع بعد ذلك الى الادب الفرنسي وتعلق باناتول فرانس ، فافادته كتبه كثيرا ، وتعلم من هذا الكاتب العبقري وضوح العبارة والفكر والبعد عن الحشو والغموض .

تعلق بالوظائف الحكومية منذ نشأته ، فعمل عام ١٩١٨ مراقبا للمطبوعات ، ثم مترجما فسكرتيرا لوزارة الخارجية ، الى ان انتقل عام ١٩٢٠ الى وزارة المعارف ، فعين رئيسا لديوانها واستمر وهو في هذه الوظيفة ينشر المقالات والقصائد ، فنشأت له قدرة على الشعر والنثر .

وفي عام ١٩٢٦ ، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وحين اسست كلية الاداب في الجامعة السورية عام ١٩٢٨ ، عين استاذا فيها ، فألقى على طلابه عدة محاضرات عن الجاحظ والمتنبي ، استقبلها الادباء في الوطن العربي احسن استقبال ، ثم انقطع عن الوظائف خمسة عشر عاما ، عاد بعدها عميدا لكلية الاداب ، كما انتخب مقررا للجنة الشعر في المجلس الاعلى لرعاية الاداب والفنون والعلوم الاجتماعية اثناء الوحدة بين سورية ومصر ، ولما احيل الى التقاعد من عمادة كلية الاداب عام ١٩٥٨ انزوى في بيته الريفي بمصيف "بلودان" وانقطع الى الكتابة والتأليف وقد اتاحت له هذه الحياة الهادئة البسيطة مع القرويين مزيدا من التأمل والتفكير وراحة الاعصاب ، والخلو الى النفس ، والابتعاد عن ضجيج المدينة ومشكلاتها ، ولذلك امتد به العمر حتى بلغ الثانية والثمانين وتوفي عام ١٩٨٠ م

شفيق جبري شاعر الوطنية :

عرفنا ولوع شفيق جبري بالشعر وهو صغير ، حتى انه نسخ ديوان المتنبي بشرح اليازجي وحفظه ، كما حفظ المعلقات ، واشعار الجاهليين ، وديواني البحتري والشريف الرضي ، ثم نسي هذه القصائد كلها ، وبقي له منها الملكة والذوق ، ولحسن الحظ ان العصر الذي تفتحت فيه عيناه الى النور كان الذوق فيه سليما . وبعد ان تزود من الثقافة العربية الاصيلة ، اخذ ينظم الشعر ، معتمدا بادىء الامر على الاقتباس ، اقتباس الفكرة ، واحيانا اقتباس اللفظ ، سواء اكان ذلك من نظرات المنفلوطي ام من شعر صديقه خير الدين الزركلي ، ام من شعر المتنبي ، ام من الكتاب الاجانب ، وتلك مرحلة لا ندحة عنها في بداية حياة الادباء ، والفنانين جميعا .

اما لماذا اتجه الى الشعر الوطني والقومي بنوع خاص ، فهذا ما يحدثنا عنه في كتابه " انا والشعر " ومقاله " قصة اديب " الذي نشره في الجزء الثالث (تموز) من مجلة مجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ اذ يقول :

" لماذا مارست الشعر وكيف مارسته هذا امر لا ازال اجهله ، وكل ما يخطر ببالي في هذا الباب اني لما تركت المدرسة ، فأجأتنا الحرب الكبرى الاولى ، فجاش الشعر في صدري ، وانا على غير استعداد له ، لأنه يحتاج الى اشياء كثيرة غير الاشياء التي تهبها الطبيعة ، يحتاج الى امتزاج بشعر الكبار من الشعراء حتى يألف الانسان اساليبهم ويتصرف في صورهم ، ولم يتيسر لي في اول الامر شيء من ذلك ، لكن الشعر لما خطر ببالي كان يتصل بالحرب وحوادثها .. ثم انصرفت بعد ذلك الى مطالعة شعر المتقدمين ، فألفت بعض الالفة مناحيهم ، حتى اذا همدت نيران الحرب ، احتاجت البيئة الى تأجيج نيران ثانية ، فسيطرت البيئة علي فلم استطع التملص من تأثيرها ، فجريت في شعري على لهيب هذه النيران ، ولما نشأ شعراء شباب واخذوا يصورون في شعرهم ما يختلج في قلوبهم من مختلف العواطف ، لم يستطع هذا التيار ان يجرفني فبقيت في الزاوية التي قبعت فيها ولا ازال في هذه الزاوية ، فاني اعتقد ان بيئتنا اذا احتاجت الى النزعات الوطنية في الماضي ، فانها في هذا الحاضر اشد حاجة اليها ، فكأن الوطنية والقومية من خصائص أمتنا ، ولا شك في ان من هذه النزعات احياء ذكرى المتقدمين والمتأخرين ، من فحول شعرائنا ورجال وطنيتنا ، فاذا انا

عملت شعرا في المتنبي والمعري وابي تمام وشوقي ومطران ، فاني اخضع في هذا الشعر لبواعث قومية لان شعرائنا الكبار هم الذين ولدوا على اختلاف العصور روح القومية في الامة ، فلا غرابة والحالة على نحو ما وصفت ان ابدأ بالشعر القومي ، وان استمر فيه حتى هذه الايام " ص ٢٧٥ .

لقد التزم الشاعر شفيق جبري، بقضايا وطنه المصيرية ، دون ان يفرض عليه ذلك ، واختارهذا اللون الشعري من تلقاء نفسه ، بوحي من ضميره ودافع من وجدانه الحي ، فكيف تراه يحبس قلمه ويلجم لسانه ، ووطنه يتلوى تحت سياط الجلادين ، وتتنزى جراحاته الدامية ، وأمته مغلوبة على امرها ، مقهورة حتى الصميم ؟ امة سليلة مجد وعز سلبها الغاصبون حريتها واستباحوا حرماتها ، فماذا عسى ان يفعل الادباء والشعراء ؟

لم يقسره احد على الالتزام بالقضايا الوطنية والقومية غير ضميره وحسه النامي ، وشعوره اليقظ ، وقد صرح بذلك في قوله : " اننا معاشر اهل الشام نفضل الشعر الذي نرى عليه آثار القومية ، وآثار الوطنية ، لأننا في غلاب ونضال ، اننا نستخدم الشعر حتى يقوى فينا هذا الغلاب وهذا النضال " . ولذلك لم يكن ثمة مفر من ان تطغى الحماسة والثورة على شعره ، في اطواره كلها ، فيستغرب كيف تبكي العنادل اوطانها ، ولا يندب الشاعر اوطانه الجريحة الممزقة :

أتبكي العنادل اوطانها
ولا يندب المرء اوطانه ؟

فاذا ما توفي صديقه الزعيم فوزي الغزي، وكان علما من اعلام الوطنية والجهاد، وراحت دمشق تبكيه عن بكرة أبيها، هتف بهذه القصيدة الرنانة التي صب فيها كل مافي اعصابه من حمية ، وكل مافي صدره من تأجج وحماسة فقال :

بدمي وروحي الناهضين على الحمى
الطالعين على العرين اسودا
الزاحفين الى القيود وملؤهم
عزم يحل سلاسلا وقيودا
المخلصين لربعهم مضض الهوى
النازعين سخائما وحقودا
أبت المكارم أن تذل رقابهم
وأبت أمية ان تكون عبيدا

واذا ما اطل اول عيد للجلاء في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٧ ، ورأى الاعلام الوطنية ترفرف على المباني ، والرايات تخفق هنا وهناك ، ولاحت له الفرحة الغامرة تكسو وجوه القوم راح يتساءل تساؤل العارف في قصيدته "بقايا حطين " هل الشام في حلم او في يقظة ؟ وكيف يمكن ان يكون ذلك حلما ، وهذه الاعلام الخفاقة اكبر شاهد على رحيل الفرنسيين ، ونيل الوطن استقلاله :

حلم على جنبات الشام ام عيد
لا الهم هم ولا التسهيد تسهيد ؟
أتكذب العين والرايات خافقة
أم تكذب الاذن والدنيا اغاريد
على النواقيس انغام مسبحة
وفي المآذن تسبيح وتحميد

ثم يتساءل عن مصير الفرنسيين ، ويسخر مما حل بهم ، بعد ان دحرهم ثبات شعبنا وقهرهم صمود ابطالنا فيقول :

ويل النماريد لا حس ولا نبأ
ألا ترى ما غدت تلك النماريد؟

لكنه في غمرة الفرحة العارمة لا ينسى ماحل بدمشق يوم ضربها الفرنسيون بالمدافع من ذرا قاسيون ، وجعلوها طعمة للنيران ، واشاعوا الذعر والهلع في نفوس الاطفال :

يايوم آيار والنيران ملهبة
على دمشق تلظيها جلاميد
الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه
مروع من لهيب النار مكمود

كما ندد بالاستعمار الفرنسي الذي كم الافواه ، واخرس الالسنة ، وأسكت الحناجر ، ونشر العيون في كل مكان ، ترصد تحركات الجماهير الغاضبة

اخفض الصوت ولا تجهر به
رب صوت هاج فينا الظننا
عقدوا الالسن حتى صمتت
ما ترى للقوم فينا ألسنا

لم يحصر شفيق جبري اهتمامه في دائرة وطنه الصغير سورية ، بل خرج منها الى الاقطار العربية الاخرى ،ليكون شعره الغناء في أفراح العروبة، والعزاء في احزانها مثل شوقي ، ولذا راح يرثي

الزعيم المصري سعد زغلول ، ويذكر الشعب بضرورة اليقظة ، والمطالبة بالحقوق المسلوبة وعدم الذل امام الغاصبين :

لا خير في شعب يساق الى الاذى سوق الضئين
من هان في طلب الحقوق قضى بغصات المهين
عاشت لنا مصر وعاش رجال مصر الاكرمين

ويفرح لانتصار الثورات العربية التي شفت نفسه وابرأت سقمها ، فلم يعد ثمة ألم للجراح ولم يعد ثمة دمع في العيون ، وراحت الابتسامات تورق على وجوه الناس جميعا :

يا دامي الجرح لا جرح ولا ألم
الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم
امسح دموعك ان ماجت موائجها
فكل ثغر على الايام مبتسم
تلك البطولات كالاهرام راسخة
فأين ما طمسوا منها وما هدموا ؟

ويهتز طربا لهذه الثورات الوطنية الظافرة التي عمت اقطار العروبة في مصر والشام والعراق وحققت اماني الجماهير واحلامها ، فباركها الله واثنى عليها :

لله ثورات تبارك أهلها
أثنى عليها الواحد القهار
في النيل منها ضجة ميمونة
حسنت بها من ربعه الاثار
ومشى الضجيج الى الشام فرددت
اصداءه الانجاد والاغوار
أكرم بوادي النيل ان رجاله
كرهوا الخضوع فلم يعبهم عار

اما ثورة دمشق فكانت في نظره ملء الدهر ، لأنه أحمى وقودها شباب متحمسون ، نذروا دماءهم للوطن ، وقدموا انفسهم قربانا على مذبحه المقدس:

ثارت دمشق وملء الدهر ثورتها
لها على الدهر تبجيل وتمجيد
خفاقة بشباب العرب وارفة
يحنو على حوضها الشم المناجيد
(٢)

لكنه يتألم كل الالم لان العرب ناموا عن نصرة فلسطين ، وتركوا اليهود الشذاذ يعيثون فسادا في حرم قدسها ، ولذلك يدعوهم الى حصدهم حصد السنابل ، حتى يتهدم كيانهم ، وتتزلزل اركانهم التي اقاموا على الفساد :

أيعيث اليهود في حرم القدس فسادا والنوم يأخذ منا ؟
لفظتهم جوانب الارض شذاذا فتاهوا القرون قرنا فقرنا
ضجرت منهم الشياطين والانس فأنى نحنو عليهم أنى ؟
احصدوهم حصد السنابل حتى تتداعى صهيون ركنا فركنا
أو تمور السماء والارض ما دانت فلسطين عنوة او دنا

ويسخر من السلام المزيف الذي تدعو اليه بعض الدول الاستعمارية الكبرى لأنه سلام مبطن بالحرب ، يخفي في طياته اطماع هذه الدول ، ونياتها العدوانية

قالوا السلام ، وما أرى للسلم من ظل مديد
الناس في مضض الزحام من المهود الى اللحود
نصبوا بمدرجة الختال شباكهم ويح المصيد

ويهلل للحرية ، ويدعو ان تسود جميع شعوب الارض ، وترفرف راياتها في كل مكان ، فهي نعمة للشعب ، ونقمة على المستبد الذي يخاف منها ، ويتمنى ان يهتك استارها .

لاتخفضن يا دهر من قدرها
كل كريم رافع قدرها
كم حائر طاحت به ضلة
ثم اهتدى لما رأى بدرها
ومستبد راعه خطبها
يجهد في تهتيكه سترها

ويتغني بالوحدة التي قامت بين سورية ومصر، ويتمنى لو استفاق شوقي من قبره ليرى كيف اتحد هذان القطران تحت راية واحدة ، وغدا سيحققان الوحدة الكبرى بين جميع الاقطار . يقول مخاطبا شوقي :

ارم عنك الاكفان واطرح ثرى القبر وشاهد ملكا على النيل رحبا
تلتقي الشام فيه تربا لمصر كل ترب يشد في الملك تربا
وغدا تزحف الديار ديار العرب تحت الدرفس روحا وقلبا
انما العرب وحدة فاذا صال عدو كانوا عليه البا

وهكذا فقد كان شفيق جبري من بناة الفكر العربي ، وممن ارسو في شعرهم قواعد الوحدة ، ودعوا الى الحرية والالتزام والثورة على الظلم والظلام ، دون ان تخفيه رهبة مستبد ، او سلطة حاكم ..

نظرة في شعره :

يمتاز شعر شفيق جبري بالقوة والجزالة ، وتدفق العاطفة ،والتهاب المشاعر ، وقد كان للمتنبي والبحتري اثرهما الواضح في شعره ، كما يمتاز بصفاء الديباجة ، وحسن السبك ، ووضع الكلمات في مواضعها في البيت ، وهو من دعاة الاسلوب ، لا يفتأ يردد على مسامع تلاميذه قول اناتول فرانس ، " الاسلوب هوالرجل نفسه " ويعني أشد العناية بمطالع قصائده ، وربما نظم القصيدة كلها ثم راح يفكر بالطلع الذي يبدله قبل ان يستقر نهائيا .

كان يتعب في صقل شعره ،لاعتقاده ان اللفظة تشترك اشتراكا فعليا في تأدية المعنى وأن المعنى وحده لايغني عن النغمة ، ولذلك يسر القارىءبسماع شعره اكثر مما يسر بقراءته ، لأنه أنغام تطيب في السمع ،، أكثر مما تطيب فيالفكر ، ولا سيما عندما يؤديه بصوته الجهوري وهو بهذا اشبه بحافظ ابراهيم.

ولأسلوبه هذا الجرس الذي ينزل من النفس منزلة سهلة ، فهو لا يتقعر بألفاظه ، ولا تتنافر كلماته ، بل يلائم بينها بدقة فائقة ، وذوق رفيع ، ويتخيرها بمهارة وحذق .

وهو معروف بطول نفسه في النظم مع القوة والاحكام . وقد بلغت قصيدته " بطولات العرب " التي القاها في مهرجان الشعر الاول بدمشق عام ١٩٥٩ مئة وثلاثين بيتا . ولم يكن يدع الفرص - والمناسبات الطارئة تفوته ليقول الشعر الوطني ، فنظم في اربعين سعد زغلول ، وذكرى الزهاوي ، وتأبين المنفلوطي ، ومهرجان شوقي في القاهرة عام ١٩٦٠ ، وذكرىابراهيم هنانو ، وموت فوزي الغزي ، واحمد كرد علي وغيرهم .. فالمناسبات وحدها كانت تبيح قول الشعر وخاصة في القومية ، لأنها تجمع الناس للاستماع ، ويظن الدكتور سامي الدهان ان الزمان القلق والظروف الحرجة هي التي دفعت شفيق جبري الى ان يقف حياته ولسانه على التغني بهذه القومية ، فبرع فيها ، وسكت عن كل ما عداها ، وكان منه شعر متين موسيقي قوي التراكيب منسجم الابيات في وحدة متكاملة ، لاتعتمد البيت الواحد ، وانما هي كل متماسك ، دعا اليه الشاعر كل حياته ، واستمسك به فياكثر شعره ، تتسلسل فيه الابيات، فلا يتقدم بيت ، ولا يتأخر بيت ، كما نستطبع ان نفعل في اكثر اشعار القدماء.

وهو على ذلك منسق الترتيب في اجزاء قصيدته ، لا ينتقل من معنى الى اخر قبل ان يتمه على عادة الشعر الغربي وهي ميزة كبيرة لم تتح لكثير من زملائه فهو في هذا مجدد ، يسير مع الشعر الحديث في وضوح اقسامه وفي معانيه ، ويختلف الى شعره التصوير المجنح ، والعبارات الجامحة ، مما كان القدماء يسمونه بالاستعارات والمجازات ، وفي هذا يعير الالفاظ ظلالا والوانا تخلد اقواله ، ويكسوها في كثير من الاحيان بالطيب والعطر ، فتفيد منها الحواس الخمس ، وهو كل ما يطلبه العربيون عند الشاعر المحلق .

المصادر :

١ - انا والشعر لشفيق جبري ، محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة - ٥٩ .
٢ - الادب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي - دار المعارف بمصر ١٩٥٩
٣ - الشعراء الاعلام للدكتور ساميالدهان دار الانواء - ١٩٦٨ .
٤ - شعراء سورية لأحمد الجندي ، دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٦٥
٥ - الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام للدكتور جميل صليبا ، معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٥٨
٦ - تاريخالشعر العربي الحديث لأحمد قبش - دمشق - ١٩٧١
٧ - الموسوعة الموجزة لحسان الكاتب . المجلد الرابع - مطابع الف باء الاديب - دمشق ١٩٧٩
٨ - اعلام الادب والفن لأغهم الجندي . الجزء الثاني - مطبعة الاتحاد - دمشق ١٩٥٨

المجلات :

١ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - الجزء الثالث - تموز ١٩٦١
٢ - مجلة المجلة العربية - العدد الاول السنة الرابعة - ١٩٨٠
٣ - مجلة النبغ - العدد الخامس - تشرين الثاني - السنة الاولى ١٩٥٩
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - كانون الثاني ١٩٨٤

شفيق جبري رائد كبير لا ينبغي أن ننساه

بقلم: ماهر قنديل

منذ ثلاث سنوات غادرنا هذا الاديب السوري الكبير في هدوء ووقار فلم يشعر برحيله احد ، وخلا مكانه في ندوتنا فلم يتساءل عنه صديق او زميل ، هل هي الظروف الاسيفة والمحن المتكاثرة التي سلبت عيوننا الرؤية فلم تعد تدرك من حضر او غاب ، وحرمت قلوبنا النبض فلم تعد تفرح بمولودولا تحزن لميت ؟

ربما ..

ولكنه على كل حال وضع لا يدعو الى الاطمئنان ولا يدفع الى الراحة.. لأن فقدان الامم لذاكرتها هو اكبر ما يمكن ان يصيبها من محن ، واعظم ما يمكن ان يجتاحها من كوارث ..

فما كان شفيق جبري بالشخصية العابرة في حياتنا . لقد كان من هذا الرعيل العظيم الذي حمل اعباء النضال القومي، ورفع اركان النهضة الادبية في اعقاب الحرب العالمية الاولى .. فكيف ننساه كل هذا النسيان ، ونتنكر له كل هذا التنكر ؟

كان شاعرا كبيرا بمقاييس عصره .. وقد كان معظم الشعر في تلك الايام منصرفا الى الخارج ..الى مشاكل الوطن واحزانه والى معارك الامة وجراحاتها .. كانت قصيدة الشعر راية تلتف حولها الجموع، وسيفا يطعن به قلب العدو ، ونشيدا يشد من عزمات الرجال . وكانت فترة من اليقظة الوطنية والصراع القومي فرضت نفسها على كل الفنون ، وفي مقدمتها فن الشعر .

وكان شفيق جبري يومئذ في العقد الثالث من عمره .. عاصر تلك الفترة القاسية من حياة الشعب السوري حينما نقض الحلفاء وعودهم للعرب ، وراحوا يقسمون الامبرطورية العثمانية فيما بينهم .. وكانت سوريا من نصيب الفرنسيين .. ووقعت معارك وسالت دماء .. واستل شاعرنا كلمته من غمدها مع كتيبة الشعراء الوطنيين والقوميين ..

حين يقضي " هنانو " يقف شاعرنا في جامعة دمشق يبكي الزعيم الراحل ويواسي الشعب الحزين ، وعندما تمتد يد آثمة في الظلام لتغتال " فوزي الغزي " ينهض الشاعر مستنكرا ، مؤكدا ان مثل هذه الخيانة لن تنال من مسيرة النضال .

بدمي وروحي الناهضين على الحمى
الطالعين على العرين اسودا
الزاحفين الى القيود وملؤهم
.. عزم يحل سلاسلا وقيودا
أبت المكارم ان تذل رقابهم
وأبت أمية ان نكون عبيدا

وشاعرنا الشاب ينتهز كل الفرص ويستغل كل المناسبات ليؤجج روح النضال في بني قومه ، وينفخ فيهم من روح كلماته المجلجلة وموسيقاه المدوية .. فها هو ذا في رثاء احمد كرد علي ١٠٠احد رجال الصحافة السورية ، وشقيق "محمد كرد علي " يؤكد لعشيرته ان دمشق مهما ازدحمت عليها الخطوب فانها ستظل صامدة لا تستسلم ، قوية لا يصيبها الضعف ، بفضل كهولها قبل شبابها ، وبفضل عروبتها المتمكنة من نفوس ابنائها ..

لكن جلق في ازدحام خطوبها
جبارة بكهولها و شبابها
لم تستنم لأذى ، فان هاجت بها
دهم الخطوب اوت الى اقطابها
عركت عروبتها السنين ، فاقلقت
عبث السنين بجدها وبنابها
ظل العروبة وارق في جلق
متمكن في ارضها وسحابها

والذي ينظر فى شعر " شفيق جبري " السياسي سوف يلاحظ انه لم يكن شاعر الوطن السوري وحده .. كانت افاقه القومية لا تبرح ناظريه حتى في احلك الظروف التي كانت تعصف ببلده .. فقد كان يدرك منذ هذا الوقت المبكر ان مشكلة كل بلد عربي انما ترتبط ارتباط المصير بمشاكل الوطن العربي الاكبر ولهذا لم يكن غريبا ان نلتقي بصوته الجهير في كل مناسبة عربية ..
فنحن حين نسمعه في مصر يؤدي واجب العزاء في " سعد زغلول " قائد ثورة ١٩١٩فيخاطب المحتفلين بذكرى الاربعين والطائفين بضريحه في ذلك اليوم، محملا اياهم رسالة دمشق وتحيتها الى المناضل العظيم .. لم تنسه جراحات بلده التي احدثها الاستعمار في ذلك الحين ان ينهض بهذا الواجب القومي .. يقول " شفيق جبري "

يا واردين على الدفين
وصادرين عن الدفين
بالنرجس الريان والريحان
او بالياسمين
حيوا الضريح على اسم جلق
هادئين وخاشعين
تلكم أمية في دمشق
تحار في الحرج السخين
نبأ على الفيحاء هاج
كهولها والناشئين
سلمت دمشق ، فلم تزل
نهب الكوارث والشجون
ان كفكفت ماء الجفون
جرى بها ماء الجفون
لكنها يا سعد قد ذهلت
عن الالم الكمين
وتذكرت النيل بوادي
النيل هز السالمين
يا صورة الوطن الكريم
ورمز معقله المصون

وينتقل شفيق جبري بين افياء من المعاني القومية في قصيدته ، ليستخلص لابناء جيله العبرة من هذه المناسبة ، فيقول :
لا خير في شعب يساق
الى الاذى سوق الضئين
من هان في طلب الحقوق
قضى بفصات المهين

وفي نفس عام ١٩٢٧ الذي مات فيه " سعد زغلول " نراه يتجشم عناء السفر الى بغداد ليقول كلمة الشعر في تأبين شاعر العراق وفيلسوفها " جميل صدقي الزهاوي " بمناسبة ذكرى وفاته الاولى.. ويدير الشاعر في قصيدته حوارا بينه وبين دمشق التي تشفق عليه من رحلة الصحراء الشاقة .. فكيف يرضى الشاعر لنفسه ان يترك المدينة العريقة بغوطتها الحسناء ورياضها الغناء ليسلم نفسه لبيداء لا تسمع الاذن فيها صوتا ، ولاترى العين في ارجائها الا السحب الكامدة والا الموت يربض في كل نواحيها.. فلا يملك الشاعر الا ان يرد على مدينته طمأنينتها ، ويذكرها بأن من وراء هذه الصحراء بغداد ودجلة ، وتاريخا مجيدا لبني العباس ، وماضيا جمعت اواصره اطراف القطرين الشقيقين .. ثم أليست " بغداد " حزينة لفقد شاعرها . فهل تستطيع دمشق ان تقف بمنأى عن حزن اختها ؟ ..
استمع الى هذا الحوار وتأمل معي كيف استطاع الشاعر ان يصوغ عواطفه العربية في هذا الاسلوب الكلاسيكي الفخم الضخم، والذي لا تألفه آذاننا اليوم ، ومعذلك فلعلك تحس كما احسست بذلك الصدق في عواطف الشاعر ، وكيف استطاع ان يحملنا على مشاركته تلك العواطف ، ويردنا الى صور حية من ماضينا ، عساها ان تشد على ايدينا ، وتقوي من عزائمنا ..

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها
ومائج الدوح في جنبي مطرد
اتترك الروض والانغام تملأه
وننتحي البيد ، لا روض ولا غرد

ما انت والبيد تطويها وتنشرها
كأنما اليم منزوج به الامد
....

فقلت : مهلا ، وراء البيد اودية
في الرافدين عليها الاهل والولد
قد تبعد الارض الا عن جوانحنا
فليس دون اهتزاز القلب مبتعد
مهلا دمشق ، فان ازحف الى بلد
يزحف الى بنو العباس والبلد
أطوي السنين فتلقاني حيالتهم
كأنني بينهم دان وان بعدوا
أكاد ألمس في جنبي خلافتهم
كأنما الليل من لألائها يقد
وتوشك العين ان تلقى تصورهم
يموج فيها الهوى والعيشة الرغد
كأنني وحمى المأمون مزدحم
أرى الوفود الى افيائه تقد
ماس من الدهر لمتنا اواصره
لا الغور يطرحه عني ولا النجد
العندليب اذا غنى بدجلته
غنى على برداه الطائر الغرد
تآلفت فيهما الذكرى على وطن
كما تألف روح المرء والجسد
أيوجع الجرح في بغداد مهجتها
وتجمد الشام لا تبكي ولا تجد ؟

هذا هو شفيق جبري الشاعر القومي في العقد الثالث من هذا القرن ، يقف من حيث فنه الشعري الى جوار الكلاسيكيين الجدد الكبار الذين لم يكن يعنيهم ان يعبروا عن تجاربهم الذاتية ، بقدر ما يشاركون بشعرهم في الحياة العامة .

والواقع اننا على الرغم من قلة شعر " شفيق جبري " الذي بين ايدينا لان احدا لم يقم حتى الان بنشر شعره العزير ونستطيع ان نلمس لديه تلك الحساسية الفنية التي تمكنه من اختيار اوزانه والفاظه وصوره وذلك حسب الموضوع الذي يتناوله .

ونحن في هذه الحالة قد يلتبس علينا الامر فيخيل الينا اننا أمام شاعر غير الشاعر الذي عرفناه في المحافل القومية والمناسبات العامة .

اقرأ هذه القصيدة التي كتبها سنة ١٩٢٨ ، أي في تلك الفترة التي كان يزأر فيها بشعره القومي ، فسوف تسمع هذه المرة موسيقى ناعمة سريعة ، وسوف ترى صورا نفسية دقيقة تترجم عن حياة العانس البائسة وقد وقفت ذات صباح امام مرآتها تتحسر على شبابها الضائع ، ولا تجد من النعيم الذي حولها ما يعزيها عن انتقاد شريك الحياة

ونحن هنا لن نأخذ الشاعر بمقاييس عصر غير عصره ، فنذهب الى ان موقفه لم يكن بالموقف المتقدم من المرأة ، فقد اعترف في سنة ١٩٥٨ حينما نشر كتابه " انا والشعر " بأنه كان - بمعنى من المعاني - يقصد نفسه في هذه القصيدة .. ونحن نعرف ان " شفيق جبري" قد ظل طوال حياته المديدة التي جاوزت الثمانين بلا زوج او ولد .. فكأنه - كالعانس - كان ينظر الى حياته الخالية من المرأة ، فيحس ان كل ما بلغه من مجد ادبي انما هو باطل وقبض الريح . يقول " شفيق جبري " في تلك القصيدة :

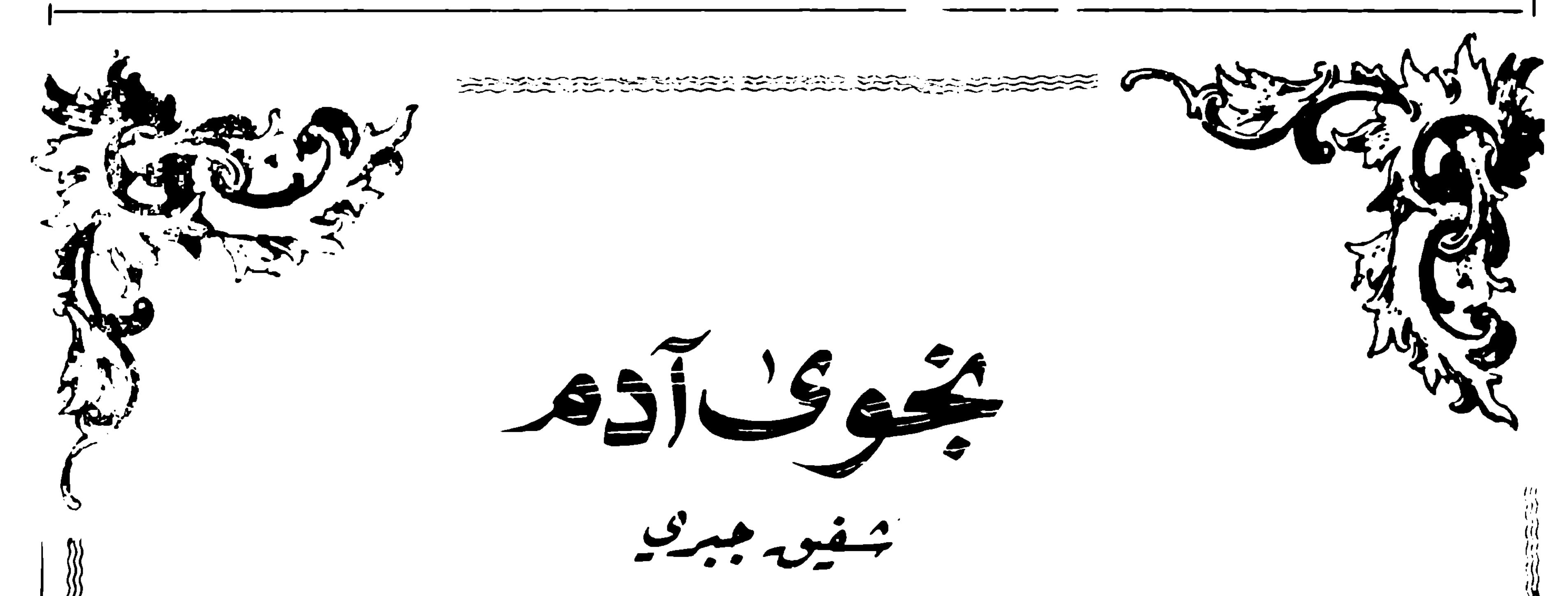
نظرت الى مرآتها
والطير في وكناتها
كتمت هواها في الفؤا
د فلاح في لحظاتها
فتأوهت حتى حسبت
الموج من اوهاتها
وبكت فكدت اخال ان
الظل من عبراتها
الشمس توحشها اذا
طلعت على شرفاتها
واذا الضحى بسمت لها
عبست على بسماتها
ما الورد ؟ ما المنثور
ما الريحان في جنباتها ؟
ما الدر ؟ ما الياقوت ؟
ما المرجان في جباتها ؟
لا تشتهي الا القرين
يلم من شتاتها

ولكن " شفيق جبري " لم يكن شاعرا فحسب ، بل اغلب الظن انه حرص على ان يطوي صفحة الشعر من حياته منذ وقت مبكر .. وانا لا ادري ما الذي دفعه الى ذلك ، وقد كان شعره مرجوا لان يتغير ويتطور ، ويترجم عن نفسه المرهفة الحس ، والتي كانت تدفعه بعيدا عن الناس بعد ان فرغ من حياة العمل كعميد لكلية الاداب بجامعة دمشق. نعم .. لا ادري لماذا انصرف " شفيق جبري " عن الشعر ..
هل هو تفرغه للنقد والتاريخ الادبي ، والى دراسة اللغة ومشاركته في مجمعها بالقاهرة ؟

ونحن في هذا الميدان نستطيع ان نعده رائدا في اتجاهين رئيسين من اتجاهات الدراسة الادبية .. اولهما هو الادب المقارن ، والثاني هو الاتجاه النفسي في دراسة الادب .

واذا ذكرنا " العقاد " و"محمد خلف الله احمد " و " حامد عبد القادر" كرواد للتحليل النفسي في الادب ، فلا بد ان نذكر معهم " شفيق جبري " .. وهو مع " العقاد " احد الذين عالجوا التاريخ العربي من ناحية نفسية ..

هذا هو الرجل الذي فقدناه منذ ثلاث سنوات ، ولم تذكره الصحافة ، الا بالنزر القليل وما اظن هذه الكلمة بكافية للوفاء بحق هذا العالم الجليل والاديب الكبير . فلعلها تكون حافزا لبعض تلاميذه ان ينهضوا بحقه الكامل عليهم .. وحقه الكامل هو دراسة حياته ، وتقديم تراثه وتقديمه للناس ، يستلهمونه ويفيدون منه ورحم الله شفيق جبري ، وأكرم مثواه ، بقدر ما احب لغته واخلص لعروبته .



نجوى آدم

شفيق جبري

فقال آدم: ما للشمس باسِمةً ... هَيْهاتَ ما نقصتْ شَجْوي وتَعذِيبي

فما الذي في مَجالِ الطَّرْفِ يُطْرِبني ... أصَحْوةُ الجوِّ أم دَفْقُ الشَّآبيبِ

أم نَظْرةٌ مِنْ رَفِيفِ الفَجْرِ ناعِسَةٌ ... كأنَّها غَمْزةٌ مِنْ عَيْنِ مَحْبُوبِ

أم نَفْثَةٌ من شِفاهِ الوَرْدِ ناعِمةٌ ... كأنَّها فُرْجَةٌ عن صَدْرِ مَكْرُوبِ

أم هبَّةٌ من نَسيمِ البانِ لَيِّنةٌ ... تُناغِمُ الخدَّ في صُبحٍ وتأويبِ

هوايَ في شَبَحٍ نَشْوانَ مِنْ مَرَحٍ ... ألهو به في دُجَى لَيلي ويَلهُو بي

أُعطِيه حُبّي ويُعطِيني محبّتَهُ ... نَذوبُ في مَثَلٍ في الحُبِّ مَضْرُوبِ

نَشدو قَوافي الهوى في ظِلِّ أُلْفَتِنا ... حَياتُنا في الهوى شِعْرُ الْمَناسِيبِ

دمشق بدون شفيق جبري

بقلم: زهير مارديني

.. وأخيرا لعب القدر لعبته ، وفصله عن دمشق ، ودفع به الى اخدود من اخاديد الارض ليثوى هناك مجرد ذكرى من الذكريات ، ولكنها بالتأكيد ذكرى من نوع خاص ، وخلود خاص ، لغيري ان يتصور دمشق بدونه .. اما انا فقد اعتدت ان اقرن دمشق باسمه ، واردد لفظة الشام وصورته أمامي ، وأتمتم باسم (جلق) وصوته يلاحقني . ومثلما لا استطيع ان أتخيل دمشق بدون الغوطة ، والمكتبة الظاهرية ، وسوق الحميدية ، كذلك لا استطيع ان اصدق ان دمشق قد تركته ينفصل عنها بمثل هذه السهولة .

فهو الذي جعل من الدنيا مجرد بيت صغير لدمشق ، او مركب صغير ، أو جزيرة صغيرة لها .. واليوم ، وعيني على الذكرى العطرة التي خلفها الرجل ، ويدي تحتضن احداث دمشق ، وعقلي يفكر في الوطن العربي الكبير الذي ما اعترفت به دمشق الا واحدا موحدا ، ولو كره جميع المتفلسفين .. في هذا اليوم بالذات أقول مخاطبا الرجل بعد وفاته ، كما كنت أخاطبه في حياته : (.. كانت كلماتك أكثر من تنبوءات .. فما أكثر ما احتوت دمشق من رجال وشخصيات ثم تركتهم بلا ظلال وبصمات وصدى ، لا داخل نفوس الدمشقيين ، لاو داخل احداثهم رغم كبر المناصب التي اغتصبوها ..

.. وبلا ذكرى ..

ان ما اقوله هنا عن الرجل سبق ان عشته ، ورأيته ، وكتبته بأيام عمري ، قبل أن أكتبه بقلمي .. لقد رأيت فيه عظمة الانسان المحب لبلده .. ومن نظراته تعلمت الصبر والعناد والتحدي والسخرية من الطغاة ، كل الطغاة ، طغاة الروح ، وطغاة الجسد ، طغاة الداخل الصغار ، وطغاة الخارج الكبار .. وبالصوته القاسي النبرات عندما يرفعه ليذكر دمشق .. وهو ، وكل قطرة من دمه تصرخ بالاصالة الدمشقية .. وعمره حين غادرنا قد تجاوز التسعين ، ولكنه ظل عمر الشاب المحب القريب من العشرين ..

وكنا في عمر الورود حين كان الرجل يدخل خريف عمره ، ومع ذلك كنا نصغي اليه وهو يتكلم بعينيه ويديه وكتفيه وحركات جسمه ..

وكنا نعرف عنه الشيء الكثير .. نعرف انه شاعر دمشق وأديبها وخطيبها وكاتبها .. نعرف انه كان اكبر من من الشهادات العلمية .. نعرف انه يفهم الدنيا من زاوية حبه لدمشق .. نعرف انه خلق ومحبة ووجدان.

وكان اشباه الطغاة يكتسحون سورية بلدا بعد بلد ، وصوته في مقهى ابي زاد (بلودان) يعلو امامنا عن الخسارة القادمة لهؤلاء الذين دنسوا تراب دمشق بعطرستهم وامتهنوا كرامة الناس بفتح ابواب السجون والمعتقلات على مصاريعها .. وكان الرجل يتحدث عن الله الذي احب دمشق حين خلقها

سمع مرة ان احد الحكام قال انه سيدمر دمشق على رؤوس اهلها ، وكان على موعد مع هذا الحاكم في مصيف الزبداني، فطلب مني ان اذهب الى هذا الحاكم وأقول له :

ان من يقول سأدمر دمشق ، لن يظفر بمقابلة مني .. وذهبت وبلغت الرسالة ، فاذا بالحاكم يطلب مني ان اصعد الى سيارته التي قادها بنفسه وذهبنا معا الى بلودان

وذهبنا معا الى منزل الرجل ، حيث أقسم امامه ان هذه الحادثة كاذبة من اساسها .

كانت دمشق تركع على قدميها ، وكان صوته ينادي في مقهى صغير ببلودان سينتصر النور ..؟

وانتصر صوت الرجل اكثر من مرة ..

ولم يمض يوم من السنوات العشر التي قضيتها قريبا من الرجل ، ولم أسمع فيه صوته .. كنت ارى فيه ظلا للسماء ، كنت احس فيه معاني الطمأنينة والخير والمحبة .. كان في وجهه صور الحب وفي صوته رنات الارغن وفي دعواته اصداء المسجدالاموي ، كان يمثل الحب في حياتي .. ومن أجله ، وبسببه احببت دمشق ، وارث دمشق ، وتراث دمشق ..

اذا صعدت يوما الى منتزه (ابو زاد) في مصيف بلودان فلن ترى بعد الان ذلك الرجل الذي كان يسير بهمة الشباب وقد قارب على التسعين ، لان شفيق جبري مات ..

آخر قصيدة نظمها ، ولم ينشرها كانت اثر وفاة الاستاذ صبري العسلي الامين العام للحزب الوطني ، واعتقد ان شفيق جبري انما كان يرثي نفسه فيها :

أغريب في ربعه ما باله
كلما جال ضاق عنه مجاله

فتراه يحدث النفس في السر
ومنه جوابه وسؤاله

لا تلمه اذا استبد به اليأ
س ولم تبتسم له آماله

أحرام على الجفون هدوء الجـ
فن حل بما يمص اكتحاله

أين ربعي وأين منه رجال
ذهب الربع واستطيرت رجاله

أتناجي ابا شجاع وقد غاب
فهذي العيون كيف تناله

هاج في أعماق القلوب دفين
الحزن فالقلب هائج بلباله

ذكرتنا ايامه زمنا ولى
تولت قصاره وطواله

فم وحدث وأنت عذب الاحادي
ث ما أمسنا ومن أبطاله

أفما كنت من بقايا نضال
ملأت تاريخ الحمى أعماله

ذكر الشام ما بنت ثورة الشا
م ، فأين البناء ام أين آله

انسينا زلزالها في الليالي
كيف ينسى من الردى زلزاله

حقبة من زماننا نال منا الضيـ
م دهرا واطال فينا مناله

ليس فيها للناس امر ولا نهـ
فما أمرنا وما مثقاله

فاستوى الموت والحياة فنعم الـ
موت ان حل بالفتى اذلاله

ما رفيف الريحان في وضح الصبح
اذا أخفت طيبة آصاله

ما جلال التاريخ ان عقه
الشعب وألوى بسحره أطفاله

واذا الشعب زال ذكر المواضي
من مغاليه آن منه زواله

عجبا كيف يهدأ الشام والشام
استبيحت في عقره أجباله

أيبيت العدو فوق جبال
تتراخى على الجبال ظلاله

أيسر العيون غمض الليالي
أفما ارق العيون احتلاله

كيف لم نحن رأسنا في احتمال ال
عار في الشام طال منا احتماله

مل منا الصبر الجميل ألم يعـ
ل على الارض والسماء ملاله

أين من يدفع الهوان عن الشام
وأين اهتزازه ونزاله

اخفض الصوت وادفن الحزن حتى
يأتي النصر او يهل هلاله

باطل طال جوله فاسأل الايا
م عمتى يرى اضمحلاله

قربوا ، قربوا الوصول الى المر
يخ ليت المريخ سهل وصاله

أترى الحر في ذراه طليقا
لم تقيد يمينه وشماله

ثراه اذا تصدى لقول
جلجلت دون فزعه أقواله

واذا صال في ميادينه الفيـ
تنزى صليله وصياله

أنسينا الليالي السود هل ينـ
سى زمان ملء الحمى أهواله

ليس يدري الفتى أيسلم مـ
ن أغلاله ام تلوى به اعلاله

ليت هذا الشباب يعلم ما كـ
ف أشياخ ربعه استقلاله

من هشيم على الجبال تردى
وحصيد على الرمال اغتياله

لو تغني الرمال لحن المآسي
لتغنت فوق البطاح رماله

او تبين الاطلال ما كابدته
لا بانت شجونها اطلاله

رب فعل أتى بغير مقال
ومقال لم تستبن أفعاله

سائل الليل والكواكب والافلا
ك أين التاريخ ، أين نضاله

لا تسل عن تاريخك الطلق هل يشـ
في جريحا من جرحه تسآله

أين ماضي اذا القتال تلظى
زحم الليل والظلام قتاله

وترامى على الخطوب كأن الـ
خطب فجر تسوقه أذياله

فاحبس الدمع لا تبل به الخد
فما يغني بالدموع ابتلاله

رب ذكرى كأنها لهب القلب
ومنها اعتلاجه واشتعاله

أيعفي العقوق ما غادرته
أعصر فيها عزنا واختياله

كيف تحيا الربوع من دون ماض
يتهادى على الربوع جلاله

نهدم اليوم ما بناه لنا الامس
فيطوي بناؤه وكماله

ما حياة الاحرار الا بيان
يملأ الكون سحره وحلاله

انما النقد للخصال كمرآ
ة تجلت للمرء فيها خصاله

ليس يخشى المرآة الا قبيح
ند عن وجهه القبيح جماله

وأرى الوجه ان ادل بحسن
ملأ الارض ضجة ادلاله

ما سلاح المضل غير قيود
يتوارى خلف القيود ضلاله

خذ متاع الحياة مني وخـ
ل القلم الحر دافقا سلساله

كيف حال الورد النضير اذا ما
حجبوا الشمس دونه كيف حاله

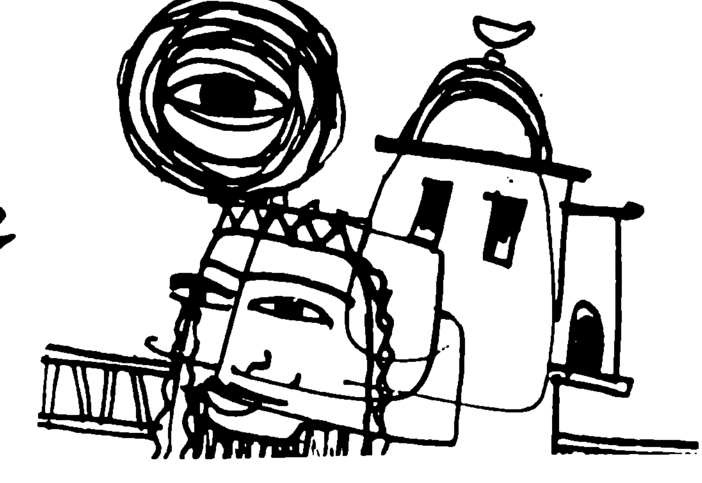
خطرات أردهن ويرجعـ
ن فما بال طيفها ما باله

جمح الشعر ما اردت جماح الشعـ
ر لكن طغى عليه خياله

واذا الشعر أشعلته المآسي
زلزل الليل والضحى أشعاله

ثَوَرات

شفيق جبري





لله ثَـوْراتٌ تَبَارَكَ أهْلُهـا — أثْنـى عَلَيْهـا الوَاحِـدُ القَهَّـارُ

في النِّيـلِ مِنْهـا ضَجَّـةٌ مَيْمُونَـةٌ ، — حَسُنَـتْ بها مِـنْ رَبْعِـهِ الآثـارُ

ومَشَى الضَّجِيجُ إلى الشّامِ فَرَدَّدَتْ — أصْـداءَهُ الأنْجَـادُ والأغْـوَارُ

أكْرِمْ بِوَادِي النِّيلِ إنَّ رِجَالَهُ — كَرِهُوا الخُضُوعَ فلم يَعِبْهُمْ عَارُ

إنّ الخُضُوعَ مَذَلَّةٌ ومَضَاضَةٌ — هل يَسْتَوِي العُبْدَانُ والأحْرَارُ ؟

مَنْ كان يرسُفُ بالقُيُودِ ولم يَثُرْ — فحياتُـهُ بين الأنَـامِ شَنَـارُ

مَنْ كان في كَنَفِ الإبَاءِ رُبُوضُهُ — حَذِرَتْ ورودَ حِياضِهِ الأقْدَارُ

إنْ لم تظلَّ سُيُوفُنا أعلامَنا — طَمَحَتْ إلى استِذْلالِنَا الأبْصَارُ

مواقف محمودة لشاعر الشام

بقلم: عبد الفتاح المصري

انه شفيق جبري الذي استأثر الله به في مطلع عام ١٩٨٠ . وقد خلف لنا ارثا فكريا وأدبيا غنيا ومتنوعا، اذ كان شاعرا مجيدا، نظم فرائد القصائد ساكبا فيها ذوب روحه وعصارة فكره، فكانت منهلا عذب المورد، فيه ساحر البيان وعميق المعاني شارك الشام اتراحها يوم كانت تعيش في ظلام الاستعمار الفرنسي، فكان النجم الذي أضاء لها طريق الحرية والاستقلال، وحين انجلى ذلك الليل البهيم، فانفرجت الاسارير، وافترت الشفاه عن ضحكات الحرية والسعادة، كان البلبل الذي غنى أفراحها، ولذا لقب بحق بشاعر الشام.

وكان الى ذلك باحثا اديبا مبدعا اغنى المكتبة العربية بدراسات أدبية متميزة ورائدة، كان لها يوم ظهرت اعمق الاثر فيما تلاها من دراسات، وفتح بها الطريق امام الكثيرين واسعا واضحا، فدرس مثلا المتنبي (مالىء الدنيا وشاغل الناس، والجاحظ (معلم العقل والادب) وأغاني ابي الفرج الاصفهاني، كما كان ناقدا اديبا ذا اراء صائبة ظهرت في مقالاته النقدية العديدة، وفي نقده التطبيقي لكثير من الكتب الادبية، زد على ذلك كله انه كان باحثا لغويا كتب في شؤون اللغة وظواهرها المقالات الكثيرة.

وقد أهله ما ذكرت لعضوية مجمع اللغة العربية بدمشق لمدة تزيد على نصف قرن، ولتولي عمادة اول كلية للاداب بجامعة دمشق على مدى عشر سنوات، ولأن يكون أحد كبار المسؤولين في وزارة المعارف السورية كما كانت تسمى آنذاك.

وكان لشفيق جبري في خلال حياته الطويلة الحافلة بالعمل الدؤوب لنهضة العرب عامة ولغتهم خاصة مواقف محمودة تذكر له بالخير حين يذكر اسمه، ارى من المفيد ان اعرض هنا طرفا منها، ليعرف من يجهل قيمة هذا الاديب الناقد اللغوي بعض ما كان له من اثر في نهضة بلاد الشام الادبية واللغوية.

في الشعر:

لنبدأ اولا بالشعر الذي عرف به اكثر ما عرف، فلقد اسهم في هذا الشعر بأذكاء نار النضال في نفوس ابناء الشعب حتى احرق لهيبها المستعمرين الفرنسيين، ويكفي ان اذكر هنا مثالا واحدا فيه الدليل على ما اقول.

ففي ايام الاحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٣٦ ، اقام الوطنيون حفلة تاريخية كبيرة لتأبين الشهيد ابراهيم هنانو احد زعماء الثورة ، وفي هذه الحفلة ، وقف شفيق جبري ، فألقى في رثاء الزعيم قصيدة من ثلاثة وستين بيتا صور فيها حياة البلاد يومذاك تصويرا دقيقا ، كان مطلعها :

لمن النعش مائجا بمصابه
زاحفا بالحمى وزهو شبابه ؟
وفيها قال :

أمة في جنازة لمها القبـ
ـر ترامت على ضياء ترابه
في التفاف من القلوب تنادى
بالسلب الحمى وبالاغتصابه
هل تنام الديار والوطن المغـ
ـلوب تلهو بهنيوب ذئابه ؟
ثورة كالجحيم ألهبت الافـ
ـق فمارت سماؤه بالتهابه

وقد كان من عواقب الحفلة والقصيدة ان اضربت دمشق اضرابها المشهور لمدة خمسين يوما ، سقطت على اثره الحكومة القائمة يومذاك ، واضطر الفرنسيون اضطرارا الى التعاون مع رجال الكتلة الوطنية ، فألف وفد منهم لمفاوضة فرنسا في عقد معاهدة .

هذا الموقف يدل على انه مازالت للشعر ، ديوان العرب ، تلك المكانة العالية في القلوب وذلك الاثر العميق في النفوس حين يكون نابعا من القلب ليصب في القلب ، اي شعرا حقيقيا ، لا كذلك الشعر الذي اخذت تنطق به اليوم اجيال من الشباب صاعدة ، تلهج السنتهم بالثناء عليه ليل نهار ، وتسود به وله الصفحات الطوال من الكتب والمجلات والصحف وتطلق عليه اسماء من مثل الشعر الحديث او الشعر الحر او الشعر المنثور .

لقد كان لشفيق جبري موقف خاص من هذا الشعر الذي يسعى جاهدا ، ودون جدوى الى ان يتربع على عرش الشعر العربي بحجة الحداثة والمعاصرة وبدعوى ان الشعر العمودي القديم لم يعد يصلح لان تكسب فيه النفس بوح مشاعرها ، ويصب فيه العقل مايزخر به من معان .

وتصدى جبري لهؤلاء الذين استخفوا بشعرنا الموروث ، وعابوا عليه موضوعاته واوزانه في آن معا .

أما الموضوعات فقالوا عنها أن شعرائنا المتقدمين عاشوا في بروجهم العالية ، ولم يتصلوا بالحياة العامة وطبقات الشعب وافراده ليصوروا مايحيون فيه من بؤس وجهل ومرض على نحو مايفعل شعراء اليوم . ويقول جبري في الرد على هؤلاء (١) " اما العصر القديم ، فقد كانت له موضوعات خاصة به ، ومن الظلم ان نطالب عصورنا القديمة بروح العصور الحديثة ، فان لكل عصر روحا خاصة به ، وقد تتغير هذه الروح بتغير الازمان ، ومن ذا الذي يستطيع ان يؤكد لنا ان المستقبل لا يجد في أدب الحاضر فتورا او جمودا او متوتا ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يضمن لنا ايمان المستقبل بأدب الحاضر ؟ فاذا انقلب المستقبل على ادبنا او طالبه بروحه ، افلا نجد في هذه المطالبة كثيرا من الظلم .

بهذا الوعي الصحيح والفهم الدقيق يدفع جبري تهمة اصحاب الشعر الحديث للشعر القديم ، ويضرب لهم الامثلة من هذا الشعر الذي يعيبونه ، فان حاسب هؤلاء شعرائنا الاقدمين على اماديحهم ورموهم بالمساومة في ثمرات قرائحهم ، وجردوهم من حسناتهم ، كان هذا حكما قاسيا كل القساوة ، فيما رأى ، ورده بأن اولئك المداحين لم يمدحوا امراء وملوكا وخلفاء ، وانما مدحوا بطولات تمت على ايديهم ، وتجلت في مديحهم هذا مبادئ رائعة ، وصور بطولات بارعة ، تكاد تلمس فيها عظمة التاريخ ، هذا ابو تمام مثلا ، لقد خلف لنا من برحه من المبادئ السامية مالم يخلفه الشعراء الذين عاشوا على الارض ، انه تغنى بوحدة التاريخ حين قال في مدحه للمعتصم :

ان كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة او زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب
ابقيت بني الاصفر المصفر كاسمهم
صفر الوجوه ، وجلت اوجه العرب

وتغنى بوحدة الوطن حين قال :
بالشام اهلي ، وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين ، وبالفسطاط اخواني

ومن بعد ابي تمام جاء المتنبي الذي خلف لنا في شعره من وراء البطولات والمبادئ نزعة قومية لم يخلفها غيره

من الشعراء ، على حد تعبير جبري، فما تكاد قصيدة من قصائده في سيف الدولة تخلو من لفظة العرب ، وهو القائل :

وانما الناس بالملوك ، فما
تفلح عرب ملوكها عجم

ثم ان الشعر لا يقاس بموضوعاته مقدار قياسه بموهبة صاحبه وفنه .

ويقول جبري بعد هذا بلهجة الناصح الامين*(٢) (اولئك الشعراء الذين نثور عليهم في ايامنا هذه لو ذقنا محاسنهم ، وعكفنا على نتائج خواطرهم، وملأنا قلوبنا من روائعهم ، لو فعلنا هذا كله لما ثرنا عليهم ، ولما عبناهم بما نعيبهم به ، بل كنا نثور على كل من تحدثه نفسه بطمس آثارهم والغض من مكانتهم والطعن في حسناتهم والتشويه لروائعهم ، هذه الطبقة من الشعراء الذين خلفهم لنا الماضي انما هي مقدسات ذلك الماضي في عصرنا هذا)

فليقرأ هذا الكلام من يعيب شعرنا القديم ، وليعمل بنصيحة من حبل على قول الشعر وعاش معه وبه بروحه وقلبه ، وسعد بصحبة تراث الاباء والاجداد زمنا طويلا .

أما اوزان الشعر القديم، فلقد ثار عليها دعاة الجديد ، لانها في نظرهم ضيقة لا تتسع لما يستنجد في هذا الشعر من عواطف وفكر وخلجات نفوس ، فكأن عواطف الناس ، كما قال جبري ، كانت جامدة في الامس ، وكأنها تغيرت اليوم ، وصارت تقاس بمقاييس البشر ، يقول في الرد على هذا (٣) (ان الشعر العربي لم تضق اوزانه ، فقد اتسعت لكل اسرار القلب ولكل انقلابات الحياة واتسعت لتصوير البطولات اتساعها لالام القلوب ، واتسعت لمظاهر الطبيعة اتساعها لدقائق الحياة ، فقد شهدت عصورنا في القديم انقلابات شتى في العلم والفلسفة والاجتماع وما شابه ذلك ، ومع هذا كله لم يحمد الشعر ولا شكا اوزانه وعروضه ولما انتقل هذا الشعر الى الاندلس صادف فيها من آثار الحضارة والنعيم مالا نكاد نصادفه يومنا هذا ، ومع ذلك فقد خاض الشعر في كل ناحية من نواحي الحياة ، فظهرت على شعرهم آثار تلك الحضارة الرائعة والنعيم البالغ ، واتسعت موشحاتهم لكل هذه الاثار) .

ويوجز لنا شاعر الشام جوهر قضية الثورة على الشعر القديم بقوله (٤) : (ان القضية في ثورتنا على الشعر ليست قضية سعة اوزان وضيقها ، ولاقضية انبساط عروض وانقباضها ، وانما المسألة مسألة تهديم من جهة وجهد وكسل ودؤوب وفتور من جهة ثانية ، فقد ضاقت اخلاقنا وضاقت اوقاتنا ، فكان همنا الوحيد الشهرة ليس الا ، فما اردنا ان نعكف على مطالعة البليغ من شعر المتقدمين والمحدثين ، ولا اردنا ان نجهد قرائحنا ، ونتعب اذهاننا ، فاننا نريد ان نقذف على الورق كل ما يعن على خواطرنا سواء اكانت لغتنا في هذه المقاذف لغة العرب او لغة الزط والنبط ، وسواء اظهر اللحن على شعرنا ام لم يظهر . فكل ما يعن لنا من الوساوس والهواجس انما هو شعر ، وانما هو شعر عصري مناسب لروح هذا العصر ولعواطف هذا العصر ، فمايخالف الوساوس والهواجس انما هو شعر ضيق الافاق جامد مهدم بال لا يصلح لهذه الايام .

على ان هذا الذي يقوله جبري لم يمنعه ان يقبل التجديد في اسلوب الشعر فضلا عن مضمونه ، ان لم يكن في هذا التجديد خروج عن مسار البيان العربي السليم ، وعنده ان التحديد قد يكون في المضمون وحده ، فليس ضروريا ان تبدل صورة التعبير على نحو تنحرف فيه عن اصول اللغة ومقاييسها الصحيحة ، ثم انه اول من يؤمن بالشعر الجديد اذا رأى في قلائده – على حد تعبيره – ما يفوق قلائد الاقمين ، لان الاصل في الفن كله قديمه وحديثه هو الابداع .

في الادب :

ولو تخطينا دائرة الشعر الى دائرة اوسع للادب عامة ، لرأينا شفيق جبري موقفا متميزا من قضية التجديد والصراع بين القديم والحديث التي تشغل الناس ، وخلاصة موقفه من التجديد الادبي تتضح في قوله التالي (٥) (اني من المتشددين في الحرص على اوضاع ادبنا والاحتفاظ بمذاهبه الا ان هذا التشدد لا يمنعنا من اقتباس ما يزيد في رونق لغتنا وادبنا ، فاني اخشى اذا جمد هذا الادب ان يضيق عن استيعاب ما استحدثته حضارة العصر ، فاذا اخذنا في بعض الاحايين عن ثقافات الامم مايحسن اخذه ، فلا حرج علينا في ذلك ، وقديما استعان ادباؤنا بآثار من جاورهم

وخالطهم ، فما نقصت مقادرهم ، ولاخفت موازينهم ، فطلعوا على قومهم بأدب مصقول الحواشي مهذب الاطراف ، على اني لا اقول المبالغة في الاخذ والاقتباس فان لميراثنا الادبي ورحا يجب علينا ان نحافظ عليه ، وان للعصر روحا مالنا منه فلت ، فالتأليف بين الروحين صقال الادب ونموه) .

نذكر قول جبري هذا ، ونذكر معه انه قد اتيح له ان يجمع الى الخبرة العميقة الواسعة بالتراث العربي الادبي ثقافة اجنبية متمكنة رفدت ادبه ودراساته بروح جديدة فكان هذا الادب ، وتلك الدراسات اصدق دليل على ما ذكره هنا ، من ان الجمع بين الامرين والمزج بينهما يصقل الادب وينميه ، ولكن بشروط ينبغي مراعاتها هي المحافظة على روح التراث ، وهذه فكرة طالما رددها ، ومراعاة روح العصر ، ثم حسن الاختيار في الاخذ عن الاخرين وعدم المبالغة في هذا الاخذ .

في اللغة :

ونمضي مع شاعر الشام خطوة اخرى لنتعرف موقفه من التجديد اللغوي عامة ، فنرى انه موقف المحافظ المعتدل الذي يكره التطرف والتعصب الاعمى على غير هدى وبصيره ، وان شئت ان تعرف موقفه من هذا التجديد ، فاقرأ معي هذه الكلمات (حياة اللغة متوقفة على تتبع روح العصر بقدر ما يكون من التمهل ، على أن يكون للغة صلة متينة بماضيها ، وما يشتمل عليه هذا الماضي من حضارة وتقاليد وآثار فنية وأدبية لاغلو في المحافظة ، ولا غلو في التجديد هذه هي حياة اللغة (٦) .

يوحي من هذا الموقف الذي ينم عن حب للعربية مكين وغيرة عليها مستحكمة ، دعا جبري الى التجديد في اللغة لان مراعات روح العصر امر لامفر منه ، ولكن للتجديد عنده حدود لئلا تسود الفوضى ويعمل كل على هواه فتضيع اللغة ، اذ ليس معنى التجديد ان يخلق كل عصر لغة خاصة ، وان يخرج بها عن روح اللغة وجوهرها ، ويوحي من هذا الموقف ايضا دعا جبري الى تسهيل اللغة لكثرة قواعد النحو فيها واختلاف المذاهب والاراء ، لأن عمرنا يضيق عنها ، ولأن عصرنا لا يتسع لما اتسعت له العصور الغابرة ، ولكن دعوته تتصف بالاعتدال على نحو ما رأيت في مواقفه السابقة ، ولذا تصدى لمن اشتط في الخروج عن المألوف ، وتطرف في الدعوة الى تسهيل العربية عن طريق استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية بحجة صعوبة الكتابة .

وقال شاعر الشام ان الصعوبة قليلة كانت ام كثيرة ، يتعذر ان تخلو منها لغة حية ، وليس هناك ما يسوغ دعوى الاستبدال ، وضرب لها مثلا باللغة الفرنسية فقال معرضا بصاحب هذه الدعوى يومذاك ، وهو عبد العزيز فهمي (٧) ، (اللغة الفرنسية على جلالة قدرها لا تخلو من كثير من المصاعب سواء أكانت هذه المصاعب في قواعد املائها ام في تصريف بعض أفعالها الشاذة ام في غير ذلك ، ولكن رجالها رأوا ان احتمال هذه المصاعب خير من ان تصبح لغتهم فوضى وخير من ان تقطع صلة الحاضر بالماضي ، فأغلقوا باب الاصلاح ، اغلق هذا الباب في باريز ، وفتح باب مثله او اوسع منه في القاهرة ، انه باب يؤدي الى ضياع اللغة بحذافيرها ، ماذا بقي للعرب من جليل فتوحاتهم وعظيم سلطانهم ؟ لم يبق لهم من هذا كله الا لغتهم وحدها ، فاذا مسخ وجه هذه اللغة مسخ ماضي العرب بأجمعه) .

أرأيت الى اهتمام جبري بتراث العرب وامجادهم ؟ أرأيت الى هذا الحرص منه على لغة العرب ، وهذا الربط الوثيق بين اللغة والتراث بل بين اللغة والحياة ؟ ثم الاحظت معي قبل كيف انه لم يغفل امر التطور ومراعاة روح العصر وكيف وقف موقف الاعتدال والموازنة الدقيقة بين المحافظة والتجديد على نحو لايطغى فيه جانب على آخر محافظة منه على حياة اللغة ..؟

وبعد ، فهذا بعض من المواقف التي تحمد لشاعر الشام ، وما اكثر ما يحمد له ان نظرنا اليها بعين الموضوعية والانصاف رأيناها ذات قيمة كبيرة ، ذلك ان فيها اصالة في الرأي ومواكبة لحركة الزمان ومحافظة على روح اللغة العربية وانفتاحا خيرا على حضارات الامم الاخرى ، ولانها صدرت عن شخصية لها مكانتها العالية ، في رأيي اذا ما وزعت المراتب والدرجات ،

جمعت الى التمكن من ناحيته اللغة السعة في الخبرة بها ، والعمق في الفهم لتراثها ، والحكمة في معالجة شؤونها وهي أمور دعت الكثير من ادباء زمان جبري ومتادبيه ان يكونوا حراصا على ان يسمعوا رأيه فيما يكتبون . او ان يقدم لما يبدعون ناقدا ومرشدا الى ما فيه خيرهم وخير العربية وأدبها .

اذا عرفنا هذا له جاز لي آن اقول ختاما ان شفيق جبري لم يكن شاعر الشام فحسب ، بل كان واحدا من ابرز بناة نهضتنا اللغوية والادبية الحديثة ، وكان له عليها فضل ينبغي الا ينسى او يتناسى .

الهوامش :

١ – يمكن الرجوع الى مجلة (مجمع اللغة العربية بدمشق) ففيها الكثير من نقد جبري المنظري والتطبيقي .
٢ – لكاتب هذه السطور دراسة مطولة بعنوان (شفيق جبري باحثا لغويا) نشرت في مجلة الموقف الادبيفي العددين ١١٣– ايلول ١٩٨٠ و ١١٩ آذار ١٩٨١ .
٣ – عن جريدة (الايام) الدمشقية – الصادرة في ٢٣ من تشرين الثاني عام ١٩٤٧.
٤ – عن مقالة (الثورة على الشعر) ، المنشورة في جريدة الايام لعهد الوحدة بين مصر وسورية ، وهي في الاصل كلمة القاها جبري في مهرجان الشعر ، وانظر في موضوع هذا القول كتاب (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور)للدكتور شوقي ضيف .
٥ – المرجع السابق
٦ – المرجع السابق نفسه ، وانظر في تأكيد هذا القول كتاب (قصة المتنبي) وقد صاغها شعرا مؤلفه الشاعر الاستاذ احمد الجندي .
٧ – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ١٠ ، الجزء ٢ ص١٠٧ مقالة (تمازج الثقافات) وانظر مقالة لكاتب هذه السطور بعنوان (شفيق جبري والتجديد في الادب) نشرت في مجلة (الثقافة العربية) الليبية ، السنة ٩ ، العدد ١٠ ، ت ١ ١٩٨٢ .
٨ – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٨ ، الجزء ٥ ، ص٢٦٦ مقالة " حياة الالفاظ " .
٩ – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩ الجزء ٧ ، ٨ ، ص٣٠١ مقالة " العربية اللاتينية " .

شفيق جبري

الشرق

ماجَتْ بأطْرافِ البِلادِ هَزاهِزُ ... يهتَزُّ مِنْها شامِخُ الأعْلامِ
ثارَتْ شُعوبُ الأرْضِ بَعْدَ خُنُوعِها ... إنَّ الخُنوعَ نَقيصَةُ الآنامِ
هَلاّ أفاقَ الشَّرْقُ مِنْ إغْفائِهِ ... ومَشَى إلى العَلْياءِ مَشْيَ كِرَامِ
وأماطَ عَنْ آفاقِهِ جُهْدَ الأذَى ... فقَضَى السِّنينَ مُوطَّأ الأقْدامِ
لا يستبِدُّ به الأجانِبُ في الحِمَى ... فَيُقادُ مِثْلَ طوائِفِ الأنْعامِ

حوار مع الاستاذ سعيد الجزائري حول صديقه الراحل شفيق جبري «وذكريات الصبا»



● الاديب الراحل شفيق جبري





● الاستاذ سعيد الجزائري

«ما خلّفه شفيق جبري في الأدب العربي دليل على عظمته»

أجرى الحوار : نادر مكانسي

بالامس وعلى مدرج جامعة دمشق ، تم تأبين الشاعر والاديب الكبير شفيق جبري وصحيح انه رحل ، لكن اعماله ، تبقى خالدة ، وتبقى شاهدا على اصالته ، وابداعه الفكري .

وما اكثر اصدقاؤه ، وتلاميذه ، واخوانه وقد اخترت الاستاذ سعيد الجزائري الذي رافقته في مجالسه ، وعرف الكثير عنه ، ليحدثنا عن الشاعر والاديب الراحل ، وسألته : هل تحدثنا عن صداقتك بالشاعر الراحل وكيف بدأت هذه الصداقة ؟

* اعتز بأنه كان صديقي ،واعتز بانه كان استاذي قبل ان يكون صديقي ، ولقد أفاق جيلنا على الحياة الادبية والفكرية في سورية ، على نخبة من الاعلام في الادب والشعر والوعي القومي ، واذا سألتني كيف تعرفت الى هذا الرجل الذي فقد الوطن العربي ، بفقدانه شاعرا متميزا من الطراز الاول ، من الشعراء المعاصرين .

اسمح لي ان اعود بك الى الماضي ، عندما كنت طالبا في مكتب عنبر في

مدينة دمشق وكان استاذنا في اللغة العربية وآدابها ، الاستاذ محمد البزم ، كان استاذنا البزم يحدثنا عن الشاعر الكبير خير الدين الزركلي ، الذي كان بعيدا عن الوطن حينئذ ، ويطلب منا ، ان نعرب اشعاره في قصائده .
وفي الوقت ذاته ، كان استاذنا يتحدث الينا باسهاب وثناء عن الاستاذ شفيق جبري .
كان يقول لنا : ان شعراء الشام في تلك الفترة هم شفيق جبري وخير الدين الزركلي وخليل مردم ، اضافة الى الاستاذ البزم ، كانت الصحف السورية حينئذ تنشر قصائد شفيق جبري وكان يلقيها بنفسه في المنتديات الادبية ، وفي المهرجانات السياسية ، وكثيرا ما كانت تلك المهرجانات حفلات رثاء لمن تنتهي بهم اجالهم .
وكنا على حداثتنا في ذلك المكتب "مكتب عنبر " وعلى اثر ما كان يلقيه محمد البزم ، علينا من دروسه ، نتابع في اهتمام بالغ قصائد شفيق جبري ونستمتع بمقطوعاته ، البليغة ، التي كانت الصحف في دمشق وحلب ، تنشرها بين حين وحين .
كثيرون ، قد عرفوا الشاعر الكبير ، اما الذين استطاعوا او استطاعت اقدارهم الحسنة ان يتعرفوا اليه عن قرب ، فكانوا يسعون ، الى مجالسه الخاصة ، ومن حظي " وعلى حداثتي ايضا " كنت - بين هؤلاء -
لا اعرف لهذا اختارني واحدا من اصدقائه المقربين ، لعله قدري ، او لأنه كان يحب الذين يعجبون به وهذه هي الطبيعة الانسانية .
وانتهيت من الدراسة الى الصحافة .
ووجدت فيها الفرص الكثيرة التي استطعت استغلالها في التقرب من هذا الرجل ، وتعارفنا جيدا ، ولا سيما في ادارات الصحف ، الكبرى ، الثلاث ، التي عملت فيها او كنت اتردد على اداراتها ، جريدة القبس ، وكان صاحبها المرحوم نجيب الريس ، يحفظ الكثير من الشعر العربي ويختتم كل مقال اختتامي ببيت من الشعر ينسجم مع موضوعه ، والاستاذ نصوح بابيل ، صاحب جريدة الايام الذي كان يحرص على الا تفوته مناسبة لايجتمع فيها مع الاستاذ شفيق ، وكذلك الحال مع الاستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة الف باء الذي كان يهتم بالادب العربي والشعر ويستشهد في الكثير من مقالاته بالابيات الشعرية ، ويضحك لي قدري دائما ، وفي حياتي الصحفية حينئذ ، ويمضي بي هذا القدر ، الى التعرف الجيد الى احد السادة ، في الادب العربي هو الاستاذ معروف ارناؤوط صاحب جريدة فتى العرب وامام ادارته ومطبعته ، في ساحة المرجة بدمشق ، حينئذ ، كنت اتقيد بالتعبير الصحفي القائل ، بان الصحافة فضول ، وانها بحث عن المتاعب وانها في الوقت نفسه صاحبة الجلالة الرابعة ، وعلى هدى هذه التعبيرات ، كنت احشر نفسي وعيني ومسمعي في حلقة صباحية يومية كان عميدها في تلك الفترة الاستاذ شفيق جبري و"نرجيلته " والاستاذ يوسف عيسى و "نرجيلته " والاستاذ نصوح بابيل و"نرجيلته " ايضا .
اما انا فكنت ادخن واصغي الى ما يتحدثون في نهم جائع الى المعرفة في الادب وفي الصحافة ، وفي الشعر القومي الوطني ، الذي كان يلقيه علينا في تلك الحلقة استاذنا شفيق جبري .

من خلال معرفتك به ، ما هو مزاجه ، وطبيعته وكيف كانت نظرته للناس ؟

ارجو الا تحرجني فقد اعددت لهذه الموضوعات جميعا دراسة شاملة قد تصدر او يصدر بعضها في ملف خاص يعده اتحاد الكتاب العرب في القطر ، ولكنني ..وقد يكون هذا في طبعي ، قد احببت فيما احببت في الاستاذ شفيق جبري هذا المزاج الخاص حاول المرحوم ان يحب الناس جميعا لانه انسان، انسان كبير ، هل الشاعر الكبير الا انسان كبير ؟ ؟
هل يتدفق ذلك البيان العذب الذي ارسله شفيق جبري من قصائد ، ومحاضرات ، وادب ، الا من انسان .
والانسان في شفيق جبري ليس موضوعا واحدا تنقله صحيفة سيارة من الافواه الى الاعين والاسماع ، ولكنه احاديث تطول وتطول .
صحيح انه كان يؤثر العزلة ، تدل على ذلك اقامته الدائمة والطويلة في بيته في مصيف بلودان ، قد يعتب عليه بعض الناس على تلك العزلة التي ارتضاها لنفسه وربما قد ارتضاها لمزاجه ، لكنه معذور فليس في طبع الفنان (والشاعر وهو الفنان) ان يتحمل من بعض الناس ما قد لايحتمل .
وقد يكون في تأثره بابي الطيب المتنبي ، قد القى على الكثيرين من الناس اقنعة سوداء .
ألم يلق المتنبي مثل هذه الاقنعة على دنيا الناس في كثير من شعره ، ومعذور ايضا في تلك العزلة . فلولاها " فيما

اظن " لم يخرج الى الناس هذه الكتب القيمة ، كانت محاضراته في كلية الادب عن المتنبي دروسا بليغة ، في التحليل القيم للشاعر العربي الخالد الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، ثم كانت محاضرته عن الجاحظ في كلية الاداب ، رحلة طويلة حلوة والرحلات الطويلة قد تطول مع الجاحظ .

كم وددت يا صديقي ، ان تقرأ كتابه عن الجاحظ ، لقد اجمع المستشرقون، بعد اعلام النقاد في الوطن العربي على ان كتابه عن الجاحظ كان خير كتاب اخرج للناس عن الجاحظ ، ثم القى في معهد الدراسات العليا محاضرات كثيرة أهمها فيما اذكر عن العلامة محمد كرد علي وقد خرجت هذه المحاضرات في كتاب ، وتحدث شفيق جبري في تلك المحاضرات عن نفسه وشعره فألف مما تحدث كتابا عنوانه " انا والشعر " وكتابا اخر عنوانه " انا والناس " لماذا صرف النظر عن تأليف هذا الكتاب ؟

هل اراد الا يكشف ما يعرف من اسرار الناس ، اردد هنا كلمة الشاعر ايليا ابو ماضي :

" لستادري ، ولكن هذه النظرة التي يظن انها سوداء لم تكن سوداء ، فقد كان في هذه العزلة يقرأ كثيرا ، ويكتب قليلا .. هذا هو السر في ان هذا الرجل الكبير استوى كبيرا في نتاجه الغالي ، في الكتب التي دارت بها عجلات المطابع في حياته والتي ستدور بها بعد موته .

كيف كانت مجالسه الخاصة ؟

عندما يأنس الى جلسائه فيها كان المرح كله والحب كله والانطلاق كله ، يحسن النكتة ، يرتجلها ، ويستشهد على الحوادث والاحداث ، في السياسة والادب والاجتماع ، يستشهد بالاشعار التي يحفظها الشعراء العرب المنطوين .

لا صحة لما يظن انه كان سوداوي المزاج اصحاب الامزجة السوداوية ، لايحبون الناس ولايحبيهم الناس ، كان حديثه مرحا ، واستقباله لمن يحب حافلا ، ونوادره عندما يتبحبح مع اخوانه ، تتدفق ساخرة ضاحكة في وقت معا . ولعله كان في طليعة العاملين بين اعضاء المجمع العلمي العربي ، وكان المجمع يكلفه بان يمثله كشاعر عربي سوري و ان يقول كلمة المجمع في المحافل والاندية .

هذا هو شفيق جبري الشاعر ، برأيك ما هو السبب في عدم طبع ديوانه الشعري ؟

سألته في بلودان عن السبب في عدم طبع ديوانه فاجابني " احسب يا سعيد انه سيطبع بعد موتي ، وبدا ان حسبانه كان حقيقة ، فديوانه سيطبع بعد موته فعلا

ولست هنا في موضع التحليل والعرض لشعره ، ان مثل هذا العمل والاقدام عليه عمل كبير ، يحتاج الى وقت طويل .

لقد جمع الراحل بين الشعر والنثر فما رأيك به كاتبا ؟

قليلون هم الشعراء الكبار في الوطن العربي الذين تفوقوا في النثر ، تفوقهم في الشعر ، في الصف الاول من هؤلاء ، هو الاستاذ شفيق جبري ، الذي الف كتبا قيمة منها ما ذكرته قبل قليل ومنها " العناصر النفسية في سياسة العرب " و " بين البحر والصحراء " و (دراسة الاغاني) و (ابو الفرج الاصبهاني " و (ارض السحر) ولم ينقطع عن الكتابة في النثر في الصحف اليومية ولا سيما في الموضوعات القومية والوطنية ولقد شارك شاعرا وكاتبا ، من الطراز الاول في الاعمال القومية ، وفي الدعوة الى الجهاد في سبيل الوحدة العربية . ويضاف الى هذا .. انه كان يكتب في احدى مراحل حياته مقالات سياسية وادبية ، باللغة الفرنسية ، في جريدة او مجلة كانت تصدر في بيروت .

وفي بعض الصحف الافرنسية ، ان تمكنه القوي من اللغة الفرنسية ، وكان قد تعلم في مدرسة العازاريين في دمشق مكن له كل التمكن من ان يجيد اللغتين في وقت معا ، ولا اعرف اذا كان نظم في الفرنسية ام لا .

وقد تركت ثقافته الفرنسية المتمكنة بصماتها على ادبه ومحاضراته ، اذا قرأ كتابه المتنبي مثلا : وجدته يستشهد باعاظم الادباء ، والمفكرين الفرنسيين.

ارجو ان تحدثنا عن المرحلة الاخيرة من حياته ؟

في المرحلة الاخيرة من حياته انقطع كل الانقطاع تقريبا عن المجيء من بلودان الى دمشق لا صيفا ولا شتاء ، بعد الاصيل عن كل مساء ، ينزل من داره في طريق ابو زاد الى ساحة بلودان ، وهناك ، مقهى صيفي ، يقضي فيه امسيات الصيف ، يتحدث الى المتحلقين في المقهى ،ويشهد اللاعبين وهم تبادلون اللعب بطاولة

الزهر ، وكان حكما ساخرا كعادته بين اللاعبين يلعب قليلا وجيدا ، لكنه كان حريصا على ان يكون هو الرابح ·واعذره ، ان الذي يربح كل الجولات في الحياة الادبية والفكرية وفي القصائد الشعرية ، يريد في الوقت نفسه ان يكون الرابح في التسلية ، وكان هذا الحرص منه موضوع تعليقات اصحابه وانا منهم ، حضرت ساعاته الاخيرة ، وكتبت عنها مقالا مطولا في مجلة هنا دمشق، وقد كنت في تلك اللحظات الاخيرة الى جانب الدكتور شكري فيصل وكان يحدثنا عن مشروعاته التي اتمها وعن مشروعات له يريد ان يتمها انه حب الحياة ، ولكننا في تلك اللحظات كنا نحس وكأن ملاك الموت ، يطل على الرجل العظيم وماذا تريدني بعد ذلك ، ان اقول ، ان شفيق جبري صفحات مذهبة في تاريخ الادب العربي والفكر العربي لا في بلادنا فحسب وانما في كل الوطن العربي .

نادر مكانسي .

شفيق جبري



مناغاة طفلة

وَمِيضُ البَرْقِ مِن ثَغْرِكْ   فَدَيْتُ البَرْقَ والثَغْرا
وهذا الشِّعْرُ مِن سِحْرِكْ   فمن علّمكِ السِّحْرا
يَحارُ الدُرُّ في نَحْرِكْ   فضَحْتِ الدُرَّ والنَّحْرا
فما أسْماكِ في طُهْرِكْ   مَلَكْتِ العَفَّ والطُهْرا

***

لئن أمْسَيْتُ من هَمّكْ   أقاسي البَثَّ والهَمّا
فهذا النَجْمُ مِنْ غَمّكْ   يُقاسي في الدُجى الغَمّا
يُضيءُ اللّيلُ مِنْ وَهْمِكْ   فتنتِ اللّيلَ والوَهْما
فما أحْلاكِ في يُسْرِكْ   جمعتِ اليُسْرَ والعُسْرا

بخلاء الجاحظ وبخيل موليير

بقلم الأستاذ: شفيق جبري



لم يبعد الجاحظ في ادبه عن مشاهد الحياة الخاصة ، فكأنه دخل في " بخلائه " دور طائفة من الناس ، فعاين مأكلهم ومشاربهم وملابسهم ، وخالطهم في تدبير منازلهم فلم يفته شيء من أساليبهم في الطبخ والاكل واللبس والعلاج والاستصباح والاستحمام وما شابه ذلك ، وكأنه شاهد كيف يتداوون في السعال بماء النخالة ، وكيف يطبخون الشاة فلا يضيعون جزءاً من أجزائها ، وكيف يأكلون بالبارجين ، ويقطعون بالسكين ، ويلزمون عند الطعام السكتة ويتركون الخوض ، وعرف وجوههم في الكراء والشراء ونحوها ، فكانت المطابخ والموائد والاواني والمواعين مادة أدبه ، فلم يتقزز في هذا الادب من ان يملأ أنفه من روائح اللحم والتوابل والسمن والخل والثوم ، أو من روائح السكباج والطباهج وغير ذلك .

وليست هذه الامور وحدها التي عاينها ولاحظها ، ولكن الاستقصاء في ذكرها امر عسير ، فالجاحظ قد دخل من كل باب ، وجرى مع كل ريح ، ولكنه لم يدخل من هذه الابواب كلها الا ليخرج منها بحجة طريفة ، او بحيلة لطيفة ، او بنادرة عجيبة .

حاول الجاحظ في " بخلائه " التنبيه على عيب مشهور ، وهو البخل ، فبسط لنا نماذج كثيرة من البخلاء ، وبين كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وكيف يلبسون ، وكيف يكنزون ، الى غير ذلك من الصور الظاهرة التي تضحك القارىء قبل كل شيء ، حتى يكاد هذا الاضحاك يصرفه عن معرفة خصائص البخل .

واذا نزعنا الى الموازنة بين أساليبنا في وصف امثال هذه العيوب وبين أساليب بعض الافرنجة ، تبين لنا أننا نحتفل في ادبنا بالظواهر وأنهم لا يكتفون بالظواهر وحدها ، فيتسربون في البواطن .

من طبائع بخيل الجاحظ انه يلاحظ اللقمة مثلا ، فاذا انتخب أكيل هذا البخيل اكلته ، واختار كل منهوم فيه ، ومفتون به ، استلب البخيل من يده اللقمة بأسرع من خطفه البازي وانحدار العقاب ، فقد صور الجاحظ حركات العين ، كيف تلاحظ اللقمة ، وحركات اليد كيف تستلب هذه اللقمة من الاكيل ، او كيف تكتفه كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا

هذه صورة ظاهرة تدلنا على نوع واحد من الحركات وهي حركات العين او اليد او امثالهما ، ولكنها هل تدلنا

على حركات النفس ؟ فهل كان بخيل الجاحظ عالميا ، غير خاص ببلد او بعصر، وانما هو بخيل كل العصور وكل البلدان ، قد طبع على ما يطبع عليه البخيل في اي عصر كان ، وفي اي بلد كان ؟

هذا سؤال يسهل الجواب عنه ، اذا قارنا بين وصفنا لعيوب النفس وبين وصفالافرنجة لهذه العيوب ، وما الغاية الاستقصاء في هذه المقارنة ، وانما الغاية التنبيه على امر واحد، وهو أننا نهتم في معظم أدبنا بالظواهر ، ويهتم الافرنجة بالبواطن ، وقد نبرع في الاهتمام بهذه الظواهر براعة خاصة ، فان كان حكاية من حكايات بخلاء الجاحظ قد تكون موضوع زاوية في ذهن كاتب من كتاب الافرنجة ، فقد أتقن التدقيق في ظواهر البخيل ، سواء أكان هذا البخيل يطبخ شيئا ، ام يؤجر دارا ، ام يوصي ولدا ، ام يطعم ضيفا ، ام يسرج مصباحا ، ولكنه هل أتقن التدقيق في بواطن البخيل ؟ لا شك في انه عرف اسرار البخلاء ، وعرف دخائلهم ، ولكنه هل صور حركات هذه الدخائل ؟

اننا لا نعرف هذا كله الا اذا قابلنا بين بخيل الجاحظ وبخيل كاتب من كتاب الافرنجة ، كبخيل " موليير " ولكننا في هذه المقابلة لا نلجأ الى شيء من التوسع .

لقد ثبت " موليير " في بخيله نموذج البخيل الحقيقي ، فلم تقتصر روايته على تصوير ما يساور صاحب المال من قلق ، ولكنها صورت البخل في كل ما يشتمل عليهمن سخرية وكراهية وفظاعة فلم يعد بخيل " موليير " البخيل القديم الذي يكنز ذهبه ، وانما هو بخيل متمول ، يقرض ماله . ويفرط في الربا ، فهو مرب عصري يثمر ماله حتى يكاد حب الربح ينسيه واجب الادب .

أما الجاحظ فلم يظهر في " بخلائه "آثار السخرية والكراهية والفظاعة ، ومعنى هذا انه لم يصور البخلاء في صور تجعلهم ضحكة للناس ، او في صور تبغضهم الى الناس ، او في صور يستفظعهم فيها الناس ، فقد كان همه الاضحاك قبل كل شيء ، حتى انه اعترف للقارئ بأن كتابه لا يصور له كل شيء ، ولا يأتي له على كنهه وعلى حدوده وعلى حقائقه ، فكان يحكى بعض الحكايات ويود لو ان القارئ راي الحكاية بعينه لأن بعض هذه الحكايات لا تطيب جدا الا اذا رآها بعينه ، فلم يكن بخيله عالميا، اي بخيل كل العصور وكل البلدان فقد اهمل تصوير قلق البخيل وتصوير ما يولده في الناس من سخرية وكراهية وفظاعة ، فاذا كنا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذي يضحكنا ظاهر البخيل ذاته لا صورة البخيل ، ولا حركات نفسه .

واذا اردت ان تعرف صورة البخيل الحقيقي ، بخيل كل العصور وكل البلدان فانظر الى بخيل " موليير " فهو لايريد ان يرى خادم ابنه منصوبا في داره كالرمح ، يلاحظ ما يقع في هذه الدار ، وهو لايريد ان يرى امامه جاسوسا تلاحظ عيناه الملعونتان اعماله وتأخذان ما يملكه وتدوران في كل جهة لعلهما تريان شيئا يمكن استلابه .

هذه صورة البخيل الحقيقي ، انه يخاف كل شيء ، ويسيء الظن بكل شيء ، فهو دائما في قلق واضطراب ، ان خرج الخادم منعنده ، فتشه ، وظن انه سرق له شيئا ، مرة يفتش يده اليمنى ومرة يده اليسرى ، ومرة يفتش اليدين ، ثم يفتش القدمين ، ثم يفتش الجيوب ، الى آخر هذه الحركات التي تدلك على حركات نفس البخيل فهو يعتقد ان كل البشر يسرقون ماله .

فالجاحظ قد تغلغل الى غايات نفس البخيل البعيدة ، مثل تغلغل " موليير " وعرف مراميها الدقيقة مثل معرفة " موليير " ولكنه لم يعرض علينا هذا القلق الذي يغالب البخيل ، وهذه الشقاوة الباطنة التي يشقاها في الخوف على ماله ، فهو يخاف كل شيء حتى هذه الصناديق التي يكنز فيها ماله ، فلا يأمنها ولا يطمئن اليها، لأنها قد تسرق له المال الذي استودعها اياه ، فهو يكتم اهل ماله ، ويظهر لهم الفقر حتى لا يطمعوا فيه ، فهم في نظره اعداء له ، وهم خونة يخونونه ، ويكتم الناس ماله حتى لا يهجموا عليه وحتى لايقتلوه ولا يسلبوه .

قد تتفق العبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الافرنجة في وصف بعض حالات ظاهرة ، فبخيل " موليير " لايريد ان يرى شيئا من البذخ والتبذير ، فاذا رأى على ابنه ثيابا فاخرة لامه ووبخه ، ومثل هذه الحالات الظاهرة كثيرا مانجدها في بخلاء الجاحظ ، وربما كان الجاحظ أوفر صورا من " موليير " في هذا المعنى

ولكن الجاحظ لم يتفنن في الكلام على حركات الظواهر، فان بخيل "موليير [illegible] في بستانه كلبا ينبح ، سبق الى ذهنه ان هذا الكلب ينبح لانه رأى لصوصا هجموا على الدار ليسرقوا مافيها

فهو ذو فكر ثابت لا يتغير ، انه خائف على ماله ، مشغول البال بهذا المال .

أجل ، قد تتفق العبقريتان في تصوير الحالات الظاهرة ، فمن جملة هذه الحالات ان بخيل " موليير " وبخلاء الجاحظ لا يعرفون كلمة " خذ " ولكنهم يعرفون كلمة " هات " ومن جملة هذه الحالات انهم يخافون على اثاث الدور من ان تمتد اليه الايدي ، ويحذرون الناس من فرك الثياب حتى لا تتقزر ، ومن مسح الاواني حتى لا تتكسر ، ولا يريدون ان يكثر الضيف من الاكل ، فالانسان يأكل ليعيش ولايعيش ليأكل ، هذه حكمة يريد بخيل "موليير" ان يكتبها بمداد من ذهب على مدخنته ،

قد تتفق العبقريتان في هذا كله ، ولكن الاختلاف يشتد في تصوير حركات النفس ، وفي تصوير قلقهما واضطرابها وجنونها ، فان بخيل "موليير لما سرق ماله طار عقله ، فأخذ يصرخ هذه الصرخات الخالدة في تصوير حالة البخيل النفسية : يا للسارق ، ياللعدل لقد ضعت ، لقد قتلت ، لقد خنقوني ، لقد سرقوا مالي ، اين السارق ، اين مكمنه ، الى أين أركض ، أهو هنا ، أهو هناك ، ويبلغ منه الجنون مبلغا يظن فيه أنه سرق نفسه ، فيقبض على ذراعيه ، ثم يعرف هذا ، فيصرخ :

اضطرب فكري ، اني اجهل من انا ،

وأجهل أين أنا ، وأجهل ما اعمل، الى آخر هذه الصفحة الخالدة في رواية " موليير " .

قد يصعب على ان ألخص في سطور ايات الجاحظ في بخلائه ، وآيات " موليير " في بخيله ، فما قصدي الاستقصاء في هذا الباب ، ولا غايتي الموازنة بين الكاتبين ، وانما تصديت للموضوع من وجه واحد ، فقد أحببت ان أبين الفرق بين الادبين ، ادب العرب وادب الافرنجة من حيث تصوير ظواهر النفس وبواطنها .

لقد نفذ " موليير " الى سخرية البشر ، فصورعلى المسرح عيوب الناس وكان يؤلمه ان يعيبوه بأنه في التصاوير التي صورها كان يمر بباله واحد من أهل عصره ، فان غايته كانت تصوير الاخلاق دون الالتفات الى رجل بعينه ، ان العصور التي عرضها انما هي صور خيالية لاتمثل رجالا حقيقيين ، اما الجاحظ فقد التقط في بخلائه احاديث اصحابه واحاديثه وما رآه بعينه ، فبخلاؤه منهم الصديق والولي ، ومنهم المستور والمتهتك ، وكان يؤلم " موليير " ان يرى وجه شبه بين صورة يعرضها على المسرح وبين صورة رجل من عصره ، لأن غايته كانت تمثيل العيوب بوجه عام ، وخاصة عيوب عصره ، وعلى هذا كان يتعذر عليه ان يصور صورة من دون ان يجد لها في عصره رجلا توافقه .

فالجاحظ لم تكن غايته تصوير البخل بوجه عام ، فبخيل الجاحظ لم يكن عالميا ، فقد يجمع هذا البخيل طائفة من صفات بخيل كل العصور وكل البلدان ، ولكننا لا نرى عليه آثار القلق وشغل البال ، فلم يصوره الجاحظ لنا في صورة لنسخر فيها منه ، ونكرهه ونستفظعه .

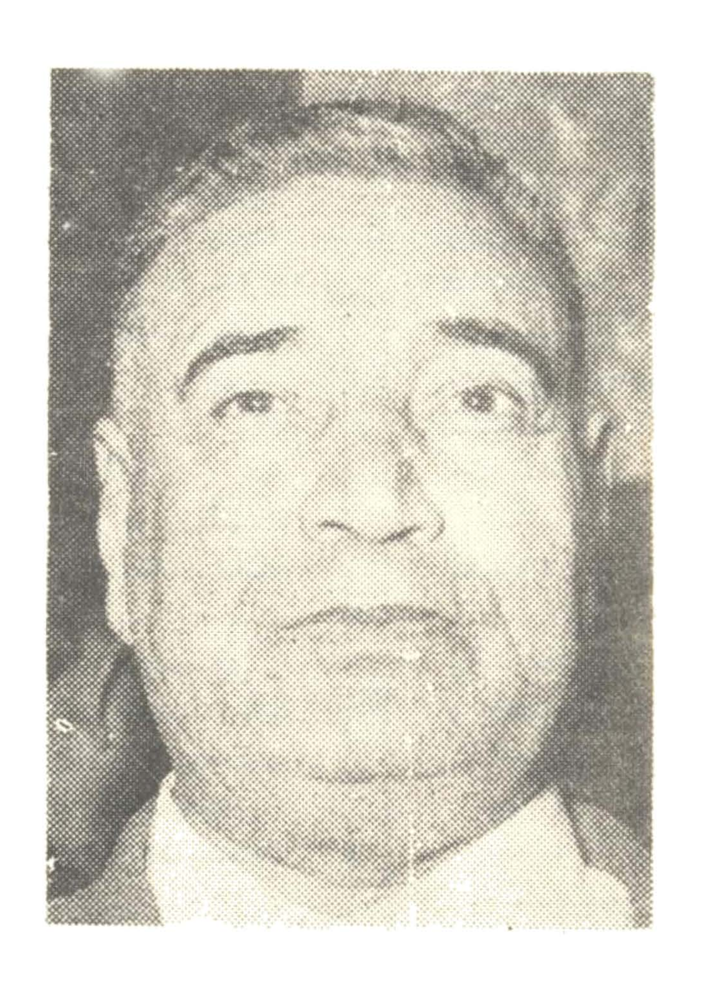
فاذا اعوز ادبنا شيء فانما يعوزه هذا الطراز من التعمق الفلسفي الذي يكشف الغطاء عن حركات النفس بعدكشف هذا الغطاء عن حركات اليد والعين .

شفيق جبري – دمشق –



قلائد العقبان

شعر الأستاذ: عباس الخليلي



جد يا شفيق بدمعك الهتان
واشف الصدور به من الاضغان

واغسل بدمع امية ما سال من
دم هاشم سفحا على الافنان

وابك الحسين بعبرة نرضى بها
لك ان تكون له الرضى الثاني

لم يرض مروان ابوك بقتله
كلا ولا يحيى اخو مروان

وهو الذي ندب ابن بنت محمد
ورثاه عند بني ابي سفيان

ترك الشريف مكانه لأمية
وأتى الشفيق لهاشم بمكان

شرف توارثه الكرام وشاعر
ورث المكارم من يد ولسان

فالشاعر العلوي خلف منعما
للشاعر الاموي سحر بيان

هو منقريش افصح الشعراء ، او
هو أشعر الفصحاء من عدنان

فرسا رهان في الفضائل سابق
او لاحق يجري بغير رهان

اعيى قريشا فقده فتنهنهت
فملكت انت قيادها بعنان

وركبت طرفا للبلاغة صائلا
بالشعر لا بمهند وسنان

شعر تضوع نشره في جلق
فشممت منه العرف في ظهران

وبه دموع الغوطتين تفجرت
فجرت الى الحرمين بالعرفان

شعر أرق من الدموع ونفثة
من صدر اكرم شاعر ولهان

بحران يلتقيان من دمع ومن
شعر وعندك يستوي البحران

فتبيت تنثر من دموعك لؤلؤا
وتظل تنظم منه عقد جمان

دمع جرى من مقلة اموية
أم نظم در في نحور غواني

أبيات شعر فصلت آياتها
وقصائد كقلائد العقيان

وعواطف تحكي النسيم بلطفها
ولطائف كروائح الريحان

ونوافح بالشام طاب عبيرها
فجرى الحنان بها الى ايران

انا فارسي هزني شوقي الى
مغناك هز الرمح يوم طعان

فاشفق على قلبي يذوب صبابة
من حر وجد في حشاشة عاني

وغريرة طرقت فقلت لها انزلي
بالرحب بين شوارف ودنان

نزلت فجاء الضغن ينفث سمه
ورنت بطرف حاقد فتان

جلست وقالت ليس لي ان التهي
او تنتهي عن رشف بنت الحاني

ساغت معاقرة الدنان لمسلم
ام حل شرب الراح في القرآن ؟

باتت تسائلني فكنت اجيبها
باللثم من فم واله سكران

سكران من خمر ومن ريق فقل
شتان بينهما وقل سيان

فالخمر مر ضمه دن الحشا
والريق حلو دنه الشفتان

لكن من الراح احلى عندنا
من مر قول هاج بالعدوان

قالت أظنك رافضا فابتعد
عني فمن نابذت ليس يدان

فأجبتها ما الرفض من ديني ولا
نصب العداوة بالخنى من شاني

ما الدين الا الحب اين وجدته
والحب نعم الدين للانسان

اني لأسخر من اناس بدلوا
في الغي دين الحب بالشنآن

فتيانهم بالعجز مثل شيوخهم
وشيوخهم بالجهل كالصبيان

أحن تقادم عهدها فتقاقمت
واتى (الشقيق) يرضها بحنان

اعيى بياني قوله متوجعا
اعييت دموع الغوطتين بياني

الاستاذ عباس الخليلي

شفيق جبري شاعر الشام

بقلم

الدكتور: خالد قوطرش

قامة مديدة فرعاء ، تعلوها هامة مستديرة ، ووجه مستطيل جذاب ذو ملامح من جمال خاص ، فيه عينان نضاحتان بالذكاء والاشعاع ، وفم صغير مدور ، ذو شفتين رقيقتين وأنف مستقيم وجبهة عريضة مشرقة وبشرة بين البياض والسمرة الخفيفة . هادئ اذا مشى وصامت اذا جلس ، وله في الحالين هيبة مهيبة ، يعلوها عنفوان ، وتسموها كبرياء ، تميزها العزة والكرامة ، وشعور مطمئن بالثقة في النفس .

يجالس البسطاء من الناس ، ويلعب معهم (بالنرد) ببساطة متناهية ويجالسه الادباء والعلماء ، ويتحدث عن الجاحظ والمتنبي وأناتول فرانس وبركسون ، عن اطلاع ، واسع وخبرة عميقة .
ومن هؤلاء النفر
ومن الناس امن اذا رأيتهم عرفت وهلة مهنهم وما يحبون ، وشفيق جبري من هؤلاء النفر ذوي السمات البينة والملامح الواضحة .. اذا رأيته لأول مرة ولا تعرفه ولم تسمع باسمه .. وكنت على قسط من الفراسة قلت هذا شاعر ..
روى لي احد الاصدقاء : ان شوقي لما زار دمشق منذ خمس وخمسين سنة وأمه وفود أدباء سورية وشعرائها يرحبون به ، قال لمن حوله من جلسائه في فندق الخوام مشيرا الى شفيق جبري وهو لا يعرفه : " ان هذا الشاب شاعر ، وقد كان جبري وقتئذ في مطلع شبابه وفي اول الشوط من شاطئ بحر القريض ولم يتعد اسمه بعد القطر العربي السوري .. وجاء مع الواقدين مرحبين بأمير الشعر والشعراء .

اذا تحدث شفيق جبري هزك .. واذا سكت هزك .. وهو في حديثه وسكوته ، بيان مشرق واشراق من البيان .. بايعه شعراء قطره وأدباؤه ولقبوه بشاعر الشام وهو لما يبلغ الثلاثين .. ونال مرتبة عالية في وزارة المعارف وأظهر شفيق جبري من حسن الادارة والحزم وضبط العمل ما لم يظهره أعاظم الاداريين والمنظمين ، خبرة ودراية ، فخالف تلك القاعدة التي تقول: بفوض الشعراء وعجزهم في الاعمال الادارية . وتلك ميزة من مزايا عبقريته ..

أكمل دراسته الثانوية في مدرسة اللفازاريين " في دمشق فأتقن الفرنسية يوم كان اتقان اللغة الاجنبية امرا نادرا ، ثم تابع دراسته بنفسه ، فقرأ الادب القديم وأتقنه ، واطلع على الادب الفرنسي واستكمله . فصار شاعرا في العربية وكاتبا في الفرنسية ، فجمع بين

الدكتور خالد قوطرش

كنوز لغة الجاحظ وبيانها ، ورياض لغة " فولتير ". واشراقها .. هذا هو شاعر الشام شفيق جبري .. ولد في دمشق عام ١٨٩٨ ، أبوه درويش آغا جبري من كبار تجار الاغنام في دمشق ، / الشام / وامه امرأة فاضلة من آسرة دمشقية فاضلة من آل (الطباع) ، مات ابوه وهو لم يزل في مدارج الشباب فألقى عليه مسؤولية الرعاية لأمه وأشقائه الثلاثة الصغار .

كنا في دار المعلمين نحفظ الاناشيد الوطنية ، ونعد اعدادا مسلكيا لنلقنها بدورنا لتلاميذتنا الصغار، وكان استاذنا الموسيقار مصطفى الصواف هو الذي ينشدنا على أنغام " البيانو " ، وايقاعه :

أنا يا طير مغلول	متى أنجو من الغل
وهذا البال مشغول	فما يلهو عن الشغل
أعن ياطير في الاسر	فتى لم يألف الاسرا
وقم غرد مع الفجر	وغن الروض والفجرا
أنا ياطير مغلول	فهلتحنو على غلي
لقد أحنوا على صبري	فألهم قلبي الصبرا

كانت هذه الانشودة اول ابيات حفظتها للشاعر شفيق جبري وكنت من صغري، أتذوق الشعر وأطرب له متأثرا بأمي الشاعرة وأخوالي من آل الزركلي ، لقننا هذا التذوق أساتذتنا البزم والجندي والمبارك.. فشعرت وأنا أنشد - أنا يا طير مغلول -- بأن غلا يحكم غله حول جيد الوطن السوري ، وكان الانتداب الفرنسي يطوق البلاد .. وعهد الثورة السورية ثورة عام ١٩٢٥ وضحاياها واهوالها لم يزل قريبا .. يشعر بآلامها وأحزانها وفواجعها الصغير والكبير .. فكانت قصيدة (أنا يا طير مغلول وما تلتها من قصائد وطنية في مناسبات وطنية لشفيق جبري .. كانت حوافز قوية للشعب السوري لاسترداد حريته واستقلاله .. والحرية في نظر الشاعر ، أقدس مقدسات الحياة ، وقد صدر ديوانه بهذه العبارة وبخط يده :

" ما أظن ان الادب يقدس شيئا تقديسه للحرية في مجامع صورها .. ولا تنضر أزاهير الادب ، الا في ظلالها..والامة التي لا تذوق نفحة الحرية ولا يلبث الادب فيها ان يجف ينابيعه ."

تذكرني هذه الكلمات بكلمة شاعر فرنسا العظيم (لامارتين) حيث يقول : " خنق الحرية في أمة ، خنق للامة برمتها ".

واذا انصفنا التاريخ لدى كتابة التاريخ ، قلنا بأن ديوان (نوح العندليب لشفيق جبري) كان من أعظم السبلوارفعها في صنع الاستقلال السوري .

وديوان نوح العندليب هذا من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق صدر في شهر آب ١٩٨٤ ،وهو من ٤١٧ صفحة صدره المجمع بكلمة مقتضية ، وكتب المقدمة المرحوم الدكتور شكري فيصل عضو مجمع اللغة العربية وأستاذ الادب العربي في جامعتي دمشق والمدينة المنورة ، وحقق الديوان وشرحه صديقنا العزيز الاستاذ قدري الحكيم .

جاء شعر شفيق جبري في طليعة الريادة الشعرية والنهضة الادبية ووصف المقاومة الوطنية والاماني القومية في محاربة الاستعمار وتحقيق الحرية والاستقلال ..

لشعره شخصيته الخاصة .. كما للشاعر شخصيته المميزة .. ألفاظ سهلة عذبة ، فالصوت والصورة في شعر جبري ذات صلة ويقى بالمعاني وهما منسجمان كانسجام الواقع مع الخيال ، يتسم أدبه شعرا كان أم نثرا ، بسمة الشعر العربي الاصيل ، ونثره البليغ الفصيح ، بسمة البيان المبين ، تحيط بانتاجه الادبي احاطة هدب الجفون بسواد العيون .. وقد

أدرك جبري بعفوية الشاعر المطبوع هذا الانسجام الجميل في كل ما كتب وأنتج .. فقرأناه يقول في كتابه "انا والشعر " (لكل لفظة في الشعر منزلة عظيمة .. فهي التي تزيد من حسن هذا الشعر ، او تنقص منه .. وهي التي ترفع من شأن هذا الشعر او تخفضه ".

تأثر شفيق جبري كما يذكر في كتابه " أنا والشعر " و " انا والنثر " بابن المقفع والجاحظ والمتنبي والبحتري وابي تمام .. كما تأثر بفولتير وروسو، واناتول فرانس .. حفظ شعر هؤلاء واستظهر نثر اولئك .. فمن الشعر الذي حفظ والنثر الذي استظهر ، ظهر أدب جبري نابعا من شخصية جبري .. ومن الجهل أن يقال : هذا شاعر مقلد وذاك محدد ، ولكن من العلم والمعرفة ان يقال : هذا شاعر متأثر بذلك الشاعر ، فلكل شاعر طبعه ومزاجه واسلوبه .. وانه لادراك بدائي مقصور، ان يقيد الشاعر بنهج محصور ، وما الادب في رأينا الا سلسلة شعور وآلام يصوغها الشعراء

والكتاب بعفوية وحرية على مر العصور والايام ، ويعهدها جيل لجيل ، فيشرق العقد اذا كان في الجيل شعر مشرق .. وتخبو شعلة الشعر والادب قاطبة اذا عقم الجيل ، ونحرت الحرية ، وعم الفزع ، واستشري الغث ، واستطال العجز واستبرق السفه ..

عين جبري في نهاية عقد الاربعينات عميدا لكلية الآداب في الجامعة السورية وكانت العمادة او الاستذة في تلك الحقبة ، محصورة بحملة ألقاب الدكتوراه ..فاستصدر وزير المعارف حينذاك الدكتور منير العجلاني مرسوماخاصا بشفيق جبري يضع عضوية المجمع العلمي العربي في منزلة حامل الدكتوراه ..

تلك لفتة رقيقة ، رفعت مكانة أولئك العلماء والادباء العصاميين ، الذين ثقفوا عقولهم بجدهم وجهدهم ، امثال العقاد والرافعي والرصافي وحافظ وجبران ونعيمة والشدياق والريحاني وغيرهم من من أئمة النهضة الفكرية ورواد الادب الحديث .

وتخرج في عهدعمادته طائفة من أدباء الشام ، ولا تزال اسماء بعضهم تواصل العطاء الادبي والتأليف العلمي والتقدم الفكري .. وألف شفيق جبري خلال هذه الحقبة احسن كتبه ومؤلفاته .. ألف كتابه المشهور " الجاحظ " وفي دائرة اطلاعنا ، لا نعرف كتابا اخر ، عن الجاحظ يشمل حياة الجاحظ وما ألفه ابو عثمان من البدائع ككتاب شفيق جبري ، وألف أيضا كتابا عن المتنبي ودراسة الاغاني ومن المخطوطات احمد فارس الشدياق واحمد شوقي وكتب اخرى درسها في معهد الدراسات العليا في القاهرة ، أنا والشعر ، انا والنثر ، احمد كرد علي وكتاب ارض السحر طبع وزارة الثقافة ومخطوطة على صخور صقيلية ، وكتب مطبوعة : ابو الفرج الاصبهاني ، الادب بين البحر والصحراء .. العناصر النفسية في حكم العرب ++

فلسفة جبري في الحياة :

اعتزل شفيق جبري الناس في أواخر حياته ، وفي طبعه حب العزلة ، والتزم دارته في مصيف بلودان وهو القائل :

تذكرني نفسي وهيهات ما أنسى
جراحا أمضت جانبي فما توسى
ويؤنسني هجر الديار وأهلها
فلست أرى في الناس قاطبة أنسا
وما يئست من الدهر ، وانما
تنكرت الاخلاق فاختارت البأسا
تجافت عن الدهماء .. لم تحتفل بهم
ترى عبسهم بشرا ، وبشرهم عبسا
فما ألفت في الليل بارقة الدجى
ولا هيناغت في رفيق الضحا الشمسا
ومالي وما للناس أبغي وصالهم
فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بوسى

تفوح من هذه الابيات ، رائحة التشاؤم ، والعدمية .. فهل كانت فلسفته في الحياة ، الفلسفة العدمية ، وان كل شيء في الحياة عبث ولعب وعدم ، في الحياة بلا ريب ، تفاؤل ، وتشاؤم .. والتفاؤل من الفن .. والفن من الابداع .. وكل شاعر مطبوع كشفيق جبري ، هو في رأينا.. مغن .. أو كما يقولون فنان ، والفنان وان بدا من الظاهر كئيبا ، هو في الواقع ، من الداخل نشيط ومتفائل ، يقول :" اندره جيد " ليست الكآبة في الفنان الا حيوية منكفئة " هذا صحيح .. فالفنان مبشر للابداع وداع الى استمرار حيوية الحياة .. بينما نرى التشاؤم آتيا من الهدم .. من الدمار ، وليس المتشائم بفنان .. من أجل ذلك نرى ابا العلاء وشوبنهور .. على خلاف ما رآهما كثير من النقاد ، نراهما متفائلين لامتشائمين .. لأنهما فنانان عظيمان مبدعان ، ولا صلة بين الابداع والتشاؤم .. كما انه لا رباط بين الهدم والتفاؤل .. في التفاؤل تصميم ومقاومة ونضال ، وفي التشاؤم هوان وتخاذل واستسلام .

فعلى هذا الاساس ، نرى ان فلسفة جبري في الحياة ، ككل شاعر مفطور ، فلسفة متفائلة ، تدعو الى الابداع والبناء ، وتناهض الهدم والفناء.. وما ثورة الشاعر على الفساد والشر والاضطهاد ومفاسد الاخلاق الا دعوة للخير ومكارم الاخلاق ، هذه مثالب موجودة في المجتمعات البشرية ولاسبيل الى نكرانها ، ونقمة الشاعر الفنان على الحياة دليل على حبه للحياة وتعلقه بخير الحياة وتطلعه نحو حياة أفضل ، ان الفنان في انفعالاته الداخلية يحارب الشر في سبيل الخير ، ان الحب الاكبر والجهاد الاكبر في سبيل انتصار الحق والخير والجمال على الظلم والشر والهلع ، وان تسميته لديوانه ب " نوح العندليب " لقبس ساطع في نهجه هذا ..

ويمكن تلخيص نهجه في الحياة ولا اقول فلسفته ، لان الشعر شيء والفلسفة شيء آخر ، وان جمعتهما الكلمة الادبية الجميلة ، كان منهجه منهجا نضاليا بناء متفائلا ، وان بدا في مظهره ومظاهره كما اشرت نهجا انعزاليا متشائما كارهـا للناس ، وما قوله : مالي وما للناس ابغي وصالهم - فما وصلهم نعمى ولاهجرهم بؤس، الا من جنوح عاطفة الشاعر وشرودها وما اكثر هذا الجنوح وذاك الشرود ، انظر الى قوله :

فما ألفت في الليل بارقة الدجى
ولا هيناغت في رفيق الضحى الشمسا

انه لقول جميل في غاية من الصدق والصورة الشعرية البهية .. انه تناغم رائع في الكلمات وانسجام بديع في النسيج والمعنى والخيال ، ففي اكثر شعره حلاوة في اللفظ ومتانة في التركيب وطلاوة في في الاشراق وابتكار في المعاني وتحليق في الخيال .

ومن المألوف عند الشعراء ، أن تنتاب الشاعر وهو معتلج في تأليف قصيدته نوازع مختلفة ، الوانها وصورها ،ومشاعرها فعلى الناقد اللبق ، ذي الذوق الخالص والحس المرهف ، والشعور اللطيف والعلم الغزير ، الا يحاسب الشاعر على كل ما يبدر منه ، وقد تجد التباين بينا بينما جدا في اقواله واشعاره ، وهو فيكل ما يقول صادق الشعور، أمين الحس، عفوي الصورة ، عقلي المنطق ، ومن عادته ان يعيد كلمة واحدة ، او اكثر في صدر البيت وعجزه كقوله :

فعيونه مواحة بدموعه
ودموعه ممزوجة بدمائه
وأنيسه في ليلة برحاؤه
ويل له في الليل من برحائه

علموه كيف يعنو فعنا
وشنوه عن علاه فانثنى
واقتنى العار ولم يحفل به
واقتناء العار شر المقتنى

وليس في هذه الاعادة عيب ، انها نوع من الجناس الخفيف الظل المحبب ، في التلاوة والسمع والايقاع .. ولا ينفرد جبري بهذا التكرار ، فيكاد الشعر العربي كله ينحو هذا المنحى .. وشعر سيد القوافي مملوء بهذا الجناس الظريف وكذلك شعر بشار وابي نواس وابن الرومي.

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

ولا ريب ان من يؤلف شعرا ككبار شعراء العربية في ازهى عصورها وهو في سن العشرين كشفيق جبري ، لهو شاعر فحل من فحول الشعراء المتقدمين والمتأخرين، فجبري ولد شاعرا وعاش شاعرا وهو شاعر من مواج وطبع فريد .. فانصرف بكليته الى الشعر والادب متعته العليا ، ولا تعلوها متعة اخرى في نظره وبقى متعلقا بهذه المتعة في مصيفه بلودان الى اخر ايامه :

يا ساقيا والخمر ملء كؤوسه
أطرح كؤوسك واسقني الالحانا
قد عشت في ظل القوافي حقبة
أجد الشباب بظلها فينانا
ما هاجني الا صدى ايقاعها
امسي واصبح بالصدى سكرانا
خمسون عاما في مراس زحامها
حتى استكان لي الزمام ولانا
جربت من مضفى الهوى لذاته
وبلوت منه نواعما وحسانا
ما راقني الا البيان وسحره
فأملأ كؤوسك ان سقيت بيانا
وأدر على الشعر ان غنيته
حتى أشل بوقعه الاحزانا
فيه العزاء وفيه كل مسرة
تروي بعذب معينها الظمآنا

ووصفه صديق الشاعر اللبناني "قبلان الرياضي" بقوله :

الى جبري سلام من صديق
يحن الى ملاقات الصديق
بروحي شاعر فخم المعاني
بعيد مذاهب الفكر الرقيق
يغوص على بحار الشعر كذا
فيدرك لجة المعنى العميق
وتضبط كل شاردة يداه
بكل أعز ممتنع عقوق
وينسج كل حالية شرود
كوشي الثوب للقد الرشيق
وكم روت معانيه ودقت
كما روت مشعشعة الرحيق

وكما وصفه صديق الشاعر الكبير بدوي الجبل :

أستاذنا وأديبنا الكبير شفيق جبري:
يلم " شفيق " كوكبا بعد كوكب
ونسق فيها العقد فهو نظيم
معاني بألوان الجمال غنية
كما زف ألوان الطيوب نسيم

سقاني سلاف الشعر حتى ترنحت
دموع وغنت لوعة وكلوم
(مع خالص المحبة والتقدير والاحترام -
١٩٧٩/١/١٠) بدوي الجبل .

ووصفه صديق الشاعر المعروف الدكتور زكي المحاسني:
فديت ابا البيان شفيق جبري
فقد حلى البيان جلال سحر
سموت الى قصائده فبانت
يرددها الوجود نشيد دهر
لو ان تناسخ الارواح حق
وصدق في نفوس الخلق يجري
فأنت اذن سماوي القوافي
بك " المتنبي " استذري بشعر
أديب الشام شأنك عندليب
فغرد واملأ الدنيا بجهر
لعلك قد قنعت بدار عدن
على هضباتها الانسام تشري
فأنت المجد يسكن فوق طود
" بلودان " به فازت ببدر
ترقرق شعرك السامي عليها
سبيلا سال مواجا بعطر
لعشت على مسامرة الدراري
بعمر يستمر مدار عصر
فيا استاذنا لا زلت تحيا
بآلاء من الرحمن تكري
بك التاريخ اكرم صفحتيه
فكان بما صنعت سجل فخر
(د . زكي المحاسني ١٩٧١/٩/١٥)

وقال العوضي الوكيل في القاهرة وهو من كبار الشعراء :
اذا قرأت لجبري
قرأت أفخم شعر
عواطف .. وشعور
في ثوب عقل وفكر
لأنت في القول عندي
اقوى مكر مفر
تختار لفظك عذبا
كأنه وجه فجر
الحق فيك مبين
حق البيان لعمري
أشدو به وأغني
ملء الزمان وأطري
(الشاعر العوض الوكيل - القاهرة).

ومن قصيدة لشاعر حماه بدرالدين الحامد :
أنت يا شاعر الشام عليم
كم بكينا غب النوى أيامه
حسن يا شفيق ان تنعش النا
س فينسى اخو الاسى ايامه
للقريض البديع أنت أمام
خلد الله للقريض امامه
ما نسيم الصباح حمله النور
د نضيرا اريجه وسلامه
قد عرفناك شاعرا في معانيـ
ك وفي اللفظ قد عشقنا انسجامه
نفحات من القلوب صداها
كلنا واجد بها أنغامه
فاذا نظمت شعرا رأينا
فيه معنى الجمال وجها وقامه
تنزل الوحي من أعاليه طوعا
لا تخاف احتباسه وانصرامه
أيها الشاعر الذي زين القطـ
ر حيما لبنانه وشآمه
داونا بالنظم فهو عزاء
للقلوب الشجية المستهامه
قد سئمنا ترديدنو كل يوم
شعر قوم لا يعدلون قلامه
والزمان الذي تولى غشوم
سامنا الذل جهرة والظلامه
فأعنا على الزمان بشعر
ساحل البحر فيضه والغمامه
شعرك العذب يا بن جبري خضم
قد وردها عبابه وحمامه
ما عليه وهو الخضم اذا ما
نال من كل شاعرنا عظامه
(كانون الثاني - ١٩٢٨ م)

والشاعر الثائر شفيق جبري يبدو في نثره كما في شعره مبدعا ومجددا ورائعا ، فنثره فيمستوى شعره ، وقد استطاع وهو تلميذ في المرحلة الابتدائية ان يفرق بين الجيدوالغث ، والجميل والهش من الادب . وهذا مؤشر من مؤشراته استعداده الادبي الكامن في فطرته .. ينتظر شرارة من نور لينير ويستنير ..

يقول الشاعر والناقد الانكليزي الامريكي توماس ستارت اليوت :(الشعر صفوة من المعارف الانسانية) وشعر شفيق جبري يجمع بين عمق الثقافة وروعة الاداء، وهو في كل ما انتج شعرا كان ام نثرا حريص كما ذكرنا آنفا على حسن الصياغة وايقاعها ، وسبكها سبكا متينا في بلاغة ادباء العرب الاقدمين مع المحاولة الموفقة نحو التجديد ..

قد يكون شفيق جبري شاعر المناسبات الوطنية ، وشعره امتداد لشعر البارودي وشوقي وحافظ والرصافي ، وليس في ذلك عيب او غضاضة فعصره كان عصر المناسبات الوطنية ، والشعور الوطني كان غالبا على كل شيء حتى على تناجي الشاعر

والطبيعة - كما يقول -وكان جبري مخلصا لاحداث عصره وكان متفاعلا بأهوال عصره .. والاصالة الشعرية تتصل بأحداث العصر وتتفاعل مع أهواله وفواجعه .. والا لم تكن الاصالة شعرا ، ولم يكن الشعر احساسا وصورا وتفاعلا ، والشعر احل من أن يقاس بالمتر .. قد ينتاب الشاعر احيانا كآبة الصمت او صمت الكآبة .. وليست هذه الكآبة عند الشاعر الا جدولا من الماء الصافي مسحونا بين الصخر والتبر .. ينتظر حادثة او مناسبة كبرى ليتفجر نبعا عذبا وعينا صافية ، فكان الاحتلال الفرنسي في سورية والبريطاني في فلسطين والعراق والاردن ، ووعد بلفور في اقامة وطن قومي لليهود .. هذه الدويلات كلها النازلة بالامة العربية كانت سببا مباشرا في تفجير موهبته الشعرية مستلهما آلام بني وطنه وآمالهم ، فجرت على لسانه قصائده الوطنية والقومية .
جرت مجرى الجداول والانهار ، على ألسنة الناس وفي نفوسهم ، فصنعت الاستقلال واستردت حرية البلاد ..

واذا كان الفن هو الشعور بواقع الانسان الاليم ثم التعبير عن هذا الشعور المنبعث من الواقع ، بالرسم والنحت واللحن والنغم والشعر والنثر والمسرح مع تطلع الفنان ابدا نحو حياة أفضل ، فلا ريب ان الشاعر شفيق جبري فنان عظيم ، والفن والواقع صفحتان من كتاب واحد . ولا يشرق الفن ولا تسطع انواره الا من خلال الواقع ، وألمع النجوم من استمد بريقه من واقع الحياة .

قلت ان شفيق جبري اعتزل الحياة في آخر حياته ، وفي طبعه العزلة وفي مزاجه الانطواء ..:

ومالي وما للناس ابغي وصالهم
فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسى

ولكنه لم يعتزل الشعر ولم ينطوي على الادب ، وهو الذي عاش طوال حياته للشعر والادب ، فثابر على قول الشعر وان غابت المناسبة الوطنية ، بعد استقلال سورية وزوال الانتداب ، ولكن لم تغب عن شعوره الحساس المرهف ووعيه القومي الحاد تخبط البلاد ، خلال تلك الحقبة في فوضى الانقلابات العسكرية والهزات العنيفة في أنظمة الحكومات المحلية التي اجتاحت العالم العربي بأسره بعد اعلان دولة اسرائيل وتأييد دول الاستعمار للكيان الصهيوني الدخيل على المنطقة .. ففاضت قريحة الشاعر بقصائد مثيرة بديعة ، دونت تاريخ تلك الفترة بنيازك ملهبة وبنبال من لظى الحس والشعور ، هي غاية في الشعور القومي والحس الوطني ، وقطعته الفنية " من الرفش الى العرش " خير لوحة صورت مشاعر بني وطنه في ذلك الخضم من الاضطراب السياسي والتخبط الاجتماعي والقلق الاقتصادي .

ومن العجيب ان يهمل ديوانه " نوح العندليب " تلك القصائد الرائعة التي هي في نظرنا اروع ما ابدع الشاعر ، ولكن هذه القصائد بقيت سرا .. ومن مناقب السر وعجائبه ان يستتر السر في عجائبه ، وتلك روعة من لاروعة عنده .

عاش جبري عيشة الشعراء المفكرين المتنورين .. فلم يعرف عنه انه انساق في حياة صاخبة عنيفة ، بل عاش حياة شخصية منسجمة مع الاتزان الفكري والعاطفي ، فلم يسمح للعاطفة ان تفلت من عقال العقل ، ولم يترك العقل يطغى على العاطفة ، فقد حباه الله ارادة حكيمة عرفت كيف توازن بين كفتي الميزان فلا ظفاف ولا جفاف بل حياة واعية معتدلة .

بللوا الارض واخضبوا وجهها الحر
فلا يشفى في اليوم غير خضابه
قسما بالحمى وارباب حتى
يعود الحمى الى اربابه

وهي قصيدة من سبعة وستين بيتا ، كتب الشاعر عنها في كتابه "انا والشعر" يقول " ولكن الحفلة التي هاج الناس فيها وماجوا ، وكنت ترى العمائم تتطاير في فضاء مدرج الجامعة في دمشق ، انما هي حفلة ابراهيم هنانو ، فكان من نتائج هذه الحفلة ان اضربت سورية ستين يوما ، أقفلت فيها الدكاكين والمخازن والمتاجر احتجاجا على الفرنسيين وسياستهم ، حتى كان من نتائج هذا الاضراب ، نزول الفرنسيين على ارادة البلاد وعقدهم معاهدة ١٩٣٦ .. فلم يتجل الشعور الوطني في حفلة تجليه في حفلة " هنانو ".

سمعته يلقي قصيدته في الحفل الذي اقيم في احد احياء دمشق ، تكريما للزعيم السوري " الدكتور عبد الرحمن الشهبندر " بمناسبة عودته الى الوطن عام ١٩٣٧ ، ورفع حكم الاعدام من قبل السلطة المنتدبة عن الشهبندر ومجاهدي الثورة السورية .. وكان هذا العفو عن المجاهدين احد المكاسب المباشرة للاضراب الستيني الذي اندفع اواره في حفلة ابراهيم هنانو وقصيدة جبري .

سمعته يلقي قصيدته الملتهبة في بيت من بيوتات دمشق الواسعة ، رحم الله تلك البيوت واصحابها ، ودمعة حرى على ذكراها :

يا دامي الجرح لا حرج ولا ألم
يد الزعيم تداويه فيلتئم

سمعته ورأيته وكنا عصبة من شباب ثائر على الانتداب .. فأقامنا شفيق جبري وأقعدنا .

شفيق جبري والشعر الحديث :

ماذا تنتظر من شاعر ترعرع ونشأ في كنف شعر المعلقات وجرير والفرزدق ، وبشار والكميت وابي نواس وابن الرومي ، والبحتري والمتنبي والمعري ،ماذا تنتظر منه ورأيه في هذا الشعر الذي يسمونه تارة الشعر المنثور او الشعر المشعور ، او قصيدة النثر .. وتارة اخرى يسمونه شعر التفعيلة الى اخر الاسماء غير الحسنى ، شعر سداه العجز والجهل بجمال اللغة العربية وآدابها ،ولحمته كلام عجيب غريب ، ليس هو من الشعر ولا من النثر ، كلام لا وزن له ولا قافية ولا معنى تخفى معانيه على قائله ، فكيف بقارئه ؟ قد يكون نمط القصيدة العربية وهو كذلك، غير انماط قصائد اللغات الاخرى ، فلا يحوز التقليد في الفرع مالا يجيزه الاصل.

وما يسمى بالشعر الحديث حتى الان، مرفوض من القارئ العربي ، الا أقله ، فليتق الله في لغة الضاد الجميلة ، صانعو هذا الكلام الغريب، والناشرون والمخرجون والمطبلون والمزمرون ، استمع الى رأيه في الشعر الحديث من قصيدته ، مناجاة البحتري :

أتراه يصغي الى نحوانا
فقد كفانا من الاذى ما كفانا
أفسدوا الشعر بالحديد من الشع
ر وظنوا جديدهم فتانا
يتلهون بالسفاسف منه
حسبوه لهوا فذل وهانا
كل يوم ترى فنونا من القو
ل فعفنا الاقوال والافنانا

كان شفيق جبري رحمه الله محبا لامه حبا جما ، ككل شاعر مرهف الحس وربما كان هذا الحب احد العوامل التي دفعتني لكتابة هذا البحث ، لانني كنت مثله أحب أمي حبا كبيرا ، متعلقا بها أخفض لها طوال حياتي جناح الرضى من الرحمة ، حنا الشاعر جبري على أمه ، وعاشت راضية مرضية ، ولما ماتت بكاها بهذه الابيات بكاء حزينا اليما :

أمي لست ارى في الارض قاطبة
أعز منك على السمع والبصر
ناديتك اليوم لا حس ولا خبر
فأين منك دوي الحس والخبر ؟
غادرت في القلب جرحا كلما هدأت
آلامه اتقدت في القلب كالشرر
لو تسمحين جعلت الصدر متكئا
لرأسك الطهر في الظلماء والحفر

كتب في كتابه " انا والشعر" اني لم أحب احدا في حياتي كلها مقدار حبي لأمي ، لقد شغل حبها كل ناحية من نواحي قلبي ، كانت ملء هذا القلب، لاتكاد الدنيا وزينتها تعدل جزءا من هذا الحب وقد بلغ من ولعي بها اني كنت لا استطيع ان أفاتحها بهذا الولع .. وقد كانت تشعر به ، كانت معاملتي لها الدليل القوي على عمق عاطفتي ، ولقد كانت تبادلني بمثل هذه العاطفة ، فكانت ترى الدنيا كلها في ، وكنت أرى الدنيا كلها فيها ، حتى توفاها الله في ١٠ايلول ١٩٥٧ فما الذي قلت فيها من الشعر ؟ وقد رثيت رجالا كثيرين من اهل السياسة والادب والشعر ، رثيت رجالا في القديم والحديث ، وكنت صادقا في شعوري فلماذا لم أرث امي حتى اليوم ، لمذا لم أقل فيها الا هذه الابيات ، ؟ وانا قلت هذه الابيات لأضعها على قبرها .. نضر الله عظامها ، أظن ان العاطفة تستيقظ في بعض الاحيان حتى تقوى وتشتد ، وحتى تغلب على كل منثور من القول ومنظوم ، فاذا فتش الانسان في مذاهب البيان عن شيء يصور به هذه العاطفة فلا يكاد يهتدي الى شيء ، لأنها اقوى من كل بيان فالالفاظ في بعض الحالات عاجزة عن تصويرما يشعر به القلب .. ولولا هذا العجز لرثيت امي قبل كل احد من الناس ، ولظهر هذا الرثاء اصدق ما يكون ظهوره من شعور وعاطفة .. الا انني لا ازال اتصور منزلتها في قلبي واتصور هذا الفراغ الذي كانت تملؤه في هذا القلب ، فألوب حول شعر أفرغ فيه هذا التصور فلا يجيئني .. فأكتم الاسى في قلبي واقول :
قد يكون السكوت في بعض المصائب ابلغ من الشعر ..

ما احمل هذا النثر وما اعذبه ، انه نثر من الشعر بل اسمى من الشعر ، كان رحمه الله شاعرا ، ناثرا ، وهو من الطبقة الممتازة بين الشعراء ،والناثرين والكتابة عن شاعر كبير كشفيق جبري ليست

نزهة ذهنية سهلة ، لا لضيق الافق ولكن لاتساع الافاق ، ولا لغور الابداع وجفافه ، بل لازدهاره وفيضه وتألقه .

آمل أن اكون قد وفقت بعض التوفيق ارضاء للحقيقة الادبية واستقراء لادب الحقيقة .

عاش رحمه الله حياة شاعر ومات ميتة شاعر ، كان زاهدا بمظاهر التبجيل والتعظيم ومراسم الحفل والاحتفال شأن عظماء الرجال .. وكان في وداعه يوم دفنه أشقاؤه وبعض اصحابه .. ووري الثرى طيب الله ثراه في صمت وهدوء .. دون ضجة او رجة .. كما كان يجب ويشتهي .. ورقد اخيرا في مسقره الاخير في مقبرة باب الصغير بدمشق حيث يرقد فيها ابن تيمية وابن قيم الجوزية ونزل ضيفا عليها يوم الاربعاء في السادس من شهر ربيع الاول عام ١٤٠٠ هـ والموافق ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٠ ، وثوى الشاعر الفريد في لحده وحيدا . كالنجم المرقد في عليائه فريدا .

د . خالد قوطرش

مؤلفات شفيق جبري

كتب مطبوعة

المتنبي
الجاحظ
دراسة الاغاني
احمد فارس الشدياق

محمد كرد علي
أنا والشعر
أنا والنثر

العناصر النفسية في سياسة العرب
البحر والصحراء
ابو الفرج الاصبهاني
أرض السحر
ديوان شاعر الشام
نوح العندليب

كتب مخطوطة

على صخور صقيلية
افكاري — ٢ —
محاضرات جامعة الكويت
دراسة عن شوقي

رثاء شفيق جبري

الشاعر الأستاذ محمد الحريري

شببت فوق جبال الشعر نيرانا ... حتى أراك من الابعاد بركانا

لم تنطفىء لهبا ، من قلبه يده ... يخط فوق جبين الشمس عنوانا

وسا الفناء ، وهل يطوى من ارتسمت ... ملامح البرق منه فوق نجوانا

أطلعت في روحنا شمسا معربدة ... تهفو لنا الشمس آفاقا وألوانا

والشمس في الافق كنز النور مؤتلقا ... والشمس في الروح كنز الشعرنشوانا

فعد بنا للرياحين التي غرست ... براحتيك فان الشوق أضنانا

في غرة الشام فوح من معاطرها ... يصابح الشام انداء وريحانا

وفي شفاه دمشق من مذاقتها ... ما أذهل الدن حتى بات سكرانا

والدن صاح ولم تسكره خمرته ... يوما وتسكره الاشعار مذ كانا

أبو نواس رفيق الكأس ما سكرت ... الا على شعره الكأس التي صانا

*

شفيق ، أذكرتني الاشجار باسقة ... في روضة الشعر أوراقا وأغصانا

في كل غصن ثمار نسج قافية ... تهدلت بعريق الجني ريانا

في القيمرية في الشاغور نفحتها ... تهز من ميسة الاعطاف ميدانا

وفي زوايا دمشق في معارجها ... يزين كالزهر منك الشعر جدرانا

اذا ولجنا يحي عمقه ولعا ... هزار شعرك غنانا فأغوانا

مرددا شعراء الانس ان كتموا ... فشعرهم حلق ما عاف آذانا

وان هم ابعدوا ما جف منبرهم ... ألم يريقوا عليه الشعر غدرانا

من قال للبحر غض تهزأ بقولته ... ملامح البر أطوادا وشطآنا

الشعر والناس معشوق وعاشقة ... ما صادفا ابدا بعدا وهجرانا

ان اعرض الناس مات الشعر مكتئبا ... أو اعرض الشعر مات الناس نسيانا

حبل من الروح مجدول وقاطعه ... عتا وأمعن في الاجرام امعانا

جيش من الهذيان اجتاح معقلنا الشعري ... مفجرة منه وعدوانا

فاستشهد الوزن والتفعيلة انتهكت ... وأصبح الشعر نثرا غام تبيانا

سمت حضارتنا في الشعر فائتمروا ... على حضارتنا روحا وبنيانا

*

شفيق ، محبرة أخصبت قد حفلت   بالشعر والنثر الماسا ومرجانا
النثر جودته خلقا فهل هبطت   مكانة منه دون الشعر احسانا
ان اتقن النثر ساوى الشعر مرتبة   وان هما اختلفا في الحسن ميزانا
على الاغاني لعوب من مفاتنها   اطربتها باليراع الفذ الحانا
هبت تراقص والفصحى تصوغ لها   من البلاغة قدا ماس أفنانا
فصاح من طرب طاغ ابو فرج   متنا ومر بنا جبري فأحيانا
ورحت في موكب الافذاذ مكتشفا   كنوزهم لؤلؤا بضا وعقيانا
على ذراعك قنديل تشق به   دهليز فكر عن الاجداد آتانا
دخلت فيه على جهد الضياء الى   حيث الشواهق ارواحا واذهانا
العنكبوت عليه ضارب نسجا   من طول مانمنم الاهمال نكرانا
فالجاحظ انبلجت اسفاره ألقا   لما سكبت عليه النور هتانا
اطلقت سخرية منه لو اندرجت   على زماني لشابت منه بهتانا
بحر المهازل موار ويعوزه   غيوم سخر تصب اللذغ طوفانا

لو شامه الجاحظ المغداق لانطبقت   عيناه مرتعدا من هول ما عانى
وهب يعجب منا فاغرا فمه   مستسلما يتقي ذعرا خطايانا
ورحت ، توغل في الازمان فاكتحلت   عيناك بالمتنبي هز أركانا
لما شرعت عليه باحثا قلما   اعطاك من شعره الدفاق شريانا
عببت منه على كأس معطرة   بوردة البحث تجويدا واتقانا
لما تنشق منك الحرف مزدهيا   قد راح بالسطر لا بالزهر نشوانا
وقبل القلم المعطاء منك كما   يقبل السيف اجلالا وتحنانا

*

شفيق اشعل ليالينا فما التهبت   الا على مثل ما اشعلت نيرانا
هذا أنا طالب في ظل جامعة   اغزوك مزدهيا بالسلب مزدانا
هيهات تفلت مني لفظة بزغت   جلوتها قسيت اعجاب فصحانا
سمعي لها مسرح واللفظة ارتقصت   في مسرح السمع ايقاعا والحانا
جواهر اللفظ يا جبري قد انطفأت   في جبرنا اليوم اشعاعا وتبيانا
واللفظ ان اسكتت قسرا بلابله   يذوق اكثر مما ذاق موتانا
شفيق ، حوطت بالاجلال جامعة   على منابرها اشرفت سلطانا
مهما بعدت فلن تنأى وقد رفعت   تمثال حبك مزهوا حنايانا
لما علوت ذرى بلودان منفردا   لم تكس من دوحها بل منك تيجانا
هناك في هامها مقهى تتوق له   ان زرته يتحدى الكون جذلانا
يبوس ثغرك من نرجيلة هتفت   دمشق تسكن في جبري بلودانا
ولفك الموت من أحضان ذروتها   وكنت تملأها صدرا واحضانا
خطاك في ثلجها رقت ملامسها   فعانقتها الثلوج الغر اخدانا
فرد وحيد ببيت ، كل أسرته   كتب تناغى كما الاطفال تحنانا
واسرة العبقري الفذ مكتبة   تضم من كتبه شيبا وولدانا
أمام بيتك في آفاقه قمر   يبكيك ثاني بدر غاب أكوانا
لكن سيطلع بعد الفقد في أفق   من الخلود ولن ينجاب سلوانا
والعبقري بعيد الموت مولده   والقبر قصر لمن يبني مزايانا

في رحاب الأدب السعودي

إعداد : تميم الحكيم

شاعر وأبيات

(عبد المحسن حليت مسلم)، شاعر شاب استطاع بابداعه الشعري ان يصل بفترة وجيزة الى الطبقة الاولى من شعراء (المملكة العربية السعودية) المعاصرين..

ولد في المدينة المنورة عام ١٣٧٧ هـ ، وأنهى دراسته الثانوية فيها ، ثم درس الادارة العامة في الولايات المتحدة الامريكية)ويعمل مديرا لتحرير صحيفة (سعودي جازيت).

أصدر في عام ١٤٠٣ هـ ديوانه الشعري الاول (مقاطع من الوجدان) الذي قدم له الشاعر الكبير (عمر ابو ريشة) كما صدر في عام ١٤٠٥ هـ ، ديوانه الشعري الثاني (اليه)

وهو من شعراء القصيدة العمودية الاصيلة ، التي تتجلى فيها قوة العاطفة ، وصدق الالتزام كما تتعانق في قصائده صور والوان القصيدة العربية القديمة بصور وألوان القصيدة العربية المعاصرة

انطلقت شهرته الشعرية بعد نشر قصيدته (كهولة العشرين)، التي كتبها في لندن عام ١٩٨٢م ، ومطلعها :

دب المشيب ووافى اثره الاجل
ماعاد في العيش لي قصد ولا أمل

ويقول فيها :

حب ابن آدم للدنيا مخادعة
تشقي العقول ويربو عندها الخطل

مرارة العيش فيها من حلاوتها
وشدة الجد فيها كلها هزل

وقبحها خلف طيف الحسن مستتر
قد حار فيها لعمري الذم والغزل

بها تمرست اعواما فأسلمني
سرابها لنجاح اصله فشل

ويصور (الحليت) الواقع الاجتماعي والسياسي العربي في الكثير من قصائده ومنها قوله ، فيمن تنكر لمسؤولياته ، وذهب الى اوروبا وغيرها ، بحثا عن ملذاته ، وسعيا وراء شهواته :

نحن يا سيدي ضحايا لياليك
ولذاتك التي لا تزول

لك وجه ممرغ في المخازي
وحبين وشارب مفتول

نسفت ظهرك البغايا طويلا
فهو في ساحة الفراش طلول

كم وباء به أتيت الينا
وأتانا من صيفك المحصول

ومن غزلياته : قوله :

أنا لن أتوب عن الهوى فهو الذي
بجمال كل جميلة أوصاني

وبكل خد عاطر وضفيرة
وبكل ثغر كالمغارب قاني

بقصائدي اوصلت أصغر عاشق
قمم الهوى ورفعته ببياني

وبأحرفي اطلقت كل مقيد
وبأسطري شجعت كل جبان

** من المكتبة السعودية :

– الابحار في ليل الشجن : ديوان شعري لمحمد فهد العيسى ، يضم باقة قصائد من شعر التفعيلة ، الذي يعتبر الشاعر من روادها في الادب المحلي السعودي .. وقد قدم الاستاذ رجاء النقاش لهذه المجموعة الشعرية الصادرة عن (تهامة) عام ١٩٨٠م

– القمر والتشريح : مجموعة قصصية للدكتور عبد الله احمد باقازي ، رئيس قسم البلاغة والنقد في جامعة ام القرى .
بين دفتي هذه المجموعة احدى عشرة قصة ، تعالج موضوعات مختلفة ، بأسلوب ادبي ممتع .. وهي صادرة عن نادي مكة الثقافي الادبي عام ١٩٨٦م

* أخبار أدبية :

– شارف مبنى (نادي ابها الادبي) الجديد على الانتهاء ويضم هذا المبنى صالة تتسع لاكثر من خمسمائة مقعد .. وقد صمم بناؤه وفق النظام المعماري التراثي لمنطقة (عسير)
– سيقوم نادي مكة الثقافي الادبي لاول مرة ، بإصدار كتاب يضم عددا مختارا من المحاضرات التي ألقيت في النادي ضمن المواسم الثقافية للسنوات الماضية .. وسيأتي هذا الكتاب في سلسلة مطبوعات النادي لهذه السنة .
– عن عمر يناهز الستين سنة ، توفي الكاتب والاديب والمربي الاستاذ سلامة الجهني ، الذي ظل متصديا لمسؤولية القلم حتى آخر ايامه ..

** مختارات من أقوالهم :

– (الكاتب المخلص لنفسه اولا ، وللناس ثانيا .. فاذا لم يصدق الكاتب مع نفسه ، فبالتأكيد لا يصدق مع الناس .. واعني بالصدق، كرامة العاطفة ، لا انانية التعاطف يسقط الكاتب حينما يقول (انا) ويرتفع الكاتب حينما يقول (نحن)
الاديب الشيخ محمد محسن زيدان

– الشعر هو شعور منفعل ووجدان متأجج ، وفكر متحرر منطلق ، اذ هي لم تتوفر للشعر لم يكن شعرا .. فكثير من الشعر العمودي هو مجرد نظم لا اكثر ولا اقل .. وكثير من الشعر المتحرر منها ، لا بصفة كاملة ، كشعر السياب والبياتي وعبد الصبور وعبد المعطي حجازي ونازك الملائكة ، وبعض شعرائنا الذين ينهجون هذا النهج ، لهم شعر رائع يفيض بالحس والعاطفة والوجدان والفكر ، وان لم يلتزم بالوزن والقافية التزاما كاملا
الشاعر الشيخ محمد حسن فقي

– ابداع الرجل هو انعكاس لحنان المرأة ، وعطائها المتدفق له ، فهو ابداع للمرأة نفسها ، وفخر وشرف كبير لها ، لأنها كانت وراء هذا الابداع وملهمته .. فوراء كل مبدع امرأة ..
الكاتبة سهيلة زين العابدين حماد

طالعوا صباح كل سبت

الثقافة الأسبوعية

مجلة فكرية جامعة تصدر في دمشق

مؤسسها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش